إصدار مميز بمناسبة تحرير سوريا

رواء

مجلة فكرية دورية

- مَن أسقط الأسد؟
- تركنا الجهاد.. وكانت فتنة
- الناجون من الأَسْر: بين التأثيرات النفسية والمسؤوليات الاجتماعية
- عملية تحرير سوريا: قراءة من منظور السيرة النبوية
- فلسطين قضية المسلمين بين التيه القائم واستحقاقات الوعد القادم
- بذور علاقات الملالي بالغرب، وخفايا إيرانية بين عهدين ١٩٥٠-١٩٨٩م

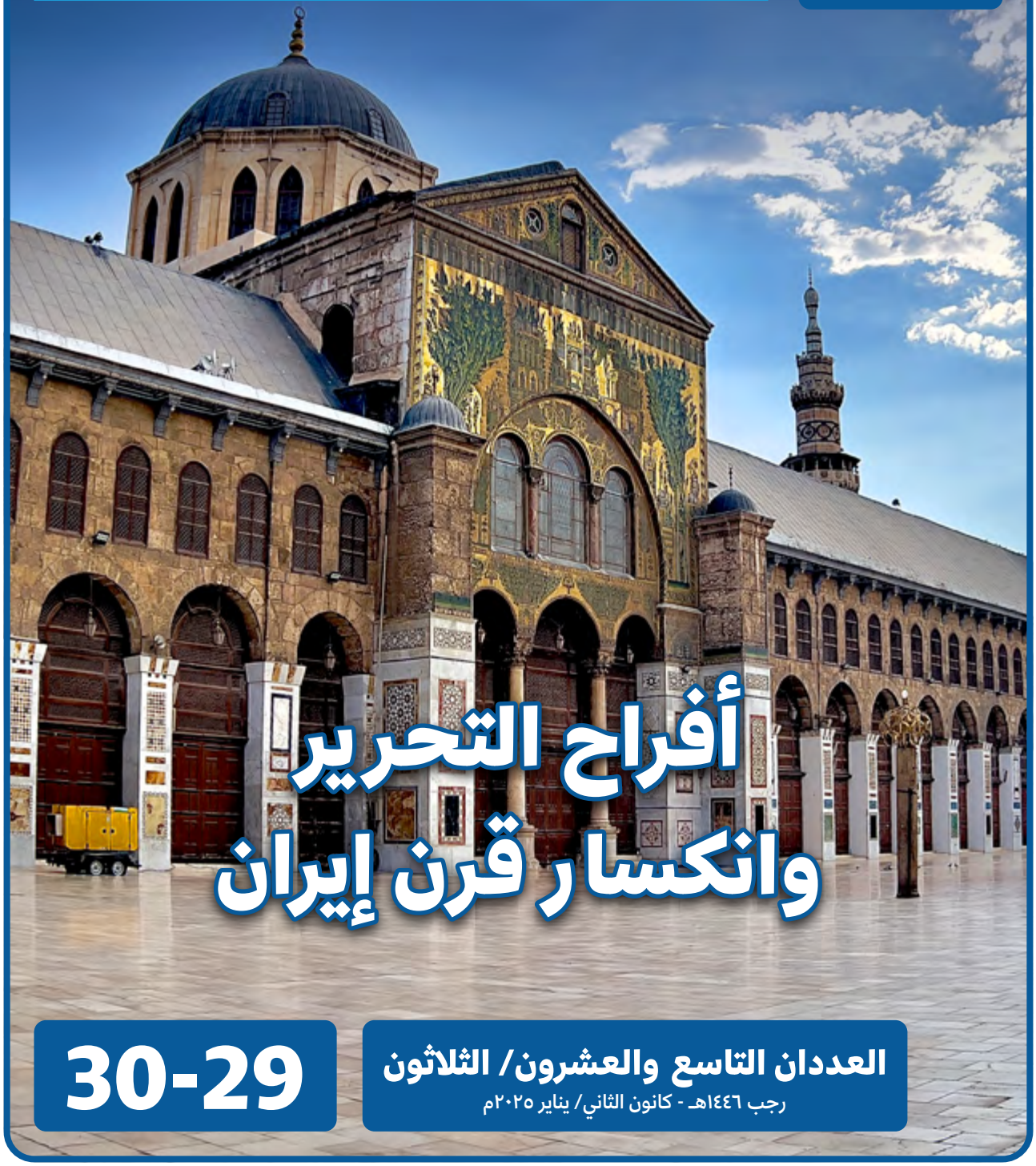

أفراح التحرير وانكسار قرن إيران

العددان التاسع والعشرون/ الثلاثون

رجب ١٤٤٦هـ - كانون الثاني/ يناير ٢٠٢٥م

30-29

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

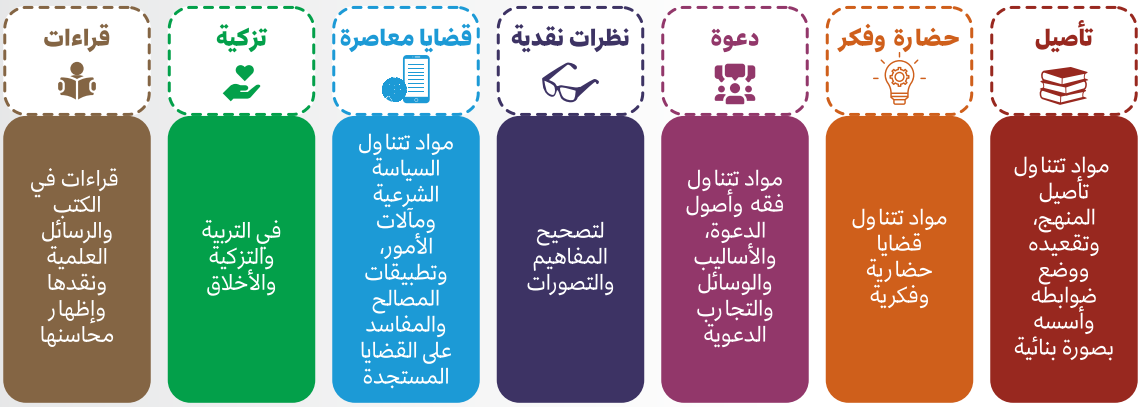

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين
هيئة الشام الإسلامية

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

التصميم والإخراج الفني
موشنات
Creative Agency
motionat.com

مع ختام السنة الخامسة من عمر مجلة رواء

نبارك لأهلنا في سوريا، وللأمة الإسلامية جمعاء، هذا الفتح المبين، والنصر العظيم. إنَّ ما تحقق من النصر حصلَ بفضلٍ من الله تعالى، ثم بتضحيات المجاهدين الثائرين على الظلمِ والطغيان، فله الحمد العظيم وله الشكر الجزيل.

ولا شك أن هذا النصر المبين يدعو أهل سوريا وجميع الأحرار في العالم إلى التفاؤل ومواصلة العمل لرفع الظلم، وتحقيق العدالة لجميع المظلومين في الأرض، ممن سلبت أراضيهم وبيوتهم، وحرموا من حريتهم وحقوقهم التي كفلتها لهم الشرائع السماوية والقوانين الأرضية.

الحرية التي حصلت عليها سوريا وأهلها، لا تكتمل إلا بكسر قرن إيران في المنطقة، التي ارتكبت وذيولها في حق الشعب السوري الجرائم الفظيعة، ولعل في ذلك ضعف شوكتهم، وتراجع خطرهم.

وبهذه المناسبة العظيمة وبمناسبة اكتمال السنة الخامسة من عمر مجلة رواء، رأينا إصدار عدد مميز من المجلة، يجمع موضوعات حول التحرير وتحدياته، وحول خطر الرافضة وانكسار قرنهم، ليكون هذا العدد عدداً مزدوجًا يحمل الرقمين ٢٩ – ٣٠.

كما يطيب لنا أن نتقدم بالشكر الجزيل لجمهور المجلة الكريم من الكتاب والقراء والمتابعين الكرام، ونسأل الله أن تكون المجلة وموضوعاتها عند حسن ظن الجميع.

فهرس الموضوعات

١ **أفراح التحرير وانكسار قرن إيران** ٤
الافتتاحية

٢ **مَن أسقط الأسد؟** ٨
أ. عبد المجيد بدوي

٣ **تركنا الجهاد.. وكانت فتنة** ١٤
د. معن عبد القادر

٤ **الناجون من الأَسْر: بين التأثيرات النفسية والمسؤوليات الاجتماعية** ٢٠
أ. دانية صفو

٥ **عملية تحرير سوريا: قراءة من منظور السيرة النبوية** ٢٦
أ. عباس شريفة

٦ **فلسطين قضية المسلمين بين التيه القائم واستحقاقات الوعد القادم** ٣١
أ. مضر أبو الهيجاء

٧ **بين جرائم الصهيونية والمحور الإيراني: قراءة حقوقية** ٣٩
أ. نورس العبد الله

٨ **كيف استثمرت إيران العلاقة مع الولايات المتحدة لضرب الحواضن السنيَّة؟** ٤٦
أ. عامر المثقال

٩ **لا سقفَ للممكن!** ٥٣
أ. هدى عبد الرحمن النمر

١٠ **التشيُّع الإيراني بين مخرجات الأمس واليوم** ٥٧
د.محمد بن عبد الله السلومي

١١ **متى ننتصر على أعدائنا؟ ومتى ينتصرون علينا؟** ٦٣
د. محمد ماهر محمد قدسي

١٢ **هل ولّى دور المجوس؟** ٦٨
جهاد بن عبد الوهاب خيتي

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

فهرس الموضوعات

١٣ بذور علاقات الملالي بالغرب، وخفايا إيرانية بين عهدين ١٩٥٠-١٩٨٩م ٧٦
م. طاهر صيام

١٤ التغيرات المناخية ومواجهتها من منظور الشريعة الإسلامية ٨٦
أ. د. صبحي رمضان فرج سعد

١٥ مظاهر حكمة الله تعالى في المصائب والابتلاءات ٩٣
د. عمار بن إبراهيم العيسى

١٦ الحدث السوري: بين تحديات الواقع ومخاض المستقبل! ٩٩
د. فيصل البعداني

١٧ نظرات وتعقيبات على كتاب «إيران وحماس» ١٠٤
أ. أسامة شحادة

١٨ الأبعاد الوجودية للإنسان في ميزان التصور الإسلامي ١٠٨
د. كريمة دوز

١٩ المسلمون بين مشروعين ١١٤
أ. فايز الصلاح

٢٠ الرؤية المبكرة للشيخ محمد سرور في فضح مشروع إيران ١٢١
د. عطية عدلان

٢١ قراءة في كتاب: «عمارة الأرض في الإسلام» لجميل أكبر ١٢٧
أ. إسلام عفيفي

٢٢ قراءة في كتاب: «إيران الصفوية.. كيف صار الإيرانيون شيعة صفويين؟» ١٣٤
د. أمين نعمان الصلاحي

٢٣ بأقلام القراء ١٤٢
مجموعة من القرآء

٢٤ فَمَا لَكُم! ١٤٤
د.خير الله طالب

كلمة التحرير

أفراح التحرير وانكسار قرن إيران

الليل الحالك:

لم تكد حلقاتُ البلاء الواقع على أهل الشام تستحكمُ، والضيقُ يشتدُّ حتى بلغ منتهاه، إلا وبصيصُ الأمل يُشِعُّ من بعيد، ولم يكن في تصوّر معظم الناس أنّ هذا النورَ الخافتَ سينبلجُ صبحًا يشرق على معظم أجزاء سورية، ويؤثّر على المنطقة من حولها ومجرياتِ الأحداث.

قبل عامين ونصف تناولنا في افتتاحية العدد الرابع عشر قضية هيمنةِ القوى الدولية على العالم، وعلى منطقة الشرق الأوسط خصوصًا، وكيف أحكمت هذه القوى سيطرتها على أمة الإسلام بوسائل متعددة، ومنعت أيّ محاولة لنهوضها أو استقلالها من جديد، ورأينا كيف أنّ البلاء في بلاد الشام وصل إلى طريق شبه مغلق[1].

تدخّل المجتمع الدولي لمنع الثورة السورية من تحقيق أهدافها، فأذِنَ لأوباش الأرض من أتباع إيران بالفتك والقتل والحرق والتدمير، حتى إذا قاوم الثوار وصبروا صبر الجبال؛ تدخّل «أصدقاء الشعب السوري» ليحددوا مَن يدعم ونوع الدعم وكميته ومَن يتلقاه من الفصائل، ثمّ لـما شعروا بالخطر على الأسد المدلل تفاهمت الدول الكبرى مع الروس حول التدخل المباشر، فنهجوا سياسة الأرض المحروقة، ودمروا البلاد وهجروا من بقي من العباد.

وبعد أكثر من عقد على انطلاق الثورة كانت قد وصلت لطريق مسدود، بعد أن قدمت مئات الآلاف من الشهداء، ومثلهم من الجرحى والمصابين، ومثلهم من المعتقلين والمغيبين، إضافةً إلى ملايين المهجرين والنازحين، فحُصِرت الثورة في جغرافيا ضيقة، تعاني من التقسيم والحصار ونقص الموارد والخدمات، وكُبِّلت باتفاقيات ومواثيق ومؤتمرات دولية تحفظ حق الجلاد، ولا تعطي للضحية إلا الفتات الذي لا يقدم ولا يؤخر.

(١) تلمس الأمل في تدافع الأمم، افتتاحية العدد (١٤) من مجلة رواء.

ثم جاءَ الفَرَجُ!

لم يكن الفَرَج معجزة إلهية خارقة للعادة، ولم يكن طيرًا أبابيل، ولا بحرًا انفلق فكان كلّ فِرق كالطود العظيم، بل كان حدثًا متوقعًا من قَبيل ما يحدث بين الدول وفق سنن الله تعالى في التغيير والارتفاع والانخفاض، فقد سبقت مقدماتُه بأعوام.

حيث كانت حلقة الفَرَج الأولى مع بداية الحرب الروسية الأوكرانية عام (٢٠٢٢م)، والتي وضع الروس فيها ثقلهم من جهة، والغرب من جهة أخرى، وقد كانت الغلبة ظاهرة للروس في بدايتها، ثم لم تلبث أقدام الدبّ الروسي أن غرقت في وحل الحرب، وساء حالهم يومًا بعد يوم.

وجاءت حلقة الفَرَج الثانية من بوابة طوفان الأقصى، الذي وضع حلف إيران وشعاراتهم على المحكّ[1]، وأجبرهم على النزول لمعترك القتال، فقاموا بالقليل الذي يحفظ ماء وجوههم، لكن بعد أن انكشفت سوأتهم وغدرهم بالمقاومة، وظهرت هشاشة قوتهم؛ فتلقّوا ضربات ساحقة، قلّمت أظافر إيران، وأنهت حزبها في لبنان.

وجاءت حلقة الفَرَج الثالثة بوجود ظهير ومعين دولي يرعى حق المسلم وحق الجوار، ويضع نصبَ عينيه إعانة هذا الشعب على تحقيق مراده؛ فكانت تركيا بدعمها وتوليها ملفَّ التنسيق والتفاهمات الدولية الرقمَ الصعبَ فيما حصل بعد ذلك.

> **لم يكن الفَرَج معجزة إلهية خارقة للعادة، ولم يكن طيرًا أبابيل، ولا بحرًا انفلق فكان كلّ فِرق كالطود العظيم، بل كان حدثًا متوقعًا من قَبيل ما يحدث بين الدول وفق سنن الله تعالى في التغيير والارتفاع والانخفاض**

واكتمل الفَرَجُ بالإعداد الذي أعده مجاهدو سوريا، والتربّص الذي صبروا على صعوبته. ومِن غرابة الأحداث أنّ الخطة المعدة كانت لتحرير أطراف إدلب وحلب وأريافها، لكنّ أسوار المجرمين وحصون «الأسد» تهاوت أمام تكبيرات المجاهدين وقدوم مركباتهم، وفتحت الحواضر دون حاجة لإراقة الدماء، حتى بلغوا دمشق بما تحمله من رمزية سياسية وتاريخية وحضارية، فلله الحمد والشكر، وله وحده الفضل والمنّة.

نصرٌ عظيمٌ، وفتحٌ تاريخيٌّ:

لا يمكن لعاقلٍ أن يُخفي فرَحَهُ بزوال هذا الظالم المجرم الذي كان بؤرةً للفساد في سوريا وفي المنطقة، والذي لم يترك بابًا من الشرِّ إلا فتحه على الناس، وعلى رأسها انتهاك الضرورات الخمس: فالظلمُ والقهرُ والقتلُ والإذلالُ والتعذيبُ في حق النفوس والأرواح، وامتحانُ الناس في دينهم ودفعُهم للكفر والنفاق وسيّء الأخلاق، ومحاربةُ الإيمان واعتمادُ المبادئ المناهضة للشريعة في حقِّ الدين، والنهبُ والسرقةُ ورهنُ المقدّرات لعصابة متحكّمة في حقِّ ثروات البلاد وأموال العباد، والاعتداءُ على الحرمات ونشرُ الرذيلة وتنشئة الأجيال على نزع الفضيلة في حقِّ الأعراض، وتزويرُ الحقائق وتلبيسُ الحق بالباطل وتشويهُ الأفكار وتسميمُ الشباب بأنواع المخدرات في حقِّ العقول.

ومما يسرّ الخاطر ويُفرح القلب: مشاهد تحرير الجموع الكبيرة من السجناء من المعتقلات والمسالخ البشرية وأقبية التعذيب، وكان أبلغها تأثيرًا في القلب: مشاهد تحرير النساء الطاهرات العفيفات اللاتي أُخذن بلا جريرةٍ أو جُنحة. وقد أماط تحرير السجناء اللثام عن مآسٍ مؤلمة لمن بقي حيًا منهم فكيف بمن مات أو فُقد؟ فبعض السجناء المحررين حُرّروا في اليوم المقرر لإعدامهم، وبعض المعتقلين كان طفلاً يوم سجن فخرج والشيب يغطي رأسه، ووُجد من بين المساجين من قضى في سجون الظلم ما يزيد عن ٤٠ سنةً بلا ذنب يذكر، ناهيك عن قصص التعذيب وبيع الأعضاء والقتل الجماعي، مما يصعب سماعه فضلاً عن معايشته والتعرُّض له.

ومن مزايا هذا الفتح أنّه عمّ جميع مناحي الحياة، فالانقلاب جذريٌّ في كل الأمور، والتحرر من الظلم والقيود جاء دفعة واحدة؛ والناس لا تكاد تصدّق حدوث الأمور العادية، كأداء أفراد الشرطة للصلاة جماعة، أو إقامة الصلاة علانية في ساحات الجامعات، أو الحصول على الحقوق وإتمام المعاملات الرسمية دون مكابدة أو انتظارٍ أو تعقيد أو رشوة.

(١) تطرقت افتتاحية العدد (٢٣) من مجلة رواء إلى ذلك تحت عنوان: «فعليكم النصر».

ولا شك أنّنا نشهد ميلادًا جديدًا للشام بعد سنوات الظلام، ونتفاءل بأنّ الناس سيشهدون عهدًا تتحسن فيه نفوسهم، وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، والتعليمية والأمنية، وعدِّد ما شئت من النواحي التي دنَّسها آل الأسد وحزب البعث البائد.

انكسارُ قرنِ إيران:

أظهرت إيران وعلى مدى عقدين من الزمان سلوكًا إجراميًا في بلاد المسلمين، فقد ساندوا المحتلّ في أفغانستان والعراق، وعاثوا مع أذنابهم في لبنان والعراق وسوريا واليمن فسادًا وتخريبًا وتنكيلاً بأهل السنة، وقاموا بجرائم وتجاوزاتٍ إنسانية كثيرة، ونشروا المخدرات والقبائح، حتى باتوا شرًّا لا بدَّ من التخلص منه.

وبالتحرير المبارك لسوريا من حكم آل الأسد يكون «الهلال الشيعي» قد تفكّك، وانكسرت حدّته وشوكته، وإن لم يزُل خطره تمامًا.

> **لا شك أنّنا نشهد ميلادًا جديدًا للشام، بعد سنوات الظلام، ونتفاءل بأنّ الناس سيشهدون عهدًا تتحسَّن فيه نفوسُهم، وأحوالُهم الاقتصاديةُ والاجتماعيةُ، والتعليميةُ والأمنيةُ، وعدِّد ما شئت من النواحي التي دنَّسها آل الأسد وحزب البعث البائد**

زوالُ الركن الآمن لدولة الاحتلال:

من المفارقات المثيرة أنّ ركن «حلف المقاومة والممانعة» المتمثّل في نظام الأسد كان يقدّم للاحتلال أشد الحدود أمنًا وحماية على الإطلاق؛ فمستوى الأمان على الحدود السورية مع الكيان المحتل قياسي جدًا، ولا توجد فيه أي خروقات مقلقة للعدو منذ «احتلال» القنيطرة والجولان عام ١٩٦٧م، في حين كانت حدود الاحتلال مع مصر أو الأردن أو لبنان تشهد أحداثَ تسلّل أو اشتباك كل فترة من الزمن، وممّا تكشَّف قديمًا دور حافظ الأسد في تسليم هذه المنطقة حينما كان يشغل منصب وزير الدفاع في سوريا، ولن يكون استلامه للسلطة في سوريا بعدها بثلاث سنوات إلا مكافأة له على هذه الصفقة[1].

أما الأسد الابن فقد سار على خطى الأب في سياسة الحدود الآمنة، والملفت للناظر أنّه بمجرّد سقوط حكم الأسد تقدّم الكيان المحتل في عدد من المواقع السورية، في جبل الشيخ ومناطق من حوران لتوفير حماية مزيدة لحدوده، ولسان حاله يقول: إنّ الضامن لأمن الحدود قد زال، فلا بدّ من خطوة إضافية لتعزيز الأمن المفقود.

هل ألقت الحرب أوزارها؟

لقد خسر الأعداء حليفًا مهمًّا لهم، وهذه الخسارة كلّفتهم كثيرًا، ولأنَّ الأعداء مثل الشياطين لا يستسلمون، فإنّهم بمجرّد خسارتهم بدؤوا ينتقلون إلى خطط بديلة لتخفيف الخسائر واستعادة ما فات من مكاسبهم، مثل تخويف الأقليات وإثارتهم، وتخويف الناس من المتدينين، ووصف حكمهم بالرجعية والتخلف وسائر الأوصاف التي يدبّجونها إذا وصل الإسلاميون إلى سدّة الحكم.

أما الفلول فلم يطيقوا صبرًا، ولم ترُق لهم الحياة الوادعة، فسارعوا لإظهار قرونهم وشرورهم، فتعرّضوا لدوريات الأمن وقتلوا منهم عددًا من المجاهدين، وتجمّعوا في تظاهرات فاشلة حاولوا جعلها سلمية حقوقية، ثمّ لم يلبثوا أن نادوا فيها بشعارات طائفية تهديدية.

ولا تخطئ عين المراقب تحرّكات دولية، ومحاولات لوصايات دولية من هنا وهناك، وما خفي أعظم، ولذلك فلا يزال أمام السوريين تحدّيات كبيرة، وستُخلق لهم تحديات جديدة، وهذه طبيعة الصراع بين الخير والشرّ.

> **ما أجمل أن نتلمَّس حكمة الله فيما مضى، وما أحسن أن نستقبل ما يأتي بالثقة بوعد الله الذي جاء على لسان نبيّه ﷺ (إنَّ اللهَ قد تكفَّل لي بالشَّامِ وأهلِه)**

وبعد التحرير:

ما أجمل أن نتلمَّس حكمة الله فيما مضى، فبالرغم من الآلام والمصاعب التي واجهت الثورة طيلة سنواتها الـ ١٤ القاسية والمضنية، فقد تجلَّت حكمة الله فيها وحسن تدبيره واختياره لعباده،

(١) نكسة حزيران.. عندما باع الأسد الأب هضبة الجولان - موقع تلفزيون سوريا.

وكانت كالفترة التي قضاها بنو إسرائيل في التيه، حصل فيها السوريون على مكاسب كبرى يمكن أن تكون زادًا للبناء والنهوض من جديد إذا أُحسن استخدامها.

الخوف المزروع في أعماقنا والأمراض التي قد تنتج عنه، والقابلية للاستبداد وإمكانية نقلها للأجيال؛ كلها كانت بحاجة إلى وقت للتخلص منها، والعزلة التي فرضتها حالة عدم الثقة الناتجة عن السياسة المخابراتية البعثية كانت بحاجة إلى زمن كذلك لكسرها، واقتحام التعارف بين السوريين فيما بينهم بعيدًا عن المناطقية والإثنية وثنائية المدينة والريف كانت بحاجة أيضًا إلى بيئة تساعد على ذلك.

كم كنّا بحاجة لأن نتدرّب على العمل المنظّم والمشترك، وتأسيس قواعد المجتمع المدني من المنظمات والمؤسسات والكيانات الناجحة والمثمرة، وكنّا بحاجة لإظهار التكافل والإيثار والتضحية والبذل، حتى نري الله من أنفسنا أهليةً للتغيير، واستعدادًا لحمل الأمانة وأداء الرسالة.

هذه السنوات كانت فترة إعداد حقيقية لكلّ أفراد هذا الشعب العظيم، حتى إذا جاء النصر وتحقّق التحرير، وجدنا أنّنا نملك رصيدًا عظيمًا من الخبرات والعلاقات والتجارب التي لا شك أنّها ستكون زادًا للمرحلة القادمة.

وأخيرًا.. ما أحسن أن نستقبل ما يأتي بالثقة بوعد الله الذي جاء على لسان نبيّه ﷺ (إنَّ اللهَ قد تكفَّل لي بالشَّامِ وأهلِه)[1].

كم كنّا بحاجة لأن نتدرّب على العمل المنظَّم والمشترك، وتأسيس قواعد المجتمع المدني من المنظمات والمؤسسات والكيانات الناجحة والمثمرة، وكنّا بحاجة لإظهار التكافل والإيثار والتضحية والبذل، حتى نري الله من أنفسنا أهليةً للتغيير، واستعدادًا لحمل الأمانة وأداء الرسالة

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٠٣٥٦) بإسناد صحيح.

من أسقط الأسد؟

أ. عبد المجيد بدوي (*)

يتنازع شركاء النصر عادةً نسبة النصر إلى أنفسهم، فكلٌّ يدعيه ليحصل على أكبر قدر من الأنفال، وبالرجوع للقرآن الكريم نجد أنّ الله رفع الأنفال من أيدي المجاهدين وجعلها لله والرسول، فهو سبحانه الذي رمى وقتل وأنزل السكينة. وللمجاهدين نصيب في النصر كلٌّ بحسب جهده، أمّا تولّي المناصب بعد النصر فيستحقّه القوي الأمين القادر على بناء نظام العدل.

روافد النصر المؤزر:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد.

انتصرت الثورة السورية انتصارًا مؤزرًا، لم يكن يتوقع تفاصيله العظيمة أحد، فاجأ القاصي والداني، وأدهش العدو والصديق، وعاش النّاس مدة من الفرح الكبير الذي لم تتحمله قلوبهم، ففاضت عيونهم فرحًا، كثير من السوريين عرفوا دموع الفرح لأول مرة، بعد أن ذرفوا طويلاً دموع الأسى، وبعد هدوء مشاعر الفرح بالنصر قليلاً بدأت تظهر عبارات تنسب النصر على الطاغية إلى شخص أو فئة أو فصيل، فمن الذي أسقط النظام؟

إن الخوض في تحديد من أسقط النظام بعد سقوطه عادة يكون غرضه نفعيًا، فالذي أسقطه أحق بثمرة النصر وأجدر، وله أن يتمتع بالغنائم التي خلفها النظام وراءه، والغنائم هنا -في منظور مصالح الدنيا- كبيرة جدًا، إنها الأحقية بإدارة ما خلفه العدو وراءه، علمًا أنها بالمنطق الشرعي أمانة ثقيلة يفر منها من لا يقدر عليها، ويهرب منها من يشفق أن يتضلع بها فيعجز عنها.

إذا كان الإنسان يميل إلى تبسيط الأمور، ونسبة النتيجة إلى سبب واحدٍ، هربًا من تعقيدات تفاعل الأسباب المجتمعة، فإن الواقع يقول: قلّ أن تجد نتيجة من النتائج نجمت عن سبب واحد، وغالبًا ما يرفدها اتحاد مجموعة أسباب تفاعلت معًا وأدى كل سبب دورًا -صغيرًا كان أو كبيرًا- في الوصول إلى تلك النتيجة، واتحاد الأسباب المتباينة للوصول

(*) عضو لجنة إعداد الخطبة في رابطة خطباء الشام.

إلى النتيجة الظاهرة أمر نجده في المجتمع والطبيعة، فالورقة في الخريف لا تسقط بفعل الرياح فقط، وإن ظهر للرائي أن نسمة خريفية أسقطت تلك الورقة، إلا أن العوامل الداخلية في تلك الورقة التي أضعفت ارتباطها بأمها الشجرة عواملُ مؤثرة، إذ لولا ضعف ارتباطها لما فعلت بها النسمة فعلها، فإذا كان هذا في ورقة تسقط، فما بالك بنظام عمره أكثر من خمسة عقود، هل سنعزو سبب سقوطه إلى العاصفة الأخيرة التي أسقطته؟

وإذا استقر ذلك فإنه من المتعذر كذلك الإحاطة بكل الأسباب التي أنتجت تلك الفرحة العارمة، فالأسباب الصغيرة والفرعية كثيرة كثرةً عصية على الحصر والتتبع.

تدبير الله في سقوط النظام:

لا شكّ أن فوق كل الأسباب التي أدّت إلى سقوط النظام مسبّب واحد هو الله سبحانه وتعالى الأحد الصمد خالق الأسباب وموجدها وميسّرها.

قد يبدو هذا خروجًا عن مقصود البحث عمن أسقط النظام، فقد سبق أن الناس تتنازع في الإجابة عن هذا السؤال لتنازعهم في تقسيم الغنائم أو لاختلاف زاوية نظر كل منهم، لكن المنطق الشرعي في معالجة التنازع على الغنائم ورد في القرآن بهذه الطريقة، بطريقة إرجاع الأمر إلى مصدره الأساسي، بطريق ذكر السبب الوحيد الذي لا ثاني له.

عن ابن عباس قال: «قال رسول الله ﷺ يوم بدر: (من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا). قال: فتقدم الفِتيان ولزم المشيخةُ الرايات فلم يبرحوها، فلما فتح الله عليهم قال المشيخة: كنا ردءًا لكم، لو انهزمتم فئتم إلينا، فلا تذهبون بالمغنم ونبقى، فأبى الفتيان وقالوا: جعله رسول الله ﷺ لنا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] إلى قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: ٥] يقول: فكان ذلك خيرًا لهم، فكذلك أيضًا فأطيعوني، فإني أعلم بعاقبة هذا منكم»[1].

فتأمّل كيف وقع النزاع بين المجاهدين في الأنفال يوم بدر، ولكلّ فريق من المتنازعين رأيه ووجهة نظره، ولكلّ منهم جهده في المعركة وإحقاق النصر؛ فكان الحكم من الله تعالى جليًا واضحًا ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ...﴾ فإذا كان الذي قتل هو الله، والذي رمى هو الله؛ فالذي يفصل في الأنفال هو الله سبحانه.

فنّدت الآيات هذا الجانب فنفت أن يكون القتل تم من طرفهم، ونصّت على أن الرماية رماية الله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

فإذا كان الذي قتل هو الله، والذي رمى هو الله، فالذي يفصل في الأنفال هو الله.

ونسبة القتل والرمي إلى الله لا يراد بها إنزال الملائكة لتقاتل مع المؤمنين فحسب، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦]، بل هي شاملة أيضًا لما قام به الصحابة من تضحيات هداهم إليها وأعانهم عليها الله سبحانه وتعالى، وأعطاهم الدافع للقيام بها عندما أوحى إلى نبيّه ﷺ أنّ من يقاتل في سبيل الله فيقتل فله الجنّة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض)، قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: (نعم). قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: (ما يحملك على قولك بخ بخ؟). قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: (فإنك من أهلها)... ثم قاتلهم حتى قتل[2].

وفي الأحزاب وبني قريظة قال: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

وبما أننا في حالة تشبه حالة فتح مكة والعودة إليها بعد طول تهجير فلننظر كذلك في سورة

(١) أخرجه أبو داود (٢٧٣٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠١).

الفتح؛ إنّ استقراء سورة الفتح يؤكّد على نسبة النّصر إلى الله سبحانه وتعالى، فالذي فتح الفتح المبين هو الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وفي بيعة الرضوان التي سبقت هذا الفتح قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، والمعنى: قوّة الله فوق قوّتهم في نصرة رسوله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم.

وهو سبحانه وتعالى الذي أنزل السّكينة بعد هذه البيعة: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

وهو سبحانه وتعالى الذي كفى المؤمنين المبايعين شر الكفار وقتالهم، ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

وهو سبحانه الذي هدى ويسّر صلح الحديبية الذي كان مقدّمة لفتح مكة، وسمّاه فتحًا أيضًا، ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧].

ومن آثار لطف الله ورحمته في تأخر النصر في سوريا أن أخره حتى انفض عن الثورة القريب والبعيد، ووصل الناس إلى الاستيئاس، وكأننا نجد في واقعنا مصداق الآية: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

فنحن أمام كلّ نصر مدينون لله، أنْ وعد من يضحي بموعودات وجوائز عظيمة، فيقبل الناس على التضحية إزاء تلك الوعود، ثم نحن مدينون لكل من نقل إلينا تلك الوعود، والتزم بتطبيقها إيمانًا وتصديقًا، فانطلق الناس من ورائه مؤمنين مصدقين، وهذا الوصف ينطبق على رسول الله ﷺ، وعلى الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين قادوا الفتوحات في أرجاء الدنيا وبخاصة في أرض الشام، وعلى كل من سار على دربهم، وصولاً إلى أقرب الأسلاف الذين تظهر آثار تضحياتهم للملأ، وهم الذين أداروا الثورة الأولى ضد نظام الإجرام في ثمانينات القرن الماضي، فقصص تضحياتهم محفوظة ماثلة، ووثبتهم وإن لم تبلغ بهم الغلبة في الدنيا إلا أنها أثبتت لهم شرفًا وأولية لا يجدر أن يتم تجاوزها

شرف الوثبة أن ترضي العلا
غـلب الواثـب أم لـم يغـلب

نحن أمام كلّ نصر مدينون لله، أنْ وعد من يضحي بموعودات وجوائز عظيمة، فيقبل الناس على التضحية إزاء تلك الوعود

إنما السيل اجتماع النقط:

نشأ كثير من ثوار اليوم على قصص تضحيات كانت قبل ثلاثين وأربعين سنة، والمثال القريب مؤثر في النفس، بل إنك إن تأملت في كوادر الثورة ستجد فيها رجالاً ممن شهدوا المشهدين[١].

ضحّى المؤمنون الذين أحرقوا في الأخدود بأنفسهم ولم ينتصروا على مَن ظلمهم في الدنيا، لكنّ الله تعالى حفظ لنا تضحياتهم، وجعلها جولة في معركة مستمرّة مع الباطل إلى يوم الدين، وخلّد ذكرهم بقرآن يتلى إلى يوم القيامة: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]. وكذلك تضحيات المجاهدين في ثمانينيات القرن الماضي نُقلت وأثّرت وكان لها دور في الجولة التالية.

والسجون كلمة مفتاحية تفسر حجم التضحيات وشدتها، فالنظام المجرم كان يمعن في القتل تارة، ويمعن في إيقاع الظلم على الأسرى يريد -بزعمه- أن يجعلهم عبرة لمن وراءهم، ولم يعلم أنه بذلك يذكي حربًا قادمة أو قائمة، وعندنا عبارة متداولة تقول: «نامت أم الشهيد ولم تنم أم الأسير» فأم الشهيد تقريبًا أغلق لديها الملف، ويئست من لقاء ابنها في هذه الدار، بقيت أطياف الكرى، تأتي خفيفة وتغادر لطيفة لا يشعر بها أقرب الناس، وبقيت آمال اللقاء في الآخرة، حيث تفوح رائحة المسك من الشهيد في المحشر، أما أم الأسير فلن تفتأ تحلم به، وكذا إخوانه المجاهدون سيحركون الجيش، ويخوضون المعارك استنقاذًا له[٢].

ساحات الربيع العربي وهتافات تطالب الطغاة والمستبدين بالتنحي سبقت انطلاق الثورة في سوريا ساهمت في انطلاق شرارة الثورة في سوريا الحبيبة، وإذا كان للتضحيات القديمة دور في وصول الرسالة إلينا فإن التضحيات المعاصرة التي نقلتها شاشات التلفاز دور أبرز وأوضح، خصوصًا

(١) مجزرة حماة https://aja.ws/yfiisx
(٢) سجون الأسد https://aja.me/ynpcz1

وأنها أثمرت انتصارات سريعة، أسفرت عن رحيل بعض الزعماء الظلمة، فالسوري إذ يرى أخاه العربي تحمل خطرًا جسيمًا ونزل إلى الساحات وطالب بإسقاط النظام فسقط رأسه وتنحى رئيسه سيمنّي نفسه بلا شك بنتائج مشابهة، هل سيصبر أن يرى احتفالات ميادين التحرير في البلدان العربية، ونشوة النصر تملأ الوجوه وتغمر القلوب هناك ثم لا يسعى لنفسه بمثيلها؟

إن ما سبق سرده قبل وصول الشرارة إلى سوريا أسباب غير مباشرة هيأت الجو لانطلاق التضحيات الجسيمة في سوريا، أما صرخات المتظاهرين في سوريا فهي بداية الأسباب المباشرة، وهي أولى الفؤوس التي بدأت تضرب في الشجرة الخبيثة.

كل صرخة في مظاهرة هي فعل ثوري مباشر ساهم في إسقاط النظام، فتأمل ما أكثر من أسقط النظام، تأمل المليونيات في الساحة العامة للمدن الكبرى، وانظر إلى نقاط التظاهر المتفرقة في القرى السورية النائية، إذ في بداية الثورة انتشر مصطلح نقاط التظاهر، للدلالة على انتشار الثورة في الأرياف والقرى، فالأرياف بنقاطها والمدن الكبرى بآلافها وملايينها كانت فعلاً مباشرًا ساهم في إسقاط النظام[١].

وكل ثائر خرج بلثامه إلى الجدران يخط عليها عبارات الحرية شريك في إسقاط نظام الإجرام، وما أكثر الجدران التي تزين بعبارات الحرية، وكل منشور كتب على وسائل التواصل، وكل يد حملت آلة تصوير نقلت إلى الناس مطالب المتظاهرين وأصواتهم يد مباركة ثائرة، إذ كيف للناس في إدلب أن تعرف بما خطته الأيدي المتوضئة على جدران دير الزور لولا آلة التصوير التي صورت، والقناة الفضائية التي نشرت، وكيف للناس في حمص أن يسمعوا هتافات مظاهرات حماة لولا الجناح الإعلامي المضحي في هذه الثورة[٢].

كما يجب علينا ألا ننسى دور العاملين في القطاع الطبي في الثورة، والخطر العظيم الذي احتملوه لمعالجة مصابي المظاهرات، ولمعرفة مدى الخطر علينا أن نتذكر ما الذي كان يفعله النظام بمن وجد لديه أدوات طبية تستعمل لعلاج المتظاهرين، لقد كان ينزل بهم أقصى أنواع التعذيب ليرهب من وراءهم، شأنهم في ذلك شأن الإعلاميين، وطلبة العلم الشرعي الذين وقفوا في وجه الطاغية[٣].

لم تكن عقوبة المتظاهر في سجون النظام بدرجة عقوبة الداعية والإمام الذي وقف على المنبر يسرد الآيات والأحاديث وقصص الشجاعة الملهمة للناس حتى يتشجعوا على الخروج، لقد كان دور خطيب الجمعة محوريًا في ثورتنا؛ فنحن نعلم أن المظاهرات في المرحلة الأولى من الثورة كانت أيام الجمعات، فهذا مسجد الحسن في دمشق يقف خطيبه بكل شجاعة ليجابه النظام المجرم، وتنطلق المظاهرات بعد ذلك بمنتهى الحماس والإقدام، ومثل هذا حصل في آلاف المساجد وفي كل جمعة[٤].

كل هذه الأفعال الثورية ونحن بعد لم نخرج من سنتنا الأولى، أفعال ثورية سلمية تنطوي على أخطار لا يعلمها إلا الله، فكيف يمكن حصر الذين شاركوا في إسقاط النظام، ولم تنطلق بعد ضده رصاصة.

> **كل صرخة في مظاهرة هي فعل ثوري ساهم في إسقاط النظام**

لا تخفى على أحد الوحشية التي جابه بها النظام المجرم الفعل الثوري السلمي، ما أنتج أنواعًا جديدة من الفعل الثوري تحتاج إلى مزيد شجاعة، إنها الانشقاق عن جيش النظام، حيث القبضة الأمنية القوية، ففي قطعات الجيش لا يكاد المرء يجرؤ أن يحدث نفسه بالانشقاق فضلاً عن أن يحدث إخوانه، لكن مع ذلك أظهر الثوار في الجيش شجاعة منقطعة النظير تغلبت على قبضة النظام الدموي فانعتقوا منه، وحملوا على عاتقهم حماية المتظاهرين، وبدأ العمل الثوري المسلح[٥].

تشكلت الفصائل، واندفع الشباب إلى التطوع لحمل السلاح فيها لتحرير بلدهم، وتوالى تحرير القرى والمدن حتى تم تحرير ثلاثة أرباع البلاد، أليس لهذا التحرير علاقة بالتحرير الأخير؟ ألم يمهّد له ويجعله ممكنًا، لقد ساهم بصورة مباشرة

(١) نقاط التظاهر https://youtu.be/vR8_1jJfJdQ
(٢) وسائل-التواصل-الاجتماعي-في-الحراك-السوري-المعارض-٢٠١١-٢٠٢١/https://jusoor.co/ar/details
(٣) تجربة-الأطباء-في-سورية-بين-السلم-والحرب/https://jusoor.co/ar/details
(٤) دور العلماء في الثورة https://aja.me/fpry9
(٥) الجيش السوري الحر https://aja.me/hlur

في إسقاط النظام، بل إنه أسقط النظام على الحقيقة، لكن النظام سارع إلى القوى الإقليمية فأمدوه بحبل من المليشيات الشيعية فلم يقو الحبل على إنقاذه، فهرع إلى روسيا فأضافت قوتها الجوية وخبراتها ومليشياتها إلى ما سبق مما أدى إلى انكفاء سيطرة الثوار إلى شريط ضيق على الحدود التركية، وظهر النظام للناس منتصرًا لكنه على الحقيقة كان مشلولاً متكئًا على عكازين، عكاز إيراني وعكاز روسي، فالذي أحوجه إلى العكازين هو الذي أسقطه على الحقيقة.

واحتياجه إلى الدولتين معًا جعله أمام استحقاقات أودت به في النهاية من أبرزها مسألة التطبيع مع تركيا، إذ ترفض إيران هذا المسار وتريده روسيا، وبهذا نصير أمام نظام متهالك حقيقة متماسك ظاهرًا فيه شركاء متشاكسون، كل منهم له رغباته ومصالحه، واختلاف الشريكين جاء بعد انشغالهما بحروب خارج سوريا أنهكتهما، فروسيا انشغلت بحرب أوكرانيا، وإيران تعرضت لقصقصة أذرع عنيفة فضعفت العصوان اللتان يتكئ عليهما النظام واختلفتا، وظل أمام الناس يلقي الخطابات وكأنه يقف بنفسه، حتى كانت المعركة الأخيرة التي أظهرت أنه شجرة نخرة تتنظر من يدفعها حتى تقع[1].

إن كل صيحة في ميدان وكل كتابة على جدار وكل خطبة على منبر وكل مرهم دهن على جرح متظاهر وكل عدسة نقلت خبرًا ثوريًا، وكل سلة إغاثة تم توزيعها، وكل فتوى وجهت عمل الثائر وضبطت بندقية المجاهد، وكل جهد سياسي وحقوقي بذله الناشطون، وكل رصاصة أطلقت على النظام ساهمت في احتياج النظام إلى الشريكين الأبرز كل ذلك أسقط النظام، كلها قطرات صغيرة اجتمعت فشكلت جداول، واجتمعت الجداول فشكلت نهر الثورة الجارف الذي ألجأ النظام إلى أعداء الثورة.

عوائق أخَّرت السقوط:

وقبل الوصول إلى المعركة الأخيرة ودورها البارز في إسقاط النظام المتهالك يجدر بنا أن نجيب عن سؤال آخر: هل من أبناء الثورة من أخر سقوط النظام؟ صحيح أن معظم أبناء الثورة قدموا أفعالاً ثورية ساهمت في إسقاط النظام، إلا أن بعض المنسوبين إلى الثورة المحسوبين عليها أخروا إسقاط النظام، عندما ارتكبوا أفعالاً تصب في مصلحته وتعاكس جهة محصلة القوى الثورية، فالقتال البيني وتفرق الكلمة، وتصديق إشاعات العدو ونقلها، والسرقة من أموال الإغاثة، وإعلان انتهاء الثورة وهروب الثائر خارج ميادين الثورة حتى من ميادين وسائل التواصل، وربط الجهاد في سوريا بالجهاد العالمي مما جرّ على الثورة نقمة دول غربية عديدة؛ كل هذه أفعال أخرت سقوط النظام -على تفاوت فيها، فهي وإن سردت في سياق واحد إلا أنها متباينة الخطر كل التباين- فالثائر الواحد قد يجتمع فيه الفعلان الفعل الثوري والفعل المضاد، وذلك أن النفس البشرية ألهمت فجورها وتقواها، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، والمؤمن يخرق ثوب الإيمان بالمعاصي ويرقعه بالاستغفار، وتقييم المرء يكون بمحصلة أفعاله، فمن الظلم أن نقف عند أخطائه وعثراته التي أخرت سقوط النظام فنجعلها تحت المجهر، ونكررها كلما ذكر اسمه، كما أن من الخطأ تقديس الأشخاص الذين جمعوا بين الفعل الثوري ومضاده حتى يظن السامع أننا نتحدث عن ملَك من الملائكة، فالعدل والتوسط خير الأمور، ثم إذا تحصل أن شخصًا ما فعله الثوري غلب فعله المضاد فعلينا أن ننصره دون تقديس، إذ هو في المحصلة ثائر.

فإذا ما وصلنا إلى آخر حملة ثورية أودت بالشجرة النخرة، تلك المعركة المباركة، فالكلام في وصفها قليل، ويكفي أنها أتت حيث لم يتوقع القريب والبعيد، وما زال السوريون يؤكدون أنها أقرب للأحلام منها للواقع، فإذا تحققت أحلامنا بهذه الحملة فما أعظمها من حملة، وما أحبها إلى قلوبنا، لكنَّ الخطأ كل الخطأ أن نجعلها الفعل الثوري الوحيد الذي أسقط النظام، وكذلك من أعظم الظلم أن نجعلها مجرد معركة من المعارك، لا بل هي معركة فاصلة تضيف رصيدًا ثوريًا كبيرًا لمن قاداها ولكل من شارك فيها[2].

لماذا نستعرض الأفعال الثورية ونقيضها وقد انتصرت الثورة؟ هل هذا أوان المحاسبة؟

إن استحضار الأفعال التي أخرت سقوط النظام في هذه المرحلة مهم من حيث إنَّ الثورة أنجزت

(١) تعارض مصالح روسيا وإيران في سوريا https://aja.me/z4dza3

(٢) ردع العدوان https://aja.ws/0wwzum.

قسمًا مهمًا من وظيفتها وهو إسقاط نظام الإجرام، لكنها أمام وظيفة لا تقل خطورة وهي بناء نظام العدالة البديل، فإذا كان الثائر سيدخل هذه المرحلة بأخطائه الماضية فهذا نذير خطر وتأخر في البناء، بل ربما لا قدر الله عودة النظام السابق من خلال ثورة مضادة وما شأن مصر عنا ببعيد.

وإذا كنا عددنا في أسباب تأخر سقوط النظام تناقل الشائعات وتصديقها فنحن اليوم بحاجة للحذر في هذا الجانب، وكذلك السرقات والانهزامية والاختلاف البيني والتغول على القوى الثورية الأخرى وحرمانها من المشاركة في مرحلة البناء، كل هذه ذنوب قديمة تُوجد الآن نذرٌ بتجددها.

> **صحيح أن معظم أبناء الثورة قدموا أفعالاً ثورية ساهمت في إسقاط النظام، إلا أن بعض المحسوبين عليها أخروا إسقاط النظام، عندما ارتكبوا أفعالاً تعاكس جهة محصلة القوى الثورية، فالقتال البيني وتفرق الكلمة والسرقة، وربط الجهاد في سوريا بالجهاد العالمي، جرّ على الثورة نقمة دول غربية عديدة، كل هذه أفعال أخرت سقوط النظام**

أوضعتم السلاح؟

لما انصرف رسول الله ﷺ من الخندق إلى المدينة، لم يكن إلا أن وضع سلاحه، فجاءه جبريل، فقال: أوضعت السلاح؟ والله إن الملائكة لم تضع أسلحتها! فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة، ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار، وقال لأصحابه يومئذ: لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة[1].

أمامنا ألف قريظة تنتظرنا: هل سيتفانى المعلمون في تنشئة الأجيال على القيم التي ندين بها بدلاً من القيم التي كان يغرسها النظام المجرم؟ هل ستتحرر منابر الجمعة من تقديس الأشخاص فتصير إلى تقديس الأفكار التي جاء بها ديننا الحنيف؟ هل ستتجاوز مؤسساتنا المحسوبية والرشاوى التي كانت تنخر مؤسسات كان يديرها النظام المجرم؟ ألف هل وهل يمكن أن تطرح ها هنا، فليصغ كلٌّ السؤال الذي يتناسب مع الموقع الذي أقامه الله فيه، أهلك ربنا عدونا فله الحمد والمنة، واستخلفنا في الأرض فله الحمد والمنة، فهل سنري الله من أنفسنا خيرًا؟ فهو القائل سبحانه ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ختامًا:

إن استعراض الأفعال الثورية التي ساهمت في إسقاط النظام، واستعراض الأفعال التي أخرت سقوطه ليس له علاقة باستحقاق الحكم والتحكم في الفترة التي تلي سقوط النظام، فربما كان الثائر جديرًا في العمل الثوري الموجه إلى هدم نظام الإجرام لكنه لا يملك نفس الجدارة في العمل الموجه إلى بناء النظام البديل، فالبناء الذي تعرض للتصدعات عقيب الزلزال يحتاج إلى خبرات معينة لإزالته، وبعد إزالته نحتاج إلى خبرات مختلفة تمامًا لبناء البديل، أما أن نصرَّ على تولية من أزاله مسؤولية بناء بديله ففيه تكلف.

نعم لا بد من مرحلة انتقالية تتولى فيها القوى التي أسقطت النظام زمام الأمور، وتمهّد للمرحلة التالية وتسلّمها للكفاءات المناسبة.

ليست المناصب غنيمة يتقاسمها المنتصرون، بل هي مسؤولية عظيمة في مرحلة حرجة، مسؤولية عند الله يوم القيامة، ومسؤولية أمام الملايين الذين ينتظرون ليحاكموا فكرة الثورة بأكملها انطلاقًا من نتائجها، وفي عود على بدء: إذا كان الناصر هو الله، وإذا كان النصر فقط من عند الله، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وإذا كان الذي قتل هو الله، والذي رمى هو الله، فالفضل لله وحده، فلنراع أمر الله في المرحلة التالية مرحلة البناء فنستكفي بالقوي الأمين ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

الجدير بالثائرين المنتصرين أن يبذلوا أقصى الجهود لاستكمال النصر الذي تحقق جزء كبير منه، لقد كسبنا جولة كبيرة في معركة متطاولة، فهل سنكسب الجولات القادمة؟

(١) زاد المعاد، لابن القيم (١١٨/٣).

تأصيل

تركنا الجهاد.. وكانت فتنة

د. معن عبد القادر (*)

الجهاد في الإسلام وسيلةٌ لمنع الفتنة، سواءً كان المقصود بها: الكفر والشرك، أو فتنة المسلمين عن دِينهم. ويُبرز هذا المقال كيف أدى ترك الجهاد إلى تسلُّط الكافرين وفرض أنظمتهم وثقافاتهم على المسلمين، مما أوقعهم في مشكلاتٍ اقتصاديةٍ، واجتماعيةٍ، مؤكِّدًا أنَّ الجهاد ليس مجرَّد ردٍّ للعدوان، بل هو ضمانة لحرية الدِّين وصيانة العقيدة، داعيًا للحفاظ على هذا الأصل الشرعي؛ وإن لم يكن ممكنًا تطبيقه حاليًا.

بيّن الله تعالى في موضعين من كتابه العزيز الغاية الكبرى من الجهاد، جهاد الطلب، فقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فما هي الفتنة التي يمنع منها الجهاد، أو التي تزول بالجهاد؟

تواطأت أقوال المفسرين على معنيين للفتنة الواردة في هاتين الآيتين:

المعنى الأول: الكفر أو الشرك، والمعنى الثاني: فتنة الناس عن دينهم.

أما في المعنى الأول:

فيقول ابن كثير: «ثم أمر تعالى بقتال الكفار ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك. قاله ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والربيع، ومقاتل بن حيان، والسدي، وزيد بن أسلم»(١).

وأما في المعنى الثاني:

فقال ابن جريج: «أي: لا يُفتنَ مُؤمنٌ عن دينِه»(٢).

«وقال محمد بن إسحاق: بلغني عن الزهري، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لا تكون فتنة): حتى لا يفتن مسلم عن دينه»(٣).

(*) أكاديمي وكاتب في قضايا التربية والحوار والفكر.

(١) تفسير ابن كثير (٥٢٥/١).

(٢) تفسير الطبري (١١/ ١٧٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٥٦/٤).

وعن نافع أن رجلاً أتى ابنَ عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن، ما حملك على أن تحج عامًا وتعتمر عامًا وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قد علمتَ ما رَغَّبَ الله فيه! قال: «يا ابن أخي، بُني الإسلام على خمس: إيمان بالله ورسوله، والصلاة الخمس، وصيام رمضان، وأداء الزكاة، وحج البيت». قال: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾... إلى أمر الله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؟ قال: «فعلنا على عهد رسول الله ﷺ، وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يُفتن في دينه: إما قتلوه، وإما يعذبوه، حتى كَثُر الإسلام، فلم تكن فتنة»[1].

وبينَ المعنيين ارتباطٌ ظاهر، فحين تكون القوة والصولة للكفار والمشركين، فإنّهم يفتِنون المؤمنين ويؤذونهم.

«قال ابن عباس وقتادة والربيع والسدي وغيرهم: الفتنة هناك الشرك وما تابعه من أذى المؤمنين»[2].

وجاء في التفسير الميسر «وقاتلوا -أيها المؤمنون- المشركين حتى لا يكون شِرْكٌ وصدٌّ عن سبيل الله؛ ولا يُعْبَدَ إلا الله وحده لا شريك له؛ فيرتفع البلاء عن عباد الله في الأرض»[3].

«واستمروا- أيها المؤمنون- في قتال المشركين المعتدين، حتى لا تكون فتنة للمسلمين عن دينهم ولا شرك بالله»[4].

وجاء في التفسير الوسيط عند آية البقرة: «حتى تزول صولة الشرك، وحتى تعيشوا أحرارًا في مباشرة تعاليم دينكم، دون أن يجرؤَ أحد على محاولة فتنتكم في عقيدتكم أو عبادتكم»[5]، وعند آية الأنفال: «والمراد من الفتنة: الشرك وما يتبعه من أذى المشركين للمسلمين واضطهادهم وتعذيبهم، والمعنى: قاتلوا أولئك المشركين حتى تزيلوا الشرك، وحتى تكسروا شوكتهم ولا يستطيعوا أن يفتنوا طائفة من أهل الدين الحق»[6].

والشواهد على هذا في التاريخ وفي عصرنا هذا كثيرة متكررة.

ذلك أنّ الظلم والبطش والبغي طباع أصيلة في البشر، ما لم تهذّبها الأديان السماوية الحقّة غير المحرّفة، ومن هنا قالت الملائكة لما أخبرها الله أنّه جاعل في الأرض بشرًا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وقد عبر المتنبي عن هذا الطبع الجبلي في البشر:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفّة فلعلّة لا يظلم

كيف تكون فتنة المسلمين عن دينهم بظهور الشرك وأهله؟

أول ما يتبادر إلى الذهن: الفتنة بالقتل، أو التعذيب، أو منع المسلمين من ممارسة شعائرهم. وهذه لا شك صور بشعة من الفتنة، وقد قرأنا عنها في التاريخ الإسلامي في حالات الضعف والوهن وترك الجهاد، قرأنا عنها في بغداد وفي الأندلس، ورأيناها في عصرنا الحاضر في بقاع كثيرة في الأرض في روسيا والبوسنة والفلبين والهند والصين وميانمار وتركيا إلى عهد قريب.

إلا أنّ الفتنة لا تقف عند هذه الصور. إنّ علو الكافرين في الأرض حمَلهم على فرض أنظمتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، وزبالة أفكارهم على المسلمين وغيرهم من المستضعفين دولاً وشعوبًا، أو جعلها أمرًا واقعًا يصعب التنزّه منه، وفي هذه الأنظمة الكثير مما يصادم الإسلام ويحادّه، فلا يكاد يسلم أحد من الفتنة في دينه.

هذا ما يسميه سيد قطب رحمه الله الفتنة بقوة الوضع، فيقول:

«وغاية القتال هي ضمانة ألا يُفتن الناس عن دين الله، وألا يُصرفوا عنه بالقوّة أو ما يشبهها كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام، وتسلّط عليهم فيه المغريات والمضلّلات والمفسدات»[7]،

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٥).
(٢) تفسير القرطبي (٣٥٤/٢).
(٣) التفسير الميسر، ص (١٨١).
(٤) المرجع السابق، ص (٣٠).
(٥) التفسير الوسيط، للطنطاوي (٩٧/٦).
(٦) المرجع السابق (٤١٢/١).
(٧) في ظلال القرآن، لسيد قطب (١٩٠/١).

فتسليط المغريات والمضللات والمفسدات على بلاد المسلمين بقوّة الوضع الذي يعيشه الكفار فتنةٌ وأيُّ فتنة.

وهذه الفتنة لا تقف عند المسلمين، بل تمتدّ إلى البشرية جمعاء.

قال أبو الأعلى المودودي في كتاب: الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، مجلّيًا هذه الفتنة بنظر ثاقب: « وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الإنسانية، لا يخفى عليه أنّ المسألة -التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها- إنّما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومَن بيده زمام أمرها. وذلك كما تشاهد في القطار أنّه لا يجري إلّا إلى الجهة التي يوجّهه إليها سائقه، وأنّه لا بدّ للركاب أن يسافروا -طوعًا أو كرهًا- إلى تلك الجهة نفسها. فكذلك لا يجري قطار المدنية الإنسانية إلّا إلى جهة يوجّهه إليها مَن بأيديهم زمام أمر تلك المدنية. ومن الظاهر البيّن أنّ الإنسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الأحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي رسمها لهم الذين بأيديهم وسائل الأرض وأسبابها طرًّا، ولهم الهيمنة كلّ الهيمنة على أزمّة الأمر، وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الإنسانية، وتتعلّق بأذيالهم نفوس الجماهير وآمالهم، وهم يملكون أدوات تكوين الأفكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبّونها، وإليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية، وإنشاء النظام الجماعي، وتحديد القيم الخلقية. فإذا كان هؤلاء الزعماء والقوّاد ممن يؤمنون بالله ويرجون حسابه.. فلا بد لنظام الحياة بأسره أن يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح، وأن يعود الخبثاء الأشرار إلى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم. وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها، وأقلّ ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات أنّها لا تربو، إن لم تمحق وتنقرض آثارها. وأمّا إذا كانت هذه السلطة -سلطة الزعامة والقيادة والإمامة- بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله، واتّبعوا الشهوات، وانغمسوا في الفجور والطغيان؛ فلا محالة أن يسير نظام الحياة بقضّه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء، ويدبّ دبيب الفساد والفوضى في الأفكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والأخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمّتها، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها»[1].

وبعد أن يذكّر بالغايات الكبرى التي جاء بها الإسلام، يقول: «وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقّق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الأرض بأيدي أئمة الكفر والضلال، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحقّ وأنصاره إلّا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم، يذكرون الله قابعين في زواياهم، منقطعين عن الدنيا وشؤونها، مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات!»[2].

> **«وغاية القتال هي ضمانة ألا يُفتن الناس عن دين الله، وألا يُصرفوا عنه بالقوّة أو ما يشبهها كقوة الوضع الذي يعيشون فيه بوجه عام، وتسلّط عليهم فيه المغريات والمضلّلات والمفسدات»**
>
> سيد قطب رحمه الله

ولو ذهبنا نتتبّع الفتن التي نعالجها ونتلوث بها بسبب تسلط الأنظمة الكافرة وغزوها بثقافتها لمجتمعات المسلمين لطال المقال، فإننا نعيش هذه الفتن كلّ يوم، وتحيط بنا من كلّ جانب، لكن نشأتنا عليها واعتيادنا لها يجعلنا لا نميّزها أحيانًا، كالذي يعيش في المكان العفن، يتأذى من رائحته في أول الأمر ثم يعتاده فلا يشعر به.

ولكن نمثّل لها بثلاثة مجالات:

الأول: المعاملات المالية:

الربا من الموبقات المهلكات، تشمئز قلوب المؤمنين من مجرّد ذكره بعد أن آذن اللهُ المتعاملين به بحرب منه ومن رسوله ﷺ. فمن منا اليوم كأفراد لم يتلوث به؟ أمّا على مستوى المؤسسات والشركات فلا يكاد يمكنها العمل إلا بعقود ربوية. وهذه البطاقات الائتمانية الربوية جعلوها الطريقة الوحيدة لإجراء بعض المعاملات المالية وشراء بعض السلع والمنافع؛ فإما أن تأخذ بها، وإما أن تُحرم هذه المعاملات والمنافع.

وقل مثل ذلك في التأمين التجاري، على الصحّة والعربات والممتلكات، الذي صار مفروضًا على

(١) الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، لأبي الأعلى المودودي، ص (٨-٩).
(٢) المرجع السابق، ص (١٣).

الأفراد والمؤسسات، ولو حاولت التملّص منه أو الاحتيال عليه عُدّ فعلك جريمة تعاقبك عليها قوانين الدولة.

لقد أصبح الربا والتأمين صُلب النظام الاقتصادي العالمي، وعلى الجميع أن يتعامل بهما طوعًا أو كرهًا.

وغاية ما يفعله علماؤنا واقتصاديّونا أن يجدوا لنا المخارج والحِيَل الشرعية للتكيّف مع النظام الاقتصادي العالمي، ليخفّفوا من وقع الفتنة. وكان اللائق بهذه الأمة -بمقتضى خيريّتها وتميّزها بمنهج ربّها- أن تكون هي مَن يقدّم نموذجها وحلولها السماوية للناس، وأن تكون متبوعًا لا تابعًا وقائدًا لا مقودًا، لكنّ الضعيف لا يُسمع له.

الثاني: قضايا المرأة والأسرة:

وهذا مثال آخر صارخ لمجال تسعى الدول الغربية الكافرة لفرض قيمها المنحطّة على باقي شعوب الأرض، وتفعل ذلك من خلال صياغة مواثيق واتفاقيات دولية، تطالب الحكومات بالتوقيع عليها، ثم تمارس شتّى أنواع الضغوط لحملها على الالتزام بها وتغيير قوانينها المحلّية لتتوافق معها.

وحتى نتصوّر حجم الفتنة التي تتلظّى بنارها مجتمعات المسلمين حين تطبيق هذه الاتفاقيات -وكثير منها للأسف طبقت أو في طريقها إلى التطبيق- لنستعرض بعض بنود اتفاقية سيداو[1]:

١. عدم تجريم الزنا ما دام رضائيًا. والمضحك المبكي أنّهم حدّدوا السن القانونية لاستقلال الفتاة بقرار ممارسة العلاقات الجنسية بـ ١٥ سنة، بينما لا يحقّ لها أن تتزوّج دون ١٨ سنة!

٢. إباحة الدعارة وحمايتها قانونيًا ومجتمعيًا من خلال اعتبارها نوعًا من أنواع «العمل».

٣. إباحة الشذوذ الجنسي، والدعوة إلى اعتبار الشواذ أسوياء غير مرضى، وإلغاء القوانين التي تجرّمهم وتعاقبهم[2].

٤. وصف القوانين الوطنية التي تقرّ بوجود فوارق بين الجنسين بأنّها أحكام تشريعية مناهضة لحقوق الإنسان.

٥. العمل على المساواة التامّة بين الرجال والنساء وفي جميع المجالات، وإحداث تغيير جذري في الأدوار الفطرية لكلٍّ من الرجل والمرأة داخل الأسرة.

٦. دفع المرأة للعمل في الوظائف غير التقليدية وفي المجالات التي يشغلها الرجال عادة لتعزيز بناء العلاقة بينهما على الندّية، ولتحقيق الاستقواء والاستقلال الاقتصادي للمرأة؛ وبالتالي استغنائها عن الرجل، وتحكّمها في كلّ قراراتها الحياتية.

٧. إلغاءُ مبدأ (الولي) في الزواج، وإعطاء المرأة الحرية الكاملة في العلاقات والسكن.

٨. إلغاء (القوامة) على المرأة من خلال إلغاء مقوّماتها مِنْ: طاعة الزوجة لزوجها، واستئذانه للخروج أو السفر، والالتزام بمسكن الزوجية، واختراع مصطلح «الاغتصاب الزوجي»!

٩. العمل على تحقيق «استقواء الطفل» وتمرّده على والديه، ورفض أي قيود أو ضوابط يفرضها دين أو مجتمع أو عُرف، من خلال: منع أي شكل من أشكال تأديب الأطفال، ومنع التدخّل في خصوصياتهم، ومنح الدولة حقّ انتزاع الطفل من أسرته وتوفير أسرة بديلة عند أدنى مخالفة[3].

حين صدرت هذه الاتفاقية كنا نتناقلها للتندر، وإظهار الانحطاط الذي وصلت إليه «الحضارات» الأخرى، واعتقدنا أنّ المجتمعات الإسلامية بعيدة كلّ البعد عن أن تصل إلى هذا الحضيض، ولكن الآن وبعد أقل من نصف قرن رأينا كيف أنّ كثيرًا من هذه البنود طبقت، أو في طريقها إلى التطبيق، حتى في أكثر بلدان المسلمين تديّنًا ومحافظة. واليوم صار الاختلاط بين الجنسين على مقاعد الدراسة وفي مكاتب العمل أمرًا مألوفًا. وأصبح أن يكون للمدير سكرتيرة تدير أعماله هو الأصل،

(١) اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة، وهي معاهدة دولية اعتمدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٧٩، وتصفها على أنها وثيقة الحقوق الدولية للنساء.

(٢) بل تطور الأمر مؤخّرًا إلى فرض قوانين شاذّة مبتذلة لأجلهم، إذ أكدت صحيفة «تيليغراف» أنّه تمّ توجيه مصوّري الأشعة في بريطانيا لسؤال كلّ مريض بغضّ النظر عن جنسه، عمّا إذا كان حاملاً قبل إجراء التصوير بالأشعة السينية https://www.aljarida.com/article/71428

(٣) يراجع مقال: قراءة في كتاب: المواثيق الدولية وأثرها في هدم الأسرة، للدكتورة كاميليا حلمي محمد، مجلة رواء العدد (١١).

وصور أخرى من المنكرات التي لا يجادل في شرورها إلا منكوس الفطرة ومطموس البصيرة. فبأيّ حقّ تُسلّط هذه الفتنة على الملايين من الشباب المسلمين والنساء المسلمات، ولا يجد أولياء الأمور بدًّا من أن يرسلوا أبناءهم وبناتهم إلى المدارس والجامعات المختلطة، أو يحرموهم من التعليم (وحتى هذا ليس حقًا له إن أراده)؟

> **الدنيا في التصوُّر الإسلامي لا قيمة لها في ذاتها، وإنَّما قيمتها في استثمارها وإعمارها لإقامة الدين وللعمل للآخرة. ومن هنا ذمَّت النصوص الشرعية أن يتمحَّض همُّ المسلم للدنيا**

الثالث: نمط الحياة المغرق في المادية:

الأمثلة أعلاه هي لفتن واضحة ومباشرة في مصادمتها لأحكام الشريعة، إلا أنّ هناك ما لا يقل عنها خطورة وشرًا، وهي الفتن المصادمة لمقاصد الشريعة ومفاهيمها الكبرى، فيُفسد انتشارها «صبغة» المجتمعات المسلمة.

إنّ الدنيا -في التصوّر الإسلامي- لا قيمة لها في ذاتها، وإنّما قيمتها في استثمارها وإعمارها لإقامة الدين وللعمل للآخرة. ومن هنا ذمّت النصوص الشرعية أن يتمحّض همّ المسلم للدنيا، وتكون منتهى إرادته. (ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[1]، (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)[2]، (من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه)[3].

أمّا الكفار فإنّهم لا همّ لهم إلا همّ الدنيا: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ولا يريدون إلا الحياة الدنيا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥].

والحضارة الكافرة تقوم فلسفتها على ذلك بشكل مغرق، وقد ترتّب على ذلك حياة مادية قاتلة، تقوم على إشباع الشهوات وإمتاع الغرائز، وتضرب بالقيم والأخلاق عرض الحائط إن كانت ستفوت شيئًا منها، وتغوص في أنواع الترفيه والملهيات بلا رقيب ولا حسيب من دين أو خلق أو مروءة، وتنفق عليها الأموال الطائلة، وتتوسّع في الاستهلاك في أمور تافهة، بل قد أقامت صناعات ضخمة عليها.

ولـمّا كانت الغلبة لهم، والمغلوب مفتون بتقليد الغالب، يرضخ لقيمه، ويسعى للتماهي مع حضارته، ولـمّا كانت الناس على دين ملوكها، وهم ملوك الأرض اليوم فعليًّا؛ فقد سرت لوثة المادّية في مجتمعاتنا، واتبعناهم حذو القذّة بالقذّة، ودخلنا جُحر الضب الذي دخلوه، واستمتعنا بخلاقنا كما استمتعوا بخلاقهم، ولا تكاد تجد فروقًا ذات بال بين مجتمعاتهم ومجتمعاتنا، فألعابهم ألعابنا، وترفيههم ترفيهنا، وأسواقهم أسواقنا، وأزياؤهم أزياؤنا.

مَن الملوم؟

هل نلوم الغرب على ما وصلنا إليه؟ الجواب:

هناك فتن فرضها علينا الكفار بالقوّة الخشنة، وإن كنا نلوم أنفسنا أنّه لولا ضعفنا لما استقوى علينا، إلّا أنّ ضعف الضحية لا يعفي الظالم من الجريمة.

وهناك فتن فرضها علينا بقوّة وضعه فما مثله ومثلنا فيها إلا كمثل الشيطان مع البشر: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ونحن هنا لا يعنينا أن نقرّر مَن الملوم، بل لا شكّ أنّنا نحن الملومون ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، لكن يعنينا أن نتلمّس طريق الخلاص.

إنّ تسلّط الغرب الكافر مبدأ أكثر الشرور: إمّا بفرضها بالقوة، وإما بصنع وكلاء له تحكّم في مصائرهم فصاروا ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢]، وإما مكرًا وكيدًا، وإما تقليدًا من المغلوب للغالب. وحتى حين قامت بعض الشعوب المظلومة والمقهورة لتصحيح أوضاعها؛ تدخّل الغرب الكافر بصورة سافرة أو مقنّعة ليحول دون ذلك، إلا فيما يحفظ مصالحه.

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥).

هناك فتن فرضها علينا الكفار بالقوّة الخشنة، وإن كنا نلوم أنفسنا أنّه لولا ضعفنا لما استقوى علينا، إلّا أنّ ضعف الضحية لا يعفي الظالم من الجريمة. وهناك فتن فرضها علينا بقوّة وضعه فما مثله ومثلنا فيها إلا كمثل الشيطان مع البشر: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾

وستبقى هذه الشرور ما بقي الكافر قويًّا باغيًا متسلّطًا عاليًا في الأرض، ولا سبيل لإنهاء هذه الشرور إلا بإخضاعه، حتى لا يكون له سلطة، وحتى يكون الدين كلّه لله، ولا سبيل إلى دفع هذه الفتن إلا بالجهاد.

فإن قيل: ما فائدة هذا الكلام، ونحن في أشدّ أحوال الضعف عن تطبيقه؟

فالجواب: العجز يُسقط العمل، لكنّه لا يُسقط الاعتقاد.

فعندنا مشكلة أخطر من مشكلة الضعف عن الجهاد! إنّ مشكلتنا قبل ذلك فيمن يرى أنّ جهاد الطلب ولّى زمنه، ويريدون شطبه من الأحكام الشرعية، ويعدّون جهاد الطلب من الأحكام التي تتغير بتغير الزمان وأحواله، وأنّ الحال العالمية في الوقت الذي نزل فيه القرآن كانت تتطلبه، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية وقيام هيئة الأمم المتحدة صار الاستقرار والسلام العالمي هو السائد بين الدول! فجهاد الطلب كان مطلوبًا من زمن النبي ﷺ إلى الحرب العالمية الثانية، ثم انتهت الحاجة إليه!

هؤلاء لم يروا في الجهاد إلا ردّ العدوان العسكري، ولم يروا فيه ردّ الفتنة، وغابت عنهم الغاية الكبرى من تشريعه، وهم بقولهم هذا يساهمون في أن تكون فتنة، والله يريد ألّا تكون فتنة!

ألا يرون ببصرهم وبصيرتهم كيف تموج الفتن في الأرض كلها بسبب الذين يريدون علوًّا في الأرض وفسادًا؟ بل أقول: لعلّه لم يأت زمن سابق يشهد للحكمة التامّة والحجّة البالغة من تشريع جهاد الطلب مثل زماننا هذا!

وإن كان دافعهم إلى مثل هذا القول أنْ كُبر عليهم مشاهد القتل والتدمير التي في الحروب، فليتذكروا قول ربهم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١].

إنّ الغرض من الجهاد ليس تقتيل البشر، ولا أن يُكره الناس على دخول الإسلام، ولكن ألّا تبقى سلطة كافرة متمكّنة على شيء من الأرض؛ لأنّها إن بقيت فستفتن الناس، وستفسد في الأرض، وتهلك الحرث والنسل.

يقول السعدي رحمه الله: «ليس المقصود به (أي القتال) سفك دماء الكفار، وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن (يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) تعالى، فيظهر دين الله على سائر الأديان، ويُدفع كلّ ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال»[1].

العجز يُسقط العمل، لكنّه لا يُسقط الاعتقاد

وليس المقصود من هذا الكلام أن نطالب الناس الآن بجهاد الطلب، فإنّ لهذا الأمر عدّته، وقرون من الضعف والهوان لا تعالَج بمجرّد الدعوة إلى الجهاد، وإنّ من أسباب بقاء هذا الدين وبقاء أهله، أنّ مطالبَهُ منوطةٌ بالاستطاعة، فهو دين واقعي، والله يعلم أنّه ستمرّ بالمسلمين حالات تمكين وحالات ضعف، وحالات عزّة وحالات ذلّ، وحالات ظهور وحالات ضمور، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولذلك شَرَعَ لأحوال الاستضعاف أحكامًا استثنائية، ووضعَ جملة من القواعد الكلّية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، «الضرورات تبيح المحظورات»، وهذا كلّه على صعيد العمل، أمّا على صعيد الاعتقاد، فلا رخصة.

وإنّما أردنا من هذا المقال أن نجلّي بعض ما علمناه من حكمة الله في تشريع الجهاد، والتي تقصر عنها علوم البشر، وألّا تمسّ الثوابت والقطعيات مهما بدت لنا بعيدة المنال، فواجبنا أن نحفظ أصول الدين وصبغته الإلهية، ونبلّغها جيلاً بعد جيل دون تحريف ولا تبديل، عسى الله أن يقيّض جيلاً قادمًا يعيد للدين سلطته وللأمّة مجدها.

(١) تفسير السعدي، ص (٨٩).

الناجون من الأَسْر: بين التأثيرات النفسية والمسؤوليات الاجتماعية

أ. دانية صفو (*)

يعاني المحرّرون من المعتقلات من آثار نفسية وجسدية واجتماعية قاسية وعميقة نتيجة الظروف التي مرّوا بها، كما يواجهون عزلةً اجتماعيةً وصعوبةً في الاندماج مجددًا؛ بسبب تغير الديناميكيات الأسرية والمجتمعية، حيث يتطلب دعمهم جهدًا محوريًا مِن المجتمع والأسرة لمعالجة الانعكاسات النفسية وتعزيز التكيّف مع الحياة، بالمقابل: يحتاج المحرَّرون إلى خطوات تدريجية لإعادة بناء حياتهم وتعزيز ثقتهم بأنفسهم، بما في ذلك الاهتمام بالصحة، وتحديد الأهداف، والانخراط في الأنشطة المجتمعية.

مقدمة:

حين تفتح أبواب المعتقل ويخرج السجين إلى النور، يحمل في داخله ظلالاً ثقيلة من تجربة لا يمكن للكلمات أن تصف قسوتها؛ تجربة قهرت الجسد وأدمت الروح، وتركت آثارها نقشًا عميقًا في النفس، لم تكن سنوات الاعتقال مجرد زمنٍ ضائع، بل كانت معركة يومية مع الألم والحرمان والإذلال، فالغالب المتبع في هذه السجون أن يتعرَّض المعتقل لأنواع ووسائل التعذيب النفسية والجسدية ولإهانة إنسانيته. وحين يستعيد السجين حريته، يجد نفسه أمام سجنٍ آخر: سجن الذكريات والاضطرابات النفسية والاجتماعية؛ من اغترابٍ نفسي، وعدوانية مكتومة، إلى انطواءٍ يجعل العودةً إلى المجتمع أشبه بعبور حقل ألغام. إن التعامل السليم مع هؤلاء المحررين ليس خيارًا، بل واجب إنساني ومجتمعي يُعيد إليهم القدرة على التوازن، ويمنحهم فرصة حقيقية للحياة من جديد.

أولاً: سجين الرأي والضمير (تميّز وتمييز)

لا يمكن الحديث عن «سجين الرأي» دون التمييز بينه وبين السجين العادي، فهما حالتان مختلفتان تمامًا ومتناقضتان أيضًا من حيث

(*) ماجستير في التربية الإسلامية، بكالوريوس علم نفس.

الدوافع والتجربة. فسجين الرأي أو ما يسمى (سجين الضمير) هو شخص تم سجنه نتيجة آرائه ومواقفه الفكرية أو السياسية التي تعبر عن حريته في التفكير والتعبير، أما السجين العادي فهو شخص ارتكب جرمًا يعاقب عليه القانون، سواء كان جنائيًا أو أخلاقيًا.

هذا الاختلاف ينعكس بشكل مباشر على طبيعة المعاملة داخل السجون، بحيث تركز معاملة السجين العادي على الاحتجاز التقليدي بعزله وتقييد حريته كعقوبة بهدف الردع.. أما سجين الرأي فالأفرع الأمنية والسجون فظّعت وأبدعت طرقًا مبتكرة من التعذيب بحق سجين الرأي؛ يُمارس عليه كل أنواع العذاب التي تهدف إلى كسر إرادته الفكرية وثنيه عن موقفه ومبادئه ومحاولات لتدمير شخصيته الفكرية والإنسانية. لذا كان لا بد من تسليط الضوء على المحرر بصفته رمزًا للحرية الفكرية وضمير الأمة، هو ليس شخصًا يعاقب على جريمة، بل يدفع ثمن دفاعه عن حقه وحقوق مجتمعه في الحرية والكرامة. لذلك، فإن هذا المقال يهدف إلى تقديم فهم أعمق لمعاناته ومعرفة ردود أفعاله وما يمكن أن يصاب به وانعكاسات تجربة الاعتقال والدعوة إلى دعمه نفسيًا واجتماعيًا، وتعزيز مسؤولية المجتمع والأسرة تجاهه كحامل لرسالة نبيلة تستحق كل تقدير واحترام.

ثانيًا: انعكاسات الاعتقال على المحرر

١. الانعكاسات الجسدية والعضوية:

يعاني المحرر من المعتقل من آثار جسدية عميقة نتيجة التعذيب القاسي الذي تعرض له أثناء فترة احتجازه. هذه الآثار قد تترك بصماتها على جسده لسنوات طويلة، بل وربما مدى الحياة، من أبرز هذه الآثار: الإصابات المزمنة؛ مثل الكسور غير المعالجة، والآلام الناتجة عن الضرب المتكرر، والجروح التي قد تترك ندوبًا دائمة، كما يمكن أن يعاني من ضعف في الوظائف العضوية بسبب التعذيب المنهج، مثل فقدان السمع بسبب الضرب على الرأس، أو ضعف البصر نتيجة الحرمان من الضوء لفترات طويلة.

بالإضافة إلى ذلك، قد تظهر أمراض مزمنة كالتهابات المفاصل الناتجة عن الحبس في أوضاع مؤلمة، واضطرابات الجهاز الهضمي بسبب سوء التغذية أو التعرض للتجويع المتعمد. كما يواجه المحرر صعوبة في استعادة اللياقة البدنية بسبب الإجهاد البدني الطويل والإصابات، هذه الأضرار الجسدية، إلى جانب الألم النفسي، تجعل رحلة التعافي للمحرر طويلة.

٢. الانعكاسات النفسية:

الجميع يعلم أن الاعتقال الذي تعرض له أبناؤنا ليس مجرد حجز للحرية، بل هو مواجهة قاسية تُلقي بظلالها على نفسية الفرد، تلك التجربة التي يتعرض فيها المعتقل للظروف اللاإنسانية من التعذيب الجسدي والإهانة، ليس الغرض منه فقط جمع معلومات، بل هي محاولة متعمدة لتحطيم وإهانة روح الشخص وتجريده من إنسانيته، لترسيخ الشعور بالعجز، وتجريده من عقائده وليتحول من إنسان ذي عزيمة إلى إنسان محطم فاقد الثقة.. وفي ذلك السياق أشارت الأبحاث والدراسات إلى احتمال ظهور عدة انعكاسات نفسية عند المحررين من المعتقل نذكر أهمها[١]:

١. الإجهاد النفسي عقب الصدمات:

وهو حالة نفسية شائعة تحدث عند التعرض لحادث صادم يترافق بالخوف الشديد والصدمة النفسية القوية، ومن هول هذا الحادث الصادم نجد المصاب يعيش تفاصيل الحدث، وعند المحرر تظهر بالأعراض التالية:

- الذكريات الراجعة، حيث يعيد المصاب تجربة الأحداث المؤلمة وكأنها تحدث في الحاضر، بما يشمل رؤية الأشخاص، والدماء، أو شم الروائح المرتبطة بالاعتقال.
- حالة دائمة من التوتر والإثارة العصبية.
- اضطرابات النوم، تتراوح بين الأرق إلى الكوابيس والأحلام المزعجة عن الحادث.
- نوبات غضب وانفعالات غير مبررة.
- ضعف القدرة على التركيز والذاكرة.
- زيادة التنبه والحذر المستمر.
- حالة من كبت المشاعر والعواطف.

(١) الرعاية النفسية والاجتماعية لسجين الرأي، للدكتور مأمون مبيض، ص (١٦-١٧).

- استعادة تفاصيل التجربة في خيالات وأفكار مستمرة يصعب التخلص منها.

٢. القلق:

وهو حالة نفسية تتميز بشعور دائم من التوتر والخوف المفرط تجاه أمور قد تبدو عادية، تتجلى بالأعراض التالية:

- شعور دائم بالتوتر الداخلي وعدم الراحة، حتى وإن بدا هادئًا ظاهريًا.
- ضعف القدرة على اتخاذ القرارات أو الاعتماد على رأي ثابت.
- ردود فعل مبالغ فيها تجاه الأصوات المفاجئة أو المحفزات المشابهة لما جرى في المعتقل.
- حالة جسدية متوترة، كزيادة معدل ضربات القلب والتعرق عند رؤية محفزات تذكر بالحادث.
- محاولة تجنب الحديث عن التجربة أو أي شيء يذكر بها، مع الميل للعزلة والانطواء.
- الخوف الشديد من التعرض لمواقف مشابهة أو التفاعل مع أشخاص يذكرونه بالماضي.

> **الاعتقال الذي تعرض له أبناؤنا ليس مجرد حجز للحرية، بل هو مواجهة قاسية يتعرض فيها المعتقل للظروف اللاإنسانية من التعذيب والإهانة، ليس الغرض منه فقط جمع معلومات، بل هي محاولة متعمدة لتحطيم وإهانة المعتقل وتجريده من إنسانيته، وتجريده من عقائده حتى يتحول من إنسان ذي عزيمة إلى إنسان محطم فاقد الثقة**

٣. الاكتئاب:

وهو حالة من الحزن والتأثر الشديد، وتظهر عند المحرر في الأعراض التالية:

- حالة من اللامبالاة تجاه ما يحدث حول المحرر وكأنه منفصل عاطفيًا عن الواقع.
- كبت شديد للمشاعر والعواطف، والشعور بالخدر والذهول، وكأنه في حالة غيبوبة عاطفية.
- فقدان الرغبة في الحياة، وقد تصل إلى التفكير في الانتحار نتيجة الشعور المستمر بالإنهاك والانزعاج.
- صعوبة تذكر بعض التفاصيل الهامة من التجربة، أحيانًا نتيجة الكبت النفسي.
- الحزن العميق وفقدان الأمل في المستقبل، خاصة مع استمرار الأعراض لفترات طويلة.
- تجنب المواقف الاجتماعية، مثل مقابلات العمل أو التفاعل مع العائلة والأصدقاء.

هذه الآثار النفسية غالبًا ما تستمر لفترات طويلة، وقد تعود بشكل مفاجئ نتيجة محفزات أو ضغوط جديدة، مما يجعل التعافي الكامل تحديًا يتطلب دعمًا نفسيًا متخصصًا ومحيطًا داعمًا.

٣. الانعكاسات الاجتماعية والأسرية للمحرر:

تلعب الأسرة دورًا أساسيًا في مساعدة المحرر على التأقلم مع الحياة بعد السجن، حيث تكون الملاذ الأول له بعد الظلام. ومع ذلك، قد يواجه البعض الوحدة والعزلة أو تفكك الأسرة، مما يزيد من معاناته وحاجته للمساعدة.

يواجه المحرر وأسرته كذلك تحديات عند محاولة إعادة بناء العلاقات داخل الأسرة، فقد يجد المحرر نفسه غريبًا عن عائلته، حيث نما أبناؤه وشبوا خلال غيابه، أو أن الزوجة تزوجت بغيره ظنًا أنه مات، وقد تختلف قيمهم وأفكارهم عن تلك التي كان يعتنقها، كما أن التغيير في المظهر والأفكار بسبب سنوات الاعتقال يعقد عملية التكيف.

كما يواجه المحرر تحديات في التواصل؛ حيث يضع غياب السجين الطويل حواجز نفسية وعاطفية بينه وبين أفراد أسرته، مما يؤدي إلى صعوبة في التفاهم، قد يكون من الصعب على الزوجة العودة إلى دورها السابق بعد أن اضطرت لتحمل مسؤوليات إضافية، مما قد يؤدي إلى خلافات قد تصل إلى الطلاق.

أما عن المرأة المحررة فالأمر قد يكون أسوأ؛ فالمحررة من المعتقل تواجه صعوبة شديدة في إعادة تأهيل حياتها الاجتماعية والعائلية، حيث قد تلاقي رفضًا قاسيًا من زوجها الذي قد يتجاهل معاناتها أو يرفض تقبلها إلى درجة الهجر أو الطلاق بسبب الاعتقال، بل وقد يلومها على ما تعرضت له!

المحررة من المعتقل تواجه صعوبة شديدة في إعادة تأهيل حياتها الاجتماعية والعائلية، حيث قد تلاقي رفضًا قاسيًا من زوجها الذي قد يتجاهل معاناتها أو يرفض تقبلها إلى درجة الهجر أو الطلاق بسبب الاعتقال، بل وقد يلومها على ما تعرضت له

وأيضًا النساء المحررات غالبًا ما يواجهن الأسئلة المتكررة والملحة عن أشكال التعذيب والاعتداء ولا سيما الاعتداء الجنسي «ويعد توجيه الأسئلة عن التعذيب الجنسي نوعًا من الإهانة وعدم الاحترام فتشعر المحررة بوصمة عار لا خلاص منها وبأن كيانها الأخلاقي والاجتماعي والديني قد تلوث»[1]، وقد يزيد الطين بلة عندما تجلب معها طفلاً نتيجة الاعتداء الجنسي، فتجد نفسها ضحية لوم من أسرتها، حيث يتهمونها بأنها سمحت بما حدث. هذه المواقف لا تقتصر على الرفض العاطفي والاجتماعي، بل تتطور أحيانًا إلى رفض وجود الطفل ناهيك عن نعته بألقاب مسيئة، مما يزيد من معاناتها النفسية والاجتماعية ويعمق جراحها.

٤. الانعكاسات على البنية الشخصية والفكرية للمحرر[2]

يتعرض المحرر لسلسلة من الانعكاسات العميقة التي تؤثر على بنيته الشخصية والفكرية بعد خروجه من السجن، نتيجة التجارب القاسية التي مر بها، من أبرز هذه الانعكاسات:

١. استمرار العيش خلف القضبان نفسيًا: يتعامل المحرر بعد الإفراج عنه وكأنه لا يزال سجينًا، حيث يلبس قناعًا يخفي ملامح شخصيته الحقيقية، مستمرًا في استخدام أساليب دفاعية اكتسبها أثناء الاعتقال.

٢. الوساوس الفكرية وشعور المراقبة: تنتابه أفكار وسواسية بأنه تحت المراقبة أو أن الآخرين يترقبون خطواته، مما يولد حالة دائمة من القلق والريبة.

٣. وهم الاضطهاد: يترسخ لديه شعور بأنه ضحية مؤامرة أو سوء معاملة ممنهجة، مما يدفعه إلى البحث المستمر عن العدالة وربما التورط في محاولات متكررة لإثبات مظلوميته.

٤. النزعة الانتقامية: يفكر بعض المحررين في الانتقام من الأشخاص الذين يعتقد أنهم السبب في اعتقاله أو أذاه، مما يجعل هذه النزعة تحديًا في سبيل تعافيه النفسي.

٥. اللامبالاة وضعف التعاطف مع الآخرين: تغلب مشاعر اللامبالاة على المحرر، حيث يجد صعوبة في التفاعل مع الآخرين أو التعاطف مع مشكلاتهم بسبب ما تعرض له من تجارب عزل شعورية.

٦. تقمص دور المحقق: قد يصبح المحرر أكثر شكًا وتحقيقًا في تعاملاته مع أفراد أسرته، وخاصة الأبناء والزوجة، حيث يتبع أساليب حادة وغير تربوية مثل اتهام الآخرين دون مبرر أو الشك الدائم بهم.

٧. الانعزال والرغبة في التقوقع: يميل المحرر إلى الانطواء على ذاته نتيجة فقدان ثقته بالآخرين أو لشعوره بأنه فقد جزءًا من كرامته بسبب السجن والتعذيب.

٨. فرط اليقظة وضبط النفس: تظهر على المحرر استجابات حادة للمؤثرات الخارجية، نتيجة التكيف مع ظروف السجن التي كانت تتطلب تنظيمًا دقيقًا ويقظة مفرطة للبقاء.

٩. الاستمرار في حرمان الذات: يشعر المحرر بعدم استحقاقه للترفيه أو الاستمتاع بالحياة، مما يخلق فجوة بينه وبين أفراد أسرته الذين قد يظهرون سلوكيات مختلفة يعتبرها من الإسراف أو التبذير.

١٠. عدم الرغبة في اللمس: بعض المحررين لا يرغبون باللمس الجسدي نتيجة لما مر بهم، ولكن غالبًا تكون مرحلة مؤقتة.

١١. ضعف الإرادة واتخاذ القرارات: يعاني المحرر من شعور بالعجز وقلة الحيلة، حيث يشعر أن قدرته على تحمل المسؤولية أو اتخاذ القرارات الحاسمة قد تأثرت بفترة سجنه الطويلة.

١٢. العداء والرغبة في الانتقام: لا يستطيع المحرر تجاوز الاعتداءات التي تعرض من قبل

(١) بروتوكول استنبول، دليل التقصي والتوثيق الفعالين للتعذيب وغيره من ضروب المعاملة القاسية، مفوضية الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ٢٠٠٤م. فقرة (١٤٩).

(٢) الدليل الإرشادي للعاملين في مجال الرعاية النفسية للمحرر، للدكتور ياسر الشلبي والدكتورة دجانة البارودي، ص (٤٦-٤٧).

السجانين والجلادين، إذ يعتبرها -وهي حقًا- جرائم لا تُغتفر، مما يولد لديه مشاعر عميقة من الغضب والكراهية.

هذه الانعكاسات والتغيرات تشكل تحديات كبيرة على المستوى الشخصي للمحرر، ولا شك أنها تقف عائقًا أمام التكيف الاجتماعي والأسري للمحرر مما يتطلب دعمًا نفسيًا واجتماعيًا كبيرًا لمساعدته على التكيف مع حياته الجديدة.

ثالثًا: معًا لدعم المحرر (الأسرة والمجتمع):

الاعتقال تجربة قاسية تترك انعكاسات عميقة على البنية النفسية والفكرية للمحرر، بالإضافة إلى تبعاتها الاجتماعية والعائلية. ومع الخروج إلى الحياة بعد السجن يحتاج المحرر إلى دعم وتوجيه، كما يتطلب الأمر وعيًا من المجتمع والأسرة لدعم هذا الفرد الذي خاض تجربة صعبة، نقدم في هذا الموضوع رسائل وهمسات موجهة لكل من المجتمع وأسرة المحرر والمحرر نفسه.

١. رسائل موجهة للمجتمع لدعم المحرر:

أيها المجتمع ... المحرر الذي عاد إليكَ اليوم ليس ناجيًا من تجربة قاسية فحسب، بل هو قصة نضال ضد القهر والظلم. مسؤوليتنا ليست أن نحتفي بعودته فحسب، بل أن نكون الحاضنة التي تعيد له ثقته بنفسه وبالآخرين، سنقدم لكم مجموعة من الرسائل التي توضح كيفية تقديم هذا الدعم لتعزز ثقته بمجتمعه:

١. الاحترام والتقدير: استقبل المحرر باحترام ودون إصدار أحكام مسبقة، قدم الدعم العاطفي بالكلمات الإيجابية والابتعاد عن الاستفسارات الملحة التي قد تكون مؤلمة أو محرجة.

٢. تفادي الوصمة الاجتماعية: لا تعامله كضحية أو كشخص مختلف، بل شجعه على الانخراط في المجتمع بشكل طبيعي.

٣. ابتعد عن التلميحات الجارحة التي قد تثير لديه مشاعر الذنب أو القلق.

٤. الدعم في فرص العمل والتعليم: ساعد المحرر في العثور على فرص عمل أو متابعة التعليم لتعزيز شعوره بالاستقلالية، نظم برامج تأهيل وتدريب خاصة لدعم عودتهم للحياة المهنية.

٥. التوعية المجتمعية: انشر الوعي حول حقوق المعتقلين المحررين وأهمية إعادة دمجهم في المجتمع، شارك في مبادرات دعم إنسانية تعزز التضامن مع المعتقلين المحررين.

٦. اعتبار المحرر رمزًا للانتصار: ساهم في تعزيز صورة المحرر كرمز للنضال والصمود، من خلال تنظيم احتفالات التكريم وتقدير تجربته النضالية.

٧. التوعية الخاصة بالأهالي بالنسبة للمحررات: يجب تنظيم حملات توعية للأزواج والأهالي لتفهّم ما مرت به زوجاتهم وأخواتهم وبناتهم ومعاملتهن باحترام وتقدير.

٨. تبني الخطاب الإيجابي: ساهم في بناء خطاب إعلامي ومجتمعي يعكس الصمود والإرادة لدى المحررين بدلاً من التركيز على معاناتهم فقط.

> **المحرر الذي عاد اليوم ليس ناجيًا من تجربة قاسية فحسب، بل هو قصة نضال ضد القهر والظلم٪ ومسؤوليتنا ليست أن نحتفي بعودته فحسب، بل أن نكون الحاضنة التي تعيد له ثقته بنفسه وبالآخرين**

٩. تقديم المساعدة القانونية: على المجتمع المساهمة في دعم المحررين لمتابعة حقوقهم القانونية، خصوصًا في حال كانوا ضحايا انتهاكات.

٢. رسائل موجهة لأسرة المحرر:

إن من الأمور الهامة والحساسة جدًا في رعاية المعتقل المحرر حديثًا هي طريقة استقبال هذا المحرر، فسيكون لهذه اللحظات الأولى الأثر الكبير على مستقبل تكيّفه مع الحياة والمجتمع. ومن المهم أن يكون هناك من يقوم باستقباله ورعايته والسهر على راحته وأن تحرص الأسرة على إقامة علاقة الاحترام والثقة والمحبة وذلك من خلال التأني بإعطائه الوقت الكافي للتأقلم البطيء والمتدرج مع الحياة من جديد[1]، وفيما يلي مجموعة من الرسائل لأسرة المحرر:

(١) الرعاية النفسية والاجتماعية للأسير، ص (٢٩).

١. التواصل الصادق والآمن: اسمح للمحرر بالتحدث عن مشاعره وتجربته دون إصدار أحكام، استخدم الحوار لتقوية العلاقة وإزالة الحواجز النفسية التي قد تكون تشكلت أثناء فترة السجن.

٢. تفهم الصعوبات النفسية والاجتماعية: اعلم أن المحرر قد يعاني من مشكلات مثل الوساوس أو التوجس أو الميل للعزلة، الرغبة بعدم الإفصاح عما جرى معه، كن صبورًا ومتفهمًا.

٣. دعم الصحة النفسية: ساعده على طلب الدعم النفسي إذا لاحظت علامات مثل الاكتئاب، أو العزلة، أو الوساوس القهرية، وفّر بيئة داعمة وخالية من الضغط النفسي.

٤. إعادة توزيع الأدوار العائلية: إذا تغيّرت الأدوار داخل الأسرة خلال فترة الاعتقال، يجب إعادة التوازن بما يحقق الاحترام للمحرر دون إلغاء ما تعلمته الأسرة من مهارات جديدة.

٥. التعامل مع مشاعر الغضب والرغبة في الانتقام: ساعد المحرر على تحويل مشاعر الغضب إلى طاقة إيجابية تخدم أهدافه المستقبلية، ذكره بأهمية تجاوز الماضي وعدم التمسك بمشاعر الكراهية.

٦. تفهم الانعكاسات النفسية والفكرية: استعد لمواجهة بعض السلوكيات مثل الشك أو سرعة الغضب أو العزلة، وتعامل معها بصبر وتعاطف، قدم تشجيعًا مستمرًا لتعزيز ثقته بنفسه.

> **أيها المحرر، لقد تجاوزت أقسى المحن وأثبتّ أن للإنسان قدرة لا حدود لها على الصمود، الألم الذي واجهته وتحملته هو دليل على قوة روحك، واليوم تبدأ رحلة جديدة مليئة بالإصرار لإعادة بناء ذاتك وحياتك**

رابعًا: الطريق طويل لكن الفجر وشيك:

أيها المحرر، لقد تجاوزت أقسى المحن وأثبتّ أن للإنسان قدرة لا حدود لها على الصمود، الألم الذي واجهته وتحملته هو دليل على قوة روحك، واليوم تبدأ رحلة جديدة مليئة بالإصرار لإعادة بناء ذاتك وحياتك، ولذلك نقدم لك هذه الرسائل، راجين أن تجد فيها الإلهام والقوة لتجاوز المرحلة القادمة بنجاح:

١. التدرج في العودة للحياة الطبيعية: لا تتوقع أن تعود الأمور إلى طبيعتها فورًا، اسمح لنفسك بالتكيف تدريجيًا مع الحياة الجديدة مع تخصيص وقتٍ للراحة والتأمل بعيدًا عن ضغوط الحياة اليومية.

٢. التركيز على بناء الثقة مع أفراد الأسرة: ضع عائلتك في مقدمة أولوياتك، وكن حاضرًا لهم عاطفيًا ووجدانيًا؛ فهم أيضًا عانوا في غيابك، أظهر التقدير لما قدموه لبناء العلاقة الأسرية الوجدانية المليئة بالود والمحبة والأمان.

٣. الاهتمام بالصحة الجسدية: من الضروري اتباع نمط حياة صحي، بما في ذلك الغذاء المتوازن، والنشاط والرياضة البدنية المتدرجة، والحصول على قسط كافٍ من النوم.

٤. التواصل مع الأسرة والأصدقاء: افتح حوارات صريحة مع الأفراد المقربين المحبين لك حول أفكارك ومشاعرك تجاه تجربتك، ولا يشترط أن تبوح بكل ما حدث معك، يكفي أن تسمح لهم بفهم مشاعرك واحتياجاتك، تجنب عزل نفسك واستبدل المشاعر السلبية التي تنتابك بمواقف إيجابية وحكم ربانية.

٥. وضع أهداف مستقبلية: حاول التركيز على بناء حياة جديدة ومثمرة من خلال وضع أهداف صغيرة يمكن تحقيقها.

٦. الانخراط في العمل المجتمعي: حاول المشاركة في أنشطة تطوعية أو ثقافية تساعد في استعادة الثقة بالنفس وتعزيز الروابط الاجتماعية، وكن شريكًا في بناء هذا الوطن من جديد.

خاتمة:

التعامل مع المحرر من المعتقل يحتاج إلى وعي وجهد مشترك من الفرد والمجتمع والأسرة، تجاوز هذه المرحلة بنجاح يتطلب صبرًا وحكمة في معالجة الانعكاسات النفسية والاجتماعية الناجمة عن تجربة الاعتقال، من خلال دعم المحرر نعيد بناء حياته ونمنحه فرصة جديدة لتحقيق ذاته والمساهمة الفعالة في مجتمعه.

عملية تحرير سوريا: قراءة من منظور السيرة النبوية

أ. عباس شريفة (*)

تمثّلت عمليات الفصائل المقاتلة في تحرير سوريا من النظام البائد استراتيجيات متميزة كتأمين الحدود، وإدارة الخسائر، واختيار اللحظات المناسبة للهجوم، وتحييد الخصوم وتعزيز الوحدة، مع تحقيق الانتصار الأخلاقي عبر التسامح والعفو، مستلهمةً في تلك العمليات قيمًا إسلامية في السلم والأمان، مشددة على بناء مجتمع جديدٍ؛ قائم على العدالة والحرية، في تماهٍ مع النموذج النبوي.

تمهيد:

في يوم ٢٧ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٢٤م أطلقت فصائل الثورة السورية عملية عسكرية شاملة على ريف حلب الغربي وريف إدلب الشرقي والجنوبي، انتهت بالسيطرة على محافظة حلب، ثم أدت إلى انهيار دراماتيكي في النظام، وحررت حلب وحماة وحمص ودمشق، وسقط النظام السوري حيث هرب بشار الأسد يوم ٨ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٤م إلى موسكو، بعد انهيار الروح المعنوية لجيشه وأمنه وتخلي حلفائه عنه في هذا الحدث التاريخي الذي سيغير وجه المنطقة وهذا الزلزال الجوسياسي الكبير، سنحاول قراءة المشهد من منظور السيرة النبوية بكل دروسها وعبرها وإرشاداتها في سلوك الثوار السوريين.

العقيدة القتالية أولاً:

إن العقيدة القتالية لجيش ما هي الفكرة المحورية التي تحدد أهدافه وغاياته وأدواته وتوضح رسالته الأخلاقية، فكل الجيوش تخوض حروبها لأجل الاستعلاء في الأرض أو في سبيل الجاه والسمعة أو كنوع من السادية (القتال لأجل القتل)، وهنا لا بد أن نتذكر أن الثورة السورية دخلتها الكثير من الأفكار التي شوهت رؤيتها للعقيدة القتالية من أخطرها الغلاة الذين رفعوا راية للقتال من أجل

(*) باحث في الصراعات والفكر الإسلامي.

إقامة الخلافة، وقتلوا المسلمين بعد اتهامهم بالردة، واعتدوا على الطوائف الموادعين الذين لم يعتدوا علينا فشتتوا الغاية وفوتوا على الثورة انتصارها وكثروا عليها أعداءها وبرروا الذرائع لحربها.

لكن عملية التحرير الأخيرة وضحت هذه المسألة بغاية الوضوح، وبينت الهدف بطريقة لا لبس فيها، وجعلت عنوان المعركة «ردعًا للعدوان وطلبًا للحرية» في إشارة واضحة لرد صيال النظام والميليشيات الإيرانية الذين دمروا المدن وهجروا المدنيين واستحوذوا على السكن والديار والمساجد، ولم يتوقفوا يومًا عن قصف المدنيين في المناطق المحررة، فجاءت المعركة تعبيرًا عن صميم قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

وفي ذلك طمأنة للدول المجاورة لسورية بأن هذه المعركة حدودها في سورية وهدفها هو النظام السوري فقط وليس لها مشكلة مع الشيعة والعلويين والدروز والكرد بالعموم وهو ما أكسب المعركة تعاطفًا إعلاميًا وسياسيًا ساعد في انتصارها.

من التهجير إلى التحرير:

منذ سقوط مدينة حمص في شهر أيار/ مايو ٢٠١٤م بيد قوات النظام والميليشيات الإيرانية، مرورًا بسقوط حلب والغوطة ودخول درعا في اتفاق المصالحات، رفض الكثير من الثوار المصالحة مع نظام الأسد نظير البقاء في ديارهم وأموالهم واختاروا الهجرة إلى الشمال السوري فرارًا بدينهم ومبادئهم، مفضلين قسوة الغربة ومرارة الهجرة على وداعة الأوطان في ظل حكم الجور والفساد، معتقدين أن تهجيرهم هو هجرة في سبيل الله ومحاولة لاستعادة بناء القوة في الشمال السوري لأجل العودة والتحرير، كما فعل رسول الله ﷺ وصحابة رسول الله ﷺ في هجرتهم من مكة إلى المدينة، حيث كانت قريش تظن أنها تخلصت من خطر دعوتهم إلى الأبد وأنه تم تأمين مكة من اجتياح هذا الدين الجديد، لكنها لم تدرك بأنها تصنع منهم جيشًا عرمرمًا قوامه عشرة آلاف مقاتل سيدخل مكة فاتحًا بعد ٨ سنوات[١]. وكذلك كان النظام السوري عندما يهجر الثوار بالباصات الخضراء يتخيل نفسه منتصرًا يذل الأحرار، ولم يكن يدري أن هؤلاء سيشكلون برميل البارود الذي سينفجر في وجهه بعد سنوات من أوهام الانتصار ليسقطوا حكمه إلى الأبد.

شراء الزمن مقابل المكان وإدارة الخسائر:

لقد شكل مسار أستانا -رغم كل سلبياته- والذي امتد من عام ٢٠١٧م وحتى قبل بدأ المعركة بشهر فرصة مناسبة للثوار وخطوة تكتيكية مهمة للبقاء خصوصًا بعد عام ٢٠٢٠م باتفاق خفض التصعيد بين تركيا وروسيا وما حمل من فرصة مهمة للثورة كي تأخذ نفسًا، استغل الثوار السوريون فترة الهدنة بالإعداد العسكري والتدريب والتنظيم والتخطيط؛ يتجهزون للحظة الحاسمة والفرصة السانحة لكيلا يفوتوها، لقد كانت استراتيجية الثوار هي شراء الزمان مقابل المكان؛ فخسارة الجغرافيا رغم مرارتها لكنها كانت خطوة تكتيكية لكسب المزيد من الزمن في عمر الثورة بانتظار الفرصة السانحة لتغيير المعادلة وتهيئة الفرصة لإعادة الكرة، والانتقال من الدفاع إلى الهجوم كما استغل رسول الله ﷺ صلح الحديبية للدعوة ومراسلة ملوك العالم وتجهيز جيش المسلمين حتى جاءت سنة الفتح فكان فتحًا بدون كلفة عالية من الدماء والأموال، وعاد رسول الله ﷺ إلى مكة فاتحًا مهابًا متواضعًا بعد ما خرج منها متخفيًا خائفًا[٢].

لقد كانت استراتيجية الثوار هي شراء الزمان مقابل المكان؛ فخسارة الجغرافيا رغم مرارتها لكنها كانت خطوة تكتيكية لكسب المزيد من الزمن في عمر الثورة بانتظار الفرصة السانحة لتغيير المعادلة وتهيئة الفرصة لإعادة الكرة، والانتقال من الدفاع إلى الهجوم

(١) يراجع بحث: الهجرة حدثٌ غيّر مجرى التاريخ، للدكتور شوقي أبو خليل.
(٢) يراجع كتاب: قواعد العمل السياسي، للدكتور جاسم سلطان، مشروع النهضة، الكتاب رقم (٦).

اختيار اللحظة الفارقة لاتخاذ القرار:

لقد هيأ الله عز وجل اللحظة التاريخية المناسبة لاتخاذ القرار في وقته المناسب وفي ظروف جيواستراتيجية قل أن تتكرر وذلك على المستوى المحلي والإقليمي والدولي؛ فقد جاءت معركة التحرير بعد مقتل الرئيس الإيراني إبراهيم رئيسي بحادث طائرة يوم ٢٢ أيار / مايو ٢٠٢٤م، وبعد أن استنزفت إيران في سورية وهي تتعرض للضربات الإسرائيلية المؤلمة على مراكزها الأمنية واللوجستية، وكذلك خسرت فاعلية ذراعها في لبنان بعد أن خسر حزب الله اللبناني كل قياداته العسكرية والأمنية وزعميهم حسن نصر الله، ورفض العراق مؤازرة النظام السوري خوفًا من التعرض للاستهداف من قبل الولايات المتحدة. وعلى الصعيد الدولي فقد انشغلت روسيا التي كانت تؤمن الغطاء الجوي للميليشيات الإيرانية بحرب استنزاف طويلة في المستنقع الأوكراني بدأت في شهر شباط/ فبراير ٢٠٢٣م حتى الآن، وهو ما دفعها لسحب جزء كبير من قوتها من سورية حيث لم تعد سورية تشكل لها أولوية أمام التحديات التي تواجهها في شرق أوروبا، أما على الصعيد المحلي فقد غرق جيش النظام بالفساد والفقر والجوع والمؤامرات وتجارة المخدرات وسرقة أموال الشعب «التعفيش» وقيام رأس النظام وحاشيته بسحب أموال كثيرة إلى روسيا استشعارًا لخطر الهزيمة والانهيار، وهنا تجمعت كل الظروف المناسبة لقرار الحرب فكان هذا النصر المبين.

وهو ما يشبه تمامًا الظروف الإقليمية والدولية لبعثة الإسلام؛ فقد كانت الجزيرة العربية تعيش في حالة من الفوضى العارمة وقريش فقدت قدرتها القيادية في الجزيرة العربية، وعلى الصعيد الدولي كانت فارس والروم تخوضان حرب استنزاف امتدت قرابة ألفي عام حتى أنهكتهم الحرب وهو ما حدثنا عنه القرآن الكريم في سورة الروم: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٢-٥]، وكأن الله تعالى ربط نصر المسلمين بهذه الحرب التي أنهكت هاتين القوتين العظيمتين، فخرجت قوة المسلمين في حالة من الفتوة والبداوة فسحقت الإمبراطوريتين الشائختين في غضون أربعين سنة من بعثة النبي ﷺ.

تحييد الخصوم والاستفراد بالنظام:

في إدارة الصراع الاستراتيجية؛ لا ينبغي فتْحُ المعارك في كل الجبهات ومع كل الأعداء دفعة واحدة، لأن ذلك من شأنه أن يجمع الأعداء ضدك، ومن الأفضل دائمًا أن تهزمهم بالمفرّق وتحيّد الخصوم ما أمكن حتى تقتصد في القوة، لذلك لم يكن رسول الله ﷺ يقاتل على جبهتين معًا في وقت واحد، وكان يحرص دائمًا على تجنب الحرب ما أمكن، ويسعى لتحييد الخصوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وهو ما حرصت عليه إدارة العمليات العسكرية في حربها مع النظام السوري؛ حيث أرسلت الرسائل المطمئنة لدول الجوار بأن هذه المعركة لن تمتد خارج الحدود، كما طمأنت روسيا على مصالحها في سورية رغم الجرائم الروسية التي ارتكبتها في سورية ضد الشعب السوري ومناصرتها للنظام طول السنوات الماضية، وهو ما جعل روسيا تأخذ موقفًا متراخيًا في دعم النظام وشجع المجتمع الدولي لرفع الغطاء عن النظام والتسليم بسقوطه بدون أي محاولة لإنقاذه.

يتمثل هذا الموقف في سيرة رسول الله ﷺ عندما عَرَض ثُلُثَ ثمار المدينة على غَطَفَان مقابل أنْ تسحبَ جيوشها وترجعَ إلى بلادها، وتُخَذِّلَ بين الأحزاب المتحالفة ضد المسلمين.

إنَّ دفعَ المالِ للعدو مَفسدةٌ تلحق بالمسلمين، وهو مصلحةٌ للعدو يتقوى بها عليهم، ولكنَّه لا بد منه إنْ حَقَّقَ مصلحةً كبرى، أو أزاحَ عن المسلمين مفسدةً كبرى. وهذا ما ارتآه رسولُ الله ﷺ، فقد رأى أنَّ دفْعَ ثُلُثِ ثمار المدينة لغَطَفَان سيؤدي إلى مصلحةٍ كبيرةٍ تتمثل في فكّ حصارهم عن المدينة، وتخذيلهم للأحزاب المتحالفة، خاصةً أنه ليس باستطاعة المسلمين التصدي لهذه الأحزاب مجتمعةً، وقد طال أَمَدُ الحصار، وقد تجلى هذا المقصدُ في قوله ﷺ لكل من قائِدَيْ غَطَفَان: أرأيتَ إنْ جعلتُ لكم ثُلُثَ تمر المدينة، ترجعان بمَن معكم وتخذِّلان بين الأعراب؟[1].

(١) المغازي، للواقدي (٤٧٧/٢).

> **لا ينبغي فتْحُ المعارك في كل الجبهات ومع كل الأعداء دفعة واحدة، لأن ذلك من شأنه أن يجمع الأعداء، ومن الأفضل هزيمتهم بالمفرّق وتحيّد الخصوم ما أمكن، لذلك لم يكن رسول الله ﷺ يقاتل على جبهتين معًا في وقت واحد، وكان يحرص دائمًا على تجنّب الحرب ما أمكن، ويسعى لتحييد الخصوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً**

عنصر المفاجأة والمباغتة كان حاسمًا:

لقد كانت كل مراكز الدراسات والمتابعين ومراكز صنع القرار في الغرب والإقليم تستبعد تمامًا أن يقوم الثوار السوريون بمثل هذه العملية الجريئة وبفتح معركة على النظام بهذا الحجم والقوة؛ فبعد التدمير الإسرائيلي الساحق لغزة وارتكاب الفظاعات التي صمت عليها العالم، كان المجتمع الدولي والإقليمي يروج لرواية انتصار نظام الأسد وهزيمة الثورة، وبدأت الدول تطبع مع النظام وتفتتح سفاراتها في دمشق، حتى تركيا بدأت تنخرط بهذا المسار ويوشك أن يسدل الستار عن المشهد السوري بإعلان انتصار النظام، وهنا كانت عملية التحرير المفاجأة التي فاجأت ليس المحيط الإقليمي والدولي فحسب لكنها فاجأت الثوار أنفسهم بمدى هشاشة النظام وسرعة انهياره، بل فاجأت النظام نفسه الذي لم يكن يظن لوهلة أن الثوار يمكن أن يقدموا على مثل هذه الخطوة بسبب السرية التي أحاطت العمل وتضليل العدو بالمعلومات المتناقضة والتعمية على الهدف الحقيقي للعملية، وهو ما يعيدنا إلى تحوط النبي ﷺ بالسرية التامة في فتح مكة؛ فعندما نقضت قريشٌ الصلحَ الذي أبرمته مع النبيّ ﷺ في الحديبية عزم ﷺ على معاقبتها، وأمر أصحابه بالتجهّز للغزو، وأخفى وجهته حتى يفاجئ قريشًا، فيتحقق له النصر بأقل الخسائر، ودعا الله تعالى قائلاً: (اللهمَّ عمِّ عَليهم خَبَرَنا حتى نأخُذَهم بغتةً)[1]. فلم تستطع قريش تجميع قوتها للمقاومة وهو ما سهل الفتح وحقن الدماء وحفظ الأرحام من التقطيع وأدركت قريش عبثية القتال فرضيت بأخذ الأمان من رسول الله ﷺ.

الانتصار الأخلاقي بعد الانتصار العسكري:

لقد ضربت إدارة العمليات العسكرية أروع الأمثلة في التسامح والعفو عمن لم تتلطخ أيديهم بالدماء ولم يرتكبوا الجرائم بحق الآمنين والمدنيين

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٥٢).

حتى من جنود النظام، ولم يسجل أي اعتداء ممنهج ضد الكنائس أو أهل الكتاب أو الطوائف والقوميات، ولم يُعتدَ على أموالهم ولا أعراضهم ولا كنائسهم ولا نسائهم ولا أطفالهم باعتراف المنظمات الأممية لحقوق الإنسان، في مشهد جميل يعبر عن التزام صارم بوصية أبي بكر ﷺ عندما وقف يوصي الجيش فقال:

«يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا أو شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلةٍ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئًا فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقوامًا قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقًا، اندفعوا باسم الله»[1].

في المراحل الانتقالية التي تتلو مراحل الصراع العسكري لا بد للمنتصر من تحقيق السلم الأهلي وإغماد آلة الحرب، وهنا لا أفضل من إصدار العفو العام لتحقيق المصالحة الأهلية، من أجل استتباب الأمن والاستقرار والسلم الأهلي في الدولة ليعبر المجتمع من حالة الاحتراب إلى حالة الاستقرار، طبعًا هذا الأمر لا يشمل المتورطين بالجرائم ضد المدنيين العزل وضد الأسرى والمعتقلين والمعتدين على الأعراض.

ولما فتح الله مكة لرسوله ﷺ وللمسلمين قال النبي ﷺ: (من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن)[2]، إنه إعلان الأمن والسلام، فلم يعد هناك ثأر ولا دماء، كل الدماء في مكة معصومة إلا من كان في رقبته حق خاص.

إن تحقيق الفارق الأخلاقي بين الفاتحين وأعدائهم هو ما يجعل النصر مستدامًا وهو ما يجذر أفكار الفاتحين ورسالتهم في الأرض التي يدخلونها وحتى لو خرجوا منها ستبقى آثارهم وقيمهم راسخة فيها إلى الأبد، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

في المراحل الانتقالية التي تتلو مراحل الصراع العسكري لا بد للمنتصر من تحقيق السلم الأهلي وإغماد آلة الحرب، وهنا لا أفضل من إصدار العفو العام لتحقيق المصالحة الأهلية، من أجل استتباب الأمن والاستقرار والسلم الأهلي في الدولة ليعبر المجتمع من حالة الاحتراب إلى حالة الاستقرار، وهذا لا يشمل المتورطين بالجرائم ضد المدنيين العزل وضد الأسرى والمعتقلين والمعتدين على الأعراض

الخاتمة:

لقد كانت معركة التحرير نموذجًا راقيًا في الحروب الأخلاقية ضد نظام طاغية متجبر أفسد البلاد وأهلك العباد وصادر المستقبل وأعدم الحاضر وزور الماضي وأحال البلاد إلى تباب وخراب، لقد جاءت معركة تحرير سوريا كإجراء جراحي لا بد منه لاستئصال مادة الفساد والكتلة الخبيثة التي أتعبت الجسد السوري لقرابة ستة عقود من الزمن وافتتاح عصر جديد لبناء سورية بوجهها الحضاري المشرق.

لقد كانت عملية التحرير تعبيرًا حضاريًا وأخلاقيًا يعطي نموذجًا مختلفًا عن النظام الهارب الذي رسخ ثقافة استباحة الإنسان، واستبدالها بنموذج أخلاقي يمهد للتواضع على عقد اجتماعي وبناء سلم أهلي يحفظ مقاصد الشريعة ويرسي أسس المواطنة الصالحة على أساس الحرية والعدالة والمساواة مستلهمة من سيرة رسول الله ﷺ الدروس والعبر، ليس في الحرب والسلم فقط، وإنما في البناء والعمران والقيام بأعباء الاستخلاف.

(١) تاريخ الطبري (٢/٢٤٦).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

فلسطين قضية المسلمين بين التيه القائم واستحقاقات الوعد القادم

أ. مضر أبو الهيجاء (*)

تسلُّط المقالة الضوء على القضية الفلسطينية مستعرضةً مكانتها الدينية وأهميتها التاريخية كجزءٍ من أرض الشام المباركة وموطن المسجد الأقصى، كما تبرز طبيعة الاحتلال الصهيوني الذي يتجاوز كونه احتلالاً محليًا؛ ليصبح تهديدًا إقليميًا وعالميًا، وتؤكد المقالة على ضرورة الإعداد الشامل لمواجهة الاحتلال، مشددةً على دَور الأمة جمعاء في تحرير فلسطين، عبر توحيد الجهود وإعادة صياغة استراتيجية جهادية تتماشى مع السنن الكونية لتحقيق النصر المنشود.

كانت ولا تزال المسألة الفلسطينية من أهم المسائل التي تشغل الدنيا، وهي على رأس قضايا العرب والمسلمين، كما أنّها القضية الأشدّ تأثيرًا على دول المنطقة، والأكثر إشعاعًا وإلهامًا للشعوب ومشاريع التغيير والتحرير القائمة فيها منذ قرن وحتى الآن.

- فما الذي جعل ويجعل القضية الفلسطينية هي أمّ قضايا الأمّة وأولويتها الشاغلة؟
- وما المسارات المعاصرة التي حكمتها؟ وكيف تعامل القائمون عليها معها؟
- وما السبيل المفضي لإنهاء الاحتلال الجاثم عليها وإقامة الحقّ والعدل المنشود فيها؟

مميزات القضية الفلسطينية ومرتكزاتها الأساسية:

رغم كثرة قضايا ومآسي العرب والمسلمين إلا أنّ القضية الفلسطينية ظلّت على رأس قضاياهم الشاغلة، وموطن تفاعلهم الكبير أكثر من قضاياهم الوطنية والمحلية، وهي أكثر القضايا التي كتب عنها السياسيون والعلماء في قضايا الشأن العام، والقضية التي احتلّت المساحة العريضة من منابر ومساجد المسلمين خلال القرن الحالي والمنصرم.

وليس عجبًا أن تحتلّ فلسطين تلك المكانة؛ فهي جزء لا يتجزّأ من أرض الشام المباركة، وهي حضن المسجد الأقصى، وموطن رحلتي الإسراء والمعراج،

(*) باحث وكاتب فلسطيني، مهتم بالشأن الإسلامي العام والشأن الفلسطيني الخاص.

ومحلّ إمامة النبي محمد ﷺ بجميع الأنبياء والمرسلين، وعلى تلك المعاني الجليلة تشهد سِيَرُ وقبور خير الخلق بعد رسول الله ﷺ من الصحابة المعدّلين بنصّ القرآن الكريم، والذين وعوا قيمتها وأهميتها ودلالاتها الدينية وتأثيراتها السياسية؛ فهاجروا ليستقرّوا في أرض الشام ويُدفنوا في محيط أقصاها المبارك.

لقد اجتمعت في المسألة الفلسطينية ثلاث مميزات فريدة ومرتكزات أساسية جعلتها متقدّمة على غيرها في وجوب التناول ودقّة التعامل، وهي:

أولاً: المسجد الأقصى المبارك:

الذي جعله الله قبلة المسلمين الأولى ليصبح جزءًا من عقيدة المسلمين، يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، كما جاء عن النبي ﷺ قوله: (أُتيت بالبراق، وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرْفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين) إلى نهاية الحديث الطويل الذي رواه مسلم[١].

إنّ رحلة معراج رسول الله ﷺ إلى السماء ولقاء ربه جلّ جلاله كان يمكن أن تحدث من مكة مباشرة، ولكن قضى الله أن تُسبق برحلة الإسراء إلى الأقصى المبارك، وفي ذلك رسالة ربّانية نبّهت الصحابة الكرام إلى أهمّية المسجد الأقصى؛ الأمر الذي جعلهم يسألون عنه، فعن أبي ذر الغفاري قال: قلتُ: (يا رسولَ اللهِ، أيُّ مسجدٍ وُضع في الأرضِ أولَ؟ قال: المسجدُ الحرامُ. قال: قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: المسجدُ الأقصى. قلتُ: كم كان بينهما؟ قال: أربعونَ سنةً)[٢]. وقد بقي عقل وقلب الصحابي الجليل أبي ذر معلّقًا بالمسجد الأقصى حتى شارك في جيش الفتح سنة ١٥ هجرية، فشدّ الرحال إليه عملاً بوصيّة رسول الله ﷺ ليتعبّد الله فيه ويسكن عنده.

ثانيًا: بركة الأرض:

اختصّ الله عموم أرض الشام وخصوص المحيط الجغرافي للمسجد الأقصى المبارك بالبركة دون جغرافيا الدنيا بأسرها؛ لذا فإنّ النبيّ ﷺ عندما استشاره حذيفة بن اليمان ومعاذ بن جبل في البلد التي يسكنونها فأومأ إلى الشَّام، ثمَّ سألاه فأومأ إلى الشَّام، ثمّ قال: (عليكم بالشام، فإنها صفوةُ بلادِ اللهِ يُسكِنُها خيرتَه من خلقِه، فمَن أبَى فليلحَقْ بيمنِه، وليسْقِ من غُدَرِه، فإن اللهَ تكفَّل لي بالشامِ وأهلِه)[٣].

وقد زاد الله سبحانه وتعالى بركتها بأن جعلها بركة للعالمين، ولم يقصر بركتها على أهلها وساكنيها فحسب، قال سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

كما جعل مِن أشكال بركتها: وجود طائفة منصورة تقاتل على أمر الله فيها، قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس)[٤]، وأمّا الزيادة المذكورة في الحديث وهي (قالوا: يا رسولَ اللهِ، وأين هم؟ قال: ببَيتِ المَقدِسِ وأكنافِ بَيتِ المَقدِسِ) فقد وردت في مسند الإمام أحمد[٥] وضعّفها عدد من أهل العلم، وعلى فرض صحّتها فالمقصود بها: أرض الشام عامّة، أو في بعض الأزمنة، كما سيكون ذلك في آخر الزمان. كما تزدادُ بركة الأرض في محيط الأقصى القريب واللصيق، وهو معنىً تشير إليه أحاديث كثيرة تجمع بين مسمّى أرض الشام والإشارة لبيت المقدس تحديدًا، والله أعلم.

ثالثًا: تقاطع المشروعين الصليبي والصهيوني:

إنّ المشروعين الصليبي والصهيوني معاديان للأمّة ودينها وهويتها الثقافية، ويتقاطع المشروعان في منطلقاتهما الدينية التي تستهدف رسالة الإسلام وعقائده بالإتلاف، وأهلَه بالاقتلاع، وديارَه بالسلب والاحتلال، كما يتشابه المشروعان بسعيهما للتموضع في الأرض المباركة الجاذبة، والتي تشير لوحدة منطلقهما الديني من حيث التاريخ والروايات والنبوءات الدينية المؤسسة على قدسية أرض المسجد الأقصى المبارك.

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/٥٨).
(٤) أخرجه مسلم (١٠٣٧).
(٥) من زيادات عبد الله بن أحمد على المسند (٢٢٣٢٠)، وفي الإسناد راوٍ مجهول.

إنّ عموم أرض فلسطين وخصوص القدس شكّلتا القاعدة المستهدفة للتموضع والتمركز من قِبَل المشروعين الصليبي والصهيوني كليهما، وذلك بغرض استهداف عموم البلاد الشامية والمصرية حيثُ الخزّان البشري والموارد العظيمة التي تُعين الاحتلال على تمكين مشروعه واستدامته عبر إخضاع شعوب المنطقة ودولها، فعندما سقطت القدس عام ١١٨٧م على أيدي الصليبيين، وعندما سقطت القدس في عام النكبة ١٩٤٨م واستكمل سقوطها في عام النكسة ١٩٦٧م على أيدي الصهاينة؛ لم يكن المقصود من احتلالها مجرّد سلب أرض فلسطين وحيازة خيراتها، بل إنّ التاريخ القديم في الحقبة الصليبية والتاريخ الحديث في حقبة الاحتلال الإسرائيلي يشهدانِ على أنّ كلا المشروعين انطلق من فلسطين مستهدفًا عموم البلاد الشامية والمصرية والعراقية والحجازية والمغاربية وغيرها، وذلك في مناحٍ عديدة سياسية وجغرافية وعسكرية واقتصادية وثقافية.

ومن اللافت أنّ هذه الميزات التي اجتمعت في المسألة الفلسطينية حتى جعلتها على رأس قضايا العرب والمسلمين؛ هي ذاتها التي تتشكّل منها مرتكزات العمل في مسار القضية الفلسطينية، وأوّلها: هويتها الدينية ودلالتها العقدية التي يشير لها الأقصى المبارك، وثانيها: بركة الأرض التي امتدت آثارها وتجاوزت أهلها وساكنيها لتشمل العالمين إنْ هم قاموا بواجبهم نحوها، وثالثها: المشروع الصهيوصليبي الذي تموضع على أرضها واحتلّها مستهدفًا هويّتها الثقافية وأمنها واقتصادها وعمرانها وتاريخها وإنسانها.

> **إنّ المشروعين الصليبي والصهيوني معاديان للأمّة ودينها وهويتها الثقافية، ويتقاطعان في منطلقاتهما الدينية التي تستهدف رسالة الإسلام وعقائده بالإتلاف، وأهلَه بالاقتلاع، وديارَه بالسلب والاحتلال، كما يتشابه المشروعان بسعيهما للتموضع في الأرض المباركة الجاذبة**

التيارات المعاصرة التي حكمت مسارات القضية الفلسطينية ورسمت واقعها الحالي:

منذ الاحتلال الإنجليزي لفلسطين بعد انفراط عقد دولة الخلافة التي كانت تدير أقاليم المنطقة العربية والإسلامية -ومنها إقليم الشام- وحتى يومنا هذا فقد مضى على الاحتلال الإنجليزي والإسرائيلي لفلسطين مائة عام؛ كانت فلسطين -كما عموم دول المنطقة الناشئة- تدور بين تيارين: وطني وإسلامي، يلتقيان في جوانب ويختلفان في جوانب، ويتناقضان في أخرى.

تشكّلت نواة التيار الوطني على يد الحاج أمين الحسيني المقدسي مفتي الديار الفلسطينية (١٨٩٥-١٩٧٤م)، كما تشكّلت نواة التيار الإسلامي على يد الشيخ عزّ الدين القسّام السوري (١٨٨٣-١٩٣٥م)، وقد قام الرجلان بجهد كبير زمن الانتداب البريطاني على أرض فلسطين زمن اتفاقية سايكس-بيكو الظالمة، والتي أنهت الإطار السياسي المعبّر عن الأمّة في جانب وحدتها السياسية، فلم يبق من مكوّن الأمّة الحضاري إلا العلم والعلماء كمعبرَيْن عن هوية الأمّة ووحدتها الثقافية.

ومن المفيد ذكره أنّ الحاج أمين الحسيني ولد في القدس ومات ودفن في بيروت بعد خوضه تاريخًا نضاليًا سياسيًا كبيرًا في دول المشرق والمغرب والغرب الأوروبي لصالح القضية الفلسطينية، بينما ولد الشيخ عزّ الدين القسّام في جبلة من أعمال مدينة اللاذقية واستشهد في أحراش يعبد في جنين وهو يقاتل الإنجليز وخلفه مجاهدو فلسطين، وكان القسّام قد أسس جمعية الشبان المسلمين في حيفا في عشرينيات القرن العشرين بهدف تعميق القيم الإسلامية ومقاتلة الإنجليز، وجعل منها وسيلة تنظيمية لتأطير الشباب في مواجهة الاحتلال.

من الملاحظ أنّ المسألة الفلسطينية كانت في بداياتها غير محصورة على العقول والسواعد الفلسطينية، ومما يروى آنذاك أنّ إمام المسجد الأقصى طاهر الحسيني -وهو والد الحاج أمين الحسيني- طالب بضمّ أرض فلسطين إلى سورية الكبرى في زمن الانتداب البريطاني؛ إيمانًا منه بأنّ إقليم الشام وحدة لا تتجزأ، وأنّ مجموع دوله وأراضيه تشكّل موطن الأرض المباركة، الأمر الذي

لم توافق عليه الحكومة السورية التي كانت في بدايات نشوئها وتشكّلها.

ولقد شهد التياران الوطني والإسلامي في فلسطين تطوّرات كثيرة ومنعرجات مهمّة على المستويين التنظيري والسياسي، وما بني عليهما من أعمال قتالية وجهادية في حقب وجغرافيا متفرّقة، إلى أن تبلور وانتهى التيار الوطني بمدرسة حركة فتح -وعميدها ياسر عرفات- وذلك رغم اختلافها في جوانب عدّة عن تجربة الحاج أمين الحسيني وإن كانت امتدادًا لها، كما تبلور التيار الإسلامي في مدرستي حركة الجهاد وحركة حماس -وعميداهما الشيخان أحمد ياسين وفتحي الشقاقي رحمها الله- وذلك رغم اختلافهما عن تجربة الشيخ عزّ الدين القسّام في عدة جوانب وإن كانتا امتدادًا لها.

ليس المقام هنا لبحث أشكال التطوّرات التي حدثت في التيارين الوطني والإسلامي في فلسطين رغم أهمية ذلك لفرز جوانب الصواب من الخطأ، وفهم أسباب التحوّلات في التجربتين والاتجاهين، لكنّ المقام هنا لطرح سؤال الوقت وهو: كيف تعامل التيار الوطني والتيار الإسلامي مع القضية الفلسطينية وما المسار الذي خطّه كلّ منهما؟

إنّ الجواب الدقيق الذي سيشير إلى المسارات التي جسّدتها التجربتان يعتبر ترجمةً لشكل تعامل كلّ منهما مع المرتكزات الثلاثة في المسألة الفلسطينية والتي تم عرضها فيما تقدّم من المقال.

> **كانت المسألة الفلسطينية في بداياتها غير محصورة على العقول والسواعد الفلسطينية، لا سيّما أن تشكّل الدول الوطنية كان حديث العهد، فقد كان القسام (مواليد اللاذقية) من مؤسسي الجهاد في فلسطين ويروى أنّ إمام المسجد الأقصى طاهر الحسيني طالب بضمّ أرض فلسطين إلى سورية الكبرى في زمن الانتداب البريطاني؛ إيمانًا منه بأنّ إقليم الشام وحدة لا تتجزأ، وأنّ مجموع دوله وأراضيه تشكّل موطن الأرض المباركة**

التيار الوطني والإسلامي الفلسطيني.. سويّة البدايات وتيه النهايات أمر تقرّره مسطرة المرتكزات:

أولاً: التيّار الوطني:

كان الحاج أمين الحسيني مفتيًا للقدس والديار الفلسطينية زمن الحرب العالمية الثانية، كما كان والده الحاج طاهر الحسيني أحد أئمة المسجد الأقصى المبارك، ورغم ذلك فإنّ تجربة ياسر عرفات -الذي أسّس ورفاق دربه أكبر حركات التحرّر الفلسطيني الوطني- رفضت منذ التأسيس اعتبار المرجعية الإسلامية في العمل السياسي والقتالي، متبنّيةً المنهج العلماني الذي يحصر دور الدين في المسجد والعبادات الفردية وقضايا المجتمع العامّة، ولا يعترف بسلطة الدين وأحكامه على الممارسات السياسية والقتالية، وعليه فقد غاب مفهوم الحلال والحرام والجائز والمنكر في مشروع الوطني سياسيًا منذ لحظة تبلوره المعاصر، وهو بهذا يكون قد ناقض أولى المرتكزات في القضية الفلسطينية والتي تعكس عقائديتها، ويشير إليها المسجد الأقصى المبارك وما يتعلّق به كما تقدّم ذكره.

كما انطلقت حركة فتح وعموم حركات التيار الوطني الفلسطيني من مفهوم مركزية القضية الفلسطينية، وهو ما يتصادم مع مركزية الأمّة والدين، وقد أخذ هذا المفهوم عن القومية العربية والتي حكمت دول المنطقة نصف قرن، فجعلت هذه الحركات قضيةَ فلسطين هي القضية المركزية الوحيدة التي تهتمّ بها، قاصرةً قراءتها لكلّ خطواتها وتحالفاتها السياسية انطلاقًا من ذلك واعتبار انعكاسات أيّ خطوة عليها دون النظر لقضايا الأمّة الأخرى بالمسؤولية والاعتبار والأهمية نفسها، ولعلّ مواقف حركة فتح وعموم القيادات الفلسطينية تشير إلى هذا الخلل، وفي هذا الصدد يمكن فهم موقف ياسر عرفات في تأييده لصدام حسين في خطوة اجتياح الكويت من منطلق عقيدته السياسية القائمة على مركزية القضية الفلسطينية ومصالحها، كما يمكن فهم خطوة ياسر عرفات ومحمود عبّاس بعقد اتفاق أوسلو مع الإسرائيليين كاجتهاد ينطلق من تصوّر موهوم لخدمة القضية الفلسطينية وشعبها ضمن ظروف الواقع والمحيط والتوازنات آنذاك، وليس انطلاقًا من رغبة بالخيانة كما يصوّرها البعض فيضعف بذلك النظر الواجب لحجم وعمق الخلل.

إنّ مفهوم مركزية القضية الفلسطينية قد وقع -في واقع الحال دون المقال- بإنكار دلالات وانعكاسات المشروع الصهيوني على عموم المنطقة وشعوبها ودولها، وهو ما شكّل الأرضية الخصبة لاتفاق أوسلو كحلّ مناسب ظرفيًا للحالة الفلسطينية من منطلق الرؤية المركزية، وهو اجتهاد ضالّ شرعن في منهجه حالةَ التطبيع العربي الرسمي مع إسرائيل

إنّ السلوك السياسي الذي سلكه ياسر عرفات وصبغ به التيار الوطني الفلسطيني يتصادم مع المرتكزات المعتبرة في القضية الفلسطينية، فلا هو توقّف عند مفهوم الحلال والحرام في البعد السياسي انطلاقًا من رفضه المرجعية الإسلامية في الأعمال السياسية، ولا هو اعتبر قيمة بركة الأرض والتي تعود على العالمين ولا تنحصر بساكنيها، ولا هو بنى خطّته بناء على طبيعة المشروع الصهيوني الذي جاء مستهدفًا عموم المنطقة وشعوبها، حتى باتت القضية الفلسطينية قضية الفلسطينيين وحدهم، فهم المقرّرون والمتصرّفون دون سواهم، الأمر الذي انعكس غيابًا مطّردًا للفاعلية الحقيقية للعرب والمسلمين نتيجة عدم وجود تصوّر وخطة لإشراكهم في الأعمال السياسية والقتالية من حيث التفكير والتنظير والسلوك، وذلك بالأصالة عن أنفسهم جنبًا إلى جنب مع الفلسطينيين.

إنّ مفهوم مركزية القضية الفلسطينية قد وقع -في واقع الحال دون المقال- بإنكار دلالات وانعكاسات المشروع الصهيوني -الذي يحتلّ أرض فلسطين- على عموم المنطقة وشعوبها ودولها، وهو ما شكّل الأرضية الخصبة لاتفاق أوسلو كحلّ مناسب ظرفيًا للحالة الفلسطينية من منطلق الرؤية المركزية، وهو اجتهاد ضالّ شرعن في منهجه حالةَ التطبيع العربي الرسمي مع إسرائيل.

كما ناقض مفهوم القضية المركزية معنى بركة الأرض ودلالاتها الشرعية في جانبين، أولهما: حين غفل عن مفهوم البركة والنّماء، وغاب عن خياراته السياسية قيمة ودلالات بركة الأرض للعالمين كما نصّ عليها قول ووصف ربّنا في القرآن الكريم، وثانيهما: أنّه خالفها ونقضها عمليًا حين قدّم ياسر عرفات في اتفاق أوسلو تنازلات عن ٧٩٪ من أرض فلسطين التاريخية، والتي هي جزء من الأرض التي بارك الله فيها للعالمين أرض الشآم، ولم يقصر بركتها -وبالتالي حرية التصرّف بها- على الفلسطينيين، لا سيّما وهي في غالبها أرض وقف إسلامية بإجماع المسلمين.

التيار الإسلامي:

بدأ التيّار الإسلامي محاولاته الأولى باتجاه تصويب المسار الفلسطيني الوطني ومعالجة أخطائه، وكان أوّل هذه المحاولات اعتباره للمرجعية الإسلامية وأحكام الدين في سياساته وخططه وأحلافه، عداك عن نظرياته وتنظيره وتصوّراته التي تؤمن بمركزية الدين ومفهوم الأمّة ودورها في تحرير فلسطين، وهو في ذلك قد أصاب؛ الأمر الذي جعله يحوز على تأييد منقطع النظير على مستوى الشعوب العربية والإسلامية، وعلى مستوى الداخل والخارج الفلسطيني، للدّرجة التي جعلت أبرز حركات التيار الإسلامي «حماس» ومؤسسيها الأوائل يتربّعون على عرش القضية ويأسرون مشاعر وعواطف وقلوب المسلمين -بمن فيهم الكثيرين من أنصار حركة فتح وأبناء التيار الوطني والقومي وحتى اليساري- حتى باتت كثيرٌ من أسماء مواليد العرب والمسلمين تتسمى بالياسين وعياش والرنتيسي وحماس والقسام تيمّنًا، فرحمهم الله أجمعين وأجزل لهم العطاء على ما قدّموا وبذلوا، وجمعنا بهم في جنات النعيم مع النبيين والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

لكن ما إن بدأت حركة المقاومة الإسلامية حماس تعمل في الساحة الفلسطينية وتعيد تصحيح التصوّرات القاصرة التي سمحت للتيار الوطني باجتهاداته الخاطئة، حتى دخلت في متاهات ثلاث مدفوعة بالوصول للسلطة والعلاقة مع الدول، وهي:

أولاً: قبولها باتفاق أوسلو في واقع الحال رغم رفضه بالمقال، وذلك من خلال مشاركتها بالعملية السياسية في ظلّ المحتل، حيث شاركت في الانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٦ على أرضية اتفاق أوسلو وفي ظلّ المحتلّ الذي يمسك بأطراف العملية السياسية يضيقها ويوسعها ويجيزها كما ينهيها، الأمر الذي جمع بين الشيء ونقيضه في سياسات الحركة ومواقفها، فمن جهة تعتبر حركة حماس حركة مقاومة تحررية تمارس سلوكًا قتاليًا يستهدف التحرير من خلال وسيلة الجهاد

الشرعي، ومن جهة أخرى تقف على أرضية اتفاق أوسلو مع الإسرائيليين المحتلّين لبلادها وتستلم سلطة سياسية في غزة برضا الأمريكان وقبول إسرائيل، متجاوزة لتلك الحقائق غافلة عن مقاصد العدو في منح حماس حق المشاركة بالانتخابات التشريعية –حتى في القدس– لأجل إغراقها في السياسات التي يمسك المحتل بكل أطرافها ولأجل تمزيق القضية الفلسطينية من الناحية السياسية والمجتمعية.

ثانيًا: الحسم العسكري في غزة والانقسام الفلسطيني الذي دفع إليه دحلان وقواته، واستكملته حركة حماس باستئثارها بالسلطة السياسية في غزة عام ٢٠٠٧، علمًا أنّ الحسم العسكري كان يدور خلال أسبوع كامل من القتال في شوارع غزة وعلى مقربة من المعابر الإسرائيلية وتحت أنظار المحتلّ الذي كان يشاهد ويراقب حركة السلاح والحسم ولم يطلق رصاصة! ومع تجذّر الانقسام السياسي فقد تمّ تقسيم الشعب الفلسطيني ظلمًا إلى ملائكة وشياطين، وذلك بحسب لون الرايات الخضراء والصفراء والسوداء والحمراء!

ثالثًا: الحلف السياسي مع العدوّ الإيراني، والذي أسس لمشروع «وحدة الساحات» مع الأذرع الإيرانية في دول المنطقة، مما استدعى عودة حركة حماس لنظام بشار الأسد واعتباره ركيزة في مشروع تحرير الأقصى وكلّ فلسطين، جنبًا إلى جنب مع الوليّ الفقيه الإيراني وأذرعه الخاضعة له في الساحات الخمس!

كيف يجوز أن تتبنّى حركة إسلامية مشروعًا إسلاميًا للتغيير والتحرير وإقامة العدل، معلنة انتماءها وامتدادها نحو شعوب الأمة العربية والإسلامية، باعتبار الوحدة الثقافية والهوية الدينية المشتركة، وباعتبار أنّ مخاطر المشروع الصهيوني واقعٌ على مجموع الأمّة ومستهدفٌ لجميع مكوّناتها، ثم هي في الآن نفسه تتحالف مع أخطر المشاريع التي تستهدف شعوب الأمّة ودولها ودينها وهويتها الثقافية بكل مفرداتها، وذلك انطلاقًا من مصلحة قطرية محلّية جهوية تتناقض بالكلّية مع مصالح كلّ شعوب الأمّة التي تدّعي الانحياز لها واعتبار مكانتها في مشروع التحرير؟ وهل هي بسياساتها وتحالفاتها التي لا تزال قائمة مع العدوّ قد قدّمت مصلحة عموم الأمّة ورعت مقصد حفظ الدين، أم اختلّ ميزانها، دون توقّف ولا مراجعة من أحدٍ من كبارها أو مشايخها أو روابط علمائها المتنفّذة؟

كما أنّ القرار الذي اتخذته القيادة السياسية بأغلبية ساحقة –سوى الشيخ خالد مشعل وبعض رفاقه– للعودة والحلف والتعاون مع النّظام السوري الطائفي ممثّلاً ببشار الأسد، لم يكن ليحصل كاجتهاد خاطئ وشاذّ إلا على أرضية تصوّرٍ فاسدٍ لمشروع التحرير باتَ معتمدًا ومعتبرًا لدى الحركة بسياسييها وقادتها العسكريين الذين أكّدوا مرّة تلو مرّة على هذا الحلف والاعتزاز به، وأعطوه أوصافًا وترويجًا لا يعبّر بالمطلق عن منطلق الضرورة الشرعية وضوابطها المعروفة.

إنّ حماس عندما امتشقت السلاح وشقّت طريق الجهاد بأشكال متطوّرة ابتداء من نشأتها في بدايات انتفاضة الحجارة عام ١٩٨٧م ومرورًا بكلّ الانتفاضات والمعارك؛ حقّقت تحوّلاً نوعيًّا باتجاه تصحيح المسار الفلسطيني الوطني الذي ضلّ البوصلة، وما إن ارتبطت بإيران، ودخلت المعترك السياسي وحصلت الفرقة –التي وصلت للنزاع العسكري– بينها وبين فتح؛ حتى وقعت في تيهٍ جديد، وانحرفت خيارات قيادة حماس كما انحرفت قيادات حركة فتح وضلّتا طريقهما سياسيًّا، وما ذلك إلا بسبب استبدال مفهوم السلطة بمشروع التحرير، ورغم تلك التحوّلات فقد حافظت حركة حماس على نشاطاتها الأساسية كالدعوة والإصلاح والإعداد للجهاد قائمة بفضل جهود الدعاة الصادقين وتماهيًا مع النسيج الشعبي الفلسطيني الذي كان دومًا متعطّشًا للدين.

السبيل المفضي لإنهاء الاحتلال الجاثم على الأرض المباركة وإقامة الحق والعدل المنشود فيها:

لقد بُذلت تضحيات عظيمة لا يستهان بها لأجل استرداد أقصى المسلمين وتحرير فلسطين، وهي تضحيات ليس من العدل قصرها على الفلسطينيين، وليس من الإنصاف تحديد زمانها في حقبة حماس ولا غيرها؛ فالتاريخ وتجاربه تشهد. ورغم كلّ تلك التضحيات إلّا أنّ القضية الفلسطينية تتراجع للوراء حيث العدو يتمدد للأمام، فما هي الأسباب وكيف السبيل لإنقاذها؟

من نافلة القول أنّ المسلم ينطلق في تحدّيه لأشكال الباطل من إيمانه بالله، ذلك الإيمان الذي تجتمع فيه ثلاثة عناصر هي: عالم الغيب وعالم الشهادة والوعي المرتبط بهما، وكما أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ومحرّكه هو الإيمان بعالم الغيب، فإنّ كمال الإيمان يحدّده مستوى الوعي بعالم الشهادة وتغيراته وتطوراته الدائمة، ويشهد على ذلك حديث رسول الله ﷺ: (لا يلدغ المؤمن من جحر واحدٍ مرتين)[1].

إنّ حالتي المدّ والجزر المرتبطتين بالمسألة الفلسطينية هما انعكاس لواقع الأمّة عمومًا، ففلسطين ليست مبتورة عن امتدادها الجغرافي والسياسي الطبيعي، كما أنّ الأخوّة العقائدية تجعلها في موقف واحد وواجب تجاه التحدّيات القائمة والمحيطة بفلسطين.

وإذا كنّا نؤمن بأنّ الله سبحانه وتعالى مدبر هذا الكون وشؤونه ولا يعجزه شيء، فإنّ الله قد بيّن لنا أنّ سننه سبحانه وتعالى لا مبدّل لها، وتخضع لها كلّ التجارب البشرية بما فيها تجارب الأنبياء والرسل والمصلحين، الأمر الذي يوجب علينا الإعداد بشكله الواجب والصحيح ليتحقّق وعد الله بالنصر الأكيد.

> **إنّ حالتي المدّ والجزر المرتبطتين بالمسألة الفلسطينية هما انعكاس لواقع الأمّة عمومًا، ففلسطين ليست مبتورة عن امتدادها الجغرافي والسياسي الطبيعي، كما أنّ الأخوّة العقائدية تجعلها في موقف واحد وواجب تجاه التحدّيات القائمة والمحيطة بفلسطين**

الإعداد الواجب للقيام بفريضة جهاد المحتلّين:

يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وإنّ الضابط لهذا الإعداد أمران: أولهما مراعاة طبيعة القضية من حيث ماهيّتها وكلّ ما يميّز مشاريع الخصوم المعتدين، وثانيهما مراعاة تطورات واقع الدنيا من حيث وسائل القوة والأدوات.

وإذا كان احتلال فلسطين ليس كأي احتلال، بدليل أنّه حرب عقائدية تستهدف أقصى الموحّدين من جهة، ومن جهة ثانية يستهدف أرضًا مباركة تتعدّى بركتها للعالمين، ومن جهة ثالثة فإنّ هذا الاحتلال لم يأت ليستهدفها فحسب، ولكنّه اتخذ منها قاعدة عسكرية لاستهداف دول الأمّة اللصيقة بها والمحيطة والبعيدة، وهذا ما يظهر جليًّا من خلال تصريحات العدو تجاه المسجد الأقصى المبارك، سواء من الشخصيات الإسرائيلية أو الشخصيات المسيحية الإنجيلية المهووسة بمعركة هرمجدون واعتلاء أحد أبناء داوود عرش القدس، إضافة إلى الأثر العميق للحروب التي قامت بها إسرائيل على كلّ من مصر والعراق وسورية ولبنان وتركيا والسودان والخليج وتونس والمغرب والجزائر ومالي وغيرها من الدول العربية والإسلامية، وفي جميع المجالات: العسكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية والأمنية؛ فإذا كان احتلال فلسطين يتميّز بكلّ هذا فإنّ وعي ماهيّة وطبيعة مشاريع الخصوم وتحالفاتها وأهدافها شرطٌ في صياغة وبلورة شكل الإعداد الواجب، كما أنّ مواكبة وسائل القوة في كلّ عصر شرط في تحقيق الترهيب المقصود والمقترن بالإعداد.

لقد أخفقت جميع الحروب الفلسطينية الشاملة بتحقيق أهدافها، وذلك بسبب رئيس، متعلّق بخلل وقصور في معنى وشكل الإعداد الواجب، حيث أخطأ وقَصُرَ نظرُ وضَعُفَ تدبيرُ كلّ مَن تصوّر أنّ الإعداد الواجب في المسألة الفلسطينية متحقّق في حدودها الجغرافية ومحصور بالسواعد الفلسطينية!

إنّ أيّ إعداد لا يعكس دلالات ومميزات ومرتكزات القضية الفلسطينية الثلاثة يعتبر إعدادًا قاصرًا، فكما أنّ الكيان الإسرائيلي يستهدف الأرض والإنسان مدعومًا بشكل كامل من المنظومة العالمية الغربية، وكما أنّ الكيان الإسرائيلي يستهدف -انطلاقًا من أرض فلسطين- كاملَ المناطق والدول العربية والإسلامية؛ فإنّ الإعداد بمعناه ووصفه المطلوب الذي يرهب العدو ويردعه يجب أن يكون إعدادًا على مستوى الأمّة جميعها، وعلى وجه الخصوص: اللصيقة بفلسطين منها؛ حينها يمكن أن نسمّي هذا الشكل من الإعداد بالإعداد الشرعي الصحيح، والعقلي الصريح، ليكون مناسبًا لإطلاق معركة شاملة.

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٣) ومسلم (٢٩٩٨).

وإنّ أيّ إعداد فلسطيني للقيام بمعركة شاملة في وجه المشروع الإسرائيلي الغربي يكون محصورًا بأرض فلسطين وشعبها؛ فهو إعداد قاصر، ولا يكون معتبرًا عقلاً ولا شرعًا، ويُعدّ افتئاتًا على الأمة في قرار الحرب، وسببًا في هدر واستهلاك جزء مهمّ من رصيد الخير فيها، ودخولاً في معركة فاشلة محسومة الإخفاق في تحقيق أهدافها منذ لحظة انطلاقها، وسيكون بمثابة الثقب الأسود الذي يبتلع ما تبقّى من أرض فلسطين، وما ذلك إلا نتيجةً لتصوّر قاصر عند قيادات الجهاد والمقاومة حول مفهوم الإعداد وفق السنن الكونية المعتبرة لتوازنات القوى وماهية مشاريع الخصوم ووسائل القوّة المتاحة، ونتيجة لتصوّر فاسد –لدى القيادات السياسية والعسكرية النافذة– حين اعتقدت أنّ الإعداد الموجب للنصر هو من خلال الارتباط بحلف مع أشرس أعداء الأمّة والذي برهن على عدائه لها مِن خلال قتل المجاهدين في كلّ محيط فلسطين وتهجير مَن بقي منهم حيًّا، وإحباط مشاريعهم في الإعداد الواجب والذي بدى واضحًا في العراق ومصر والشام في حقبة الثورات الأخيرة!

إنّ حالة الهزائم والتراجع والتردّي الحاصلة في كامل فلسطين ابتداء من غزة مرورًا بالقدس وصولاً للضفّة وبلدات الخط الأخضر هي فتنة في الدين عند ضعفاء الإيمان، وضعف الإيمان هنا ليس محصورًا في ضعف في القلب بل وكذلك ضعف في العقل والوعي، ولذلك وجب التبيين للناس أنّ ما نشاهده ونعيشه من هزائم وقتل وتشريد وتجويع على أيدي مجرمي العصر من الصهاينة –الإسرائيليين منهم والأمريكان وغيرهم– هو نتيجة طبيعية وفق سنن الله؛ بسبب غياب الإعداد الصحيح الذي يشكّل منطلقَ الجهاد وقاعدته التي تسوّغه، وإنّ كلّ تغييب للتفسير الصحيح سيفتن الناس عن دينهم ويدفع بعضهم للشكّ وطرح السؤال التالي: هل تخلّى الله عنّا؟ ولماذا نُقتل ونُستشهد على الدوام ولا يتحقق النصر والوعد رغم كثرة تضحياتنا وروعة مجاهدينا وصبر آبائنا وأمهاتنا؟ علمًا بأن الجواب مبثوث في كتاب الله وأحاديث نبيّه ﷺ.

الخاتمة:

إنّ الجهاد الشامل الذي سيقتلع الكيان الصهيوني ويأخذ صورة الحرب الشاملة لن يكون إلا على مستوى شعوب المنطقة من العرب والمسلمين؛ الأمر الذي يتطلّب وعيًا وإعدادًا على مستوى شعوب المنطقة، وإدراكًا لخطط الخصوم ووسائل القوة والأدوات التي لديهم لتحقيق ما يردعهم ويرهبهم.

أمّا نحن في فلسطين فسيبقى الجهاد فرضًا عينيًّا علينا لا يسقط حتى يزول الاحتلال، وتتراجع المشاريع التي تستهدف عرقلة إقامة وتمكين الدين، ولكن جهادنا يجب أن ينضبط بدورين، أولهما: مقارعة المحتل وعرقلة توسّعه ضمن الممكن والمستطاع والمشروع، بحيث لا يهنأ بالأمن والاستقرار، وثانيهما: تحريض الأمّة على الجهاد ومدّ الجسور معها لاستكمال الإعداد على مستوىً يليق ويناسب المشروع الذي نواجهه، ونعدّ له المعركة الواجبة على مستوى شعوب المنطقة.

إن فلسطين –كما الكون كلّه– خاضع لله ولا يخرج عن تدبيره، وإن أولى وأكبر أمارات الإيمان بأن النصر من عند الله هو بالتزام أمره والانحياز لعباده واستكمال الإيمان به عبر رفع مستوى الوعي اللازم وفق سنن الله في التغيير، ولنا في قصة فتية أصحاب الكهف خير دلالة؛ فقد فهموا أنّ إيمانهم بالله ومفاصلتهم للباطل واعتزالهم الكفر بكلّ أشكاله وإيواؤهم للكهف لن يمنع إمكانية هلاكهم وفنائهم بالقتل، أو رجوعهم للكفر من شدّة التعذيب والتجويع والتشريد وبالتالي انتفاء فلاحهم؛ إن هم خالفوا تدبيرًا لازمًا في عالم الشهادة وفق سنن الله، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

سيبقى الجهاد فرضًا عينيًّا علينا في فلسطين لا يسقط حتى يزول الاحتلال، لكن جهادنا يجب أن ينضبط بدورين، أولهما: مقارعة المحتل وعرقلة توسّعه ضمن الممكن والمستطاع والمشروع، وثانيهما: تحريض الأمّة على الجهاد ومدّ الجسور معها لاستكمال الإعداد على مستوىً يليق ويناسب المشروع الذي نواجهه، ونعدّ له المعركة الواجبة على مستوى شعوب المنطقة

بين جرائم الصهيونية والمحور الإيراني: قراءة حقوقية

أ. نورس العبد الله (*)

ينطلق هذا المقال من منظور حقوقي عبر الاستناد إلى القانون الدولي العام لسبر أوجه الشبه في سلوكيات المشروعين الإيراني والصهيوني، بما يهدف لإزالة الالتباس حول السلوك الوحشي الإيراني وتوضيح الأسباب التي تجعل من الخطأ الترويج له أو التسامح معه بوصفه نكرانًا لحق الضحايا وذويهم في الإنصاف وإحياء الذاكرة والنضال من أجل العدالة بشتى السبل، بما يحفظ الذاكرة الحية للشعوب ويمنع من طي أو تنظيف سجلات المجرمين أيًا كانوا بسبب مقاربات سياسية تتجاهل تمامًا الارتكاز على مبادئ المشروعية.

تمهيد:

شهدت مواقع التواصل الاجتماعي مؤخرًا انعكاسًا للمواقف الشعبية والنخبوية على حد سواء على المنشورات والتفاعلات عبر طيف من الآراء والمواقف جراء كسر قواعد الاشتباك المعتادة -في السنوات الأخيرة على الأقل- بين المحور الإيراني والذي يتمثل بالحرس الثوري الإيراني والمليشيات العراقية وحزب الله اللبناني وجماعة الحوثي من جهة، وبين الكيان الصهيوني من جهة أخرى.

حيث ظهرت أصواتٌ عديدةٌ تنادي بالتضامن أو حتى وحدة الصف مع المحور الإيراني باعتباره يخوض مواجهةً «مشرِّفة» مع الكيان الصهيوني الذي يرتكب -وما يزال- أبشع الجرائم في غزة، وبأنَّ الوحدة الإسلامية ووحدة الشعوب في المنطقة على الأقل هي الكفيل بوقف الجرائم المستمرة والانتهاكات المروعة.

وعلى الرغم من أنَّ ظهور البعد العاطفي جراء الضغوط اليومية والمشاهد المؤلمة وحالة اليأس من الواقع المعاش وعجز أو تآمر «المجتمع الدولي» أمام الانتهاكات الصهيونية المستمرة للقيم الإنسانية يعد أمرًا مفهومًا من حيث المبدأ، إلا أن مزيدًا من التأمل والمراجعة لسلوك المحور الإيراني أصلاً في

(*) ماجستير في القانون العام، باحث سياسي وناشط في العمل المدني والمجتمعي.

المنطقة وتحديدًا في الدول الأربع التي امتلك نفوذًا واسعًا فيها وهي: العراق وسوريا ولبنان واليمن، وبالانطلاق من مبادئ حقوقية واضحة بمعزلٍ عن التكيُّفات السياسية، يمكن ضبط المنطلقات واستقراء المآلات وتحديد البوصلة؛ فالقراءة الحقوقية واستنادًا للقانون الدولي العام لسلوك كلٍ من الجانبين في المنطقة يسمح باختبار الفكرة السابقة التي تقوم في جوهرها على أساس الألم من وحشية الجرائم في غزة حاليًا ومن منطلق حُسن النية بالأمل في انتهاء الجرائم بحق الشعوب.

بناء على ما سبق يغدو التساؤلُ المهم: ما مدى التشابه أو الاختلاف في سلوك المحور الإيراني أو الصهيوني بحق الشعوب في المنطقة؟ وما هي دلالات ما تكشفهُ هذه المقارنة في مشروعية الدعوات للتضامن مع المحور الإيراني من منظورٍ حقوقي؟

الجرائم والانتهاكات الجسيمة في القانون الدولي العام، قراءة مفاهيمية موجزة:

مع تطور القانون الدولي منذ الحرب العالمية الأولى تشكَّل وتطوَّر تدريجيًا مفهوم الجريمة الدولية، والتي يقوم منطقُها الأساس على فكرة تحدي النظام القانوني الدولي أو التمرُّد عليه، من خلال مساس أفعالٍ معينةٍ بمصالح وقيم يكفُلُها القانون الدولي ويحرصُ على حمايتها ومُعاقبة مرتكبيها[١]، ورغم عدم وجود تعريفٍ واحدٍ لهذه الجرائم يمكن القول بأنها: هي كل سلوك ينتهك مصلحةً دوليةً محميةً بالقانون الدولي ويخالف الالتزام بقواعده وأحكامه، صادرٌ عن شخص من أشخاص القانون الدولي ومقرَّرٌ لها عقاب[٢].

وعلى العكس من القانون الداخلي فإنَّ القانون الدولي لا يتضمَّن قائمةً شاملةً ومحدَّدةً للجرائم الدولية وهو ما يرتبط بطبيعة القانون الدولي العام وتطوره ككل؛ حيث كانت القواعد والممارسات العرفية تمثل مصدره الأساس، ومن ثم بدأت عملية اعتماد قواعد مكتوبة عبر اتفاقات أو معاهدات أو غيرها من الصكوك الدولية[٣]، إلا أنه ومع ولادة النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية «نظام روما» عام ١٩٩٨م ودخولها حيز النفاذ عام ٢٠٠٢م[٤]، تم تحديد مجموعة من أشد الجرائم خطورةً، وهي ما يمكن تسميتها أيضًا بالانتهاكات الجسيمة للقانون الدولي بصريح المادة رقم ٥ من أحكامها، والتي تشتمل على أربعة جرائم رئيسية هي: جرائم الإبادة الجماعية، والجرائم ضد الإنسانية، وجرائم الحرب، وجريمة العدوان[٥].

بالتركيز على الجرائم الثلاث ذات الصلة بحالة المنطقة؛ فإنَّ الإبادة الجماعية تعني: أي فعل من الأفعال المحددة في الاتفاقية كإلحاق ضررٍ جسديٍّ أو عقليٍّ جسيمٍ بأفراد الجماعة... إلخ، وتُرتكب بقصد إهلاك جماعةٍ قوميةٍ أو إثنيةٍ أو عرقيةٍ أو دينيةٍ بصفتها هذه، إهلاكًا كليًا أو جزئيًا، في حين تشكل الجريمة ضد الإنسانية متى ارتكبت مجموعة أفعال كالقتل والنقل القسري والتعذيب... إلخ، في إطار هجومٍ واسع النطاق أو منهجيٍّ موجَّهٍ ضد أية مجموعةٍ من السكان المدنيين وعن علم بالهجوم، في حين يقصد بجرائم الحرب الانتهاكات الجسيمة لاتفاقيات جنيف المؤرخة ١٢ آب/أغسطس ١٩٤٩م[٦]، كالقتل وتدمير الممتلكات ولا سيما عندما ترتكب في إطار خطةٍ أو سياسةٍ عامةٍ أو في إطار عملية ارتكابٍ واسعة النطاق لهذه

(١) الجريمة الدولية، الموسوعة القانونية المتخصصة، لإبراهيم دراجي، المجلد الثالث، ص (٣٣).

(٢) تعريف ومفهوم الانتهاكات الجنائية الدولية، لبشرى العبيدي، ٢٠١٨/١/٥م.

(٣) يذكر أنه في عام ١٩٤٧م، قامت الجمعية العامة بتأسيس لجنة القانون الدولي، وذلك بهدف تعزيز التطوير التدريجي للقانون الدولي وتدوينه. ينظر: القانون الدولي والعدالة، الأمم المتحدة، الموقع الرسمي.

(٤) ينظر: نظام روما الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية.

(٥) ينظر: الباب الثاني - الاختصاص والمقبولية والقانون الواجب التطبيق: المـادة (٥) الجرائم التي تدخل في اختصاص المحكمة: يقتصر اختصاص المحكمة على أشد الجرائم خطورة موضع اهتمام المجتمع الدولي بأسره، وللمحكمة بموجب هذا النظام الأساسي اختصاص النظر في الجرائم التالية: أ) جريمة الإبادة الجماعية، ب) الجرائم ضد الإنسانية، ج) جرائم الحرب، د) جريمة العدوان. تمارس المحكمة الاختصاص على جريمة العدوان متى اعتمد حكمٌ بهذا الشأن وفقًا للمادتين ١٢١ و١٢٣ يعرِّف جريمة العدوان ويضع الشروط التي بموجبها تمارس المحكمة اختصاصها فيما يتعلق بهذه الجريمة، ويجب أن يكون هذا الحكم متسقًا مع الأحكام ذات الصلة من ميثاق الأمم المتحدة.

(٦) تشكل اتفاقيات جنيف الأربع لعام ١٩٤٩م جوهر القانون الدولي الإنساني والذي يعرف بأنَّه مجموعة من القواعد التي ترمي إلى الحد من آثار النزاعات المسلحة لدوافع إنسانية. ويحمي هذا القانون الأشخاص الذين لا يشتركون مباشرة أو بشكل فعال في الأعمال العدائية أو الذين كفوا عن المشاركة فيها مباشرة أو بشكل فعال، كما أنه يفرض قيودًا على وسائل الحرب وأساليبها. ويُعرَف القانون الدولي الإنساني أيضًا «بقانون الحرب» أو «قانون النزاعات المسلحة». ينظر: ما هو القانون الدولي الإنساني؟، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، الموقع الرسمي، ٢٠٢٢/٧/٥م.

الجرائم[١]، وبطبيعة الحال تقوم كل منها على أركان محددة[٢].

ومن الجدير ذكره أنَّ هذه الجرائم الدولية شديدةَ الخطورة تتَّصف بأنها جرائم لا تسقط بالتقادم، وفقًا للمادة الأولى من اتفاقيّة عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضدّ الإنسانية والتي تبنتها الأمم المتحدة عام ١٩٦٨م، وكذلك بموجب المادة ٢٩ من النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية[٣]، الأمر الذي يرتبط في أحد أبعاده بترسيخ حق الشعوب وواجبها بعدم النسيان عندما يتعلق الأمر بقضايا حقوقية كبرى، لأنها تمثل قضايا إنسانية لا يمكن تجاوزها[٤].

> **الجرائم الدولية شديدة الخطورة تتصف بأنها جرائم لا تسقط بالتقادم، وفقا للاتفاقيات الدولية، الأمر الذي يرتبط في أحد أبعاده في ترسيخ حق الشعوب وواجبها بعدم النسيان عندما يتعلق الأمر بقضايا حقوقية كبرى، لأنها تمثل قضايا إنسانية لا يمكن تجاوزها**

الممارسات العملية للمحور الإيراني والصهيوني بحق الشعوب من منظور الجرائم الأشد خطورة:

منذ عام ٢٠٠٣م على الأقل بدأت ملامح المحور الإيراني تتضح في المنطقة بعد أن أدى الغزو الأمريكي للعراق لفتح الباب على مصراعيه لتطور كبير في النفوذ الإيراني عبر أنموذج يمكن وصفه بـ «عسكرة السياسة الإيرانية» من خلال المليشيات الطائفية، ومع انطلاق ثورات الربيع العربي وانتقالها إلى سوريا واليمن؛ بدأ التوسع الكبير في النفوذ الإيراني ليصبح مشروعًا واضح المعالم في كل من العراق وسوريا واليمن ومن قبلهم لبنان، وارتُكبت في هذه الدول مجموعةٌ واسعةٌ من الجرائم لتحقيق مصالحها ومدِّ نفوذها، وعلى جانب آخر فقد نشأ الكيان الصهيوني على أساس الجريمة المنظَّمة من مرحلة المليشيات اليهودية كعصابات الهاغانا إلى مرحلة الجيش المنظَّم إلى جانب مليشيات المستوطنين.

وبُغية التحقُّق من مدى التشابه في سلوكيات كلا الطرفين يمكن لنا استقراء النهج المعتمد خلال سنوات طويلة عبر تتبُّع كلٍ من جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية بموجب القانون الدولي العام.

جرائم الحرب المرتكبة بحق الشعوب العربية، النهج الدائم أثناء النزاعات المسلحة:

يقصد بجرائم الحرب: الانتهاكات الجسيمة لاتفاقيات جنيف المؤرخة ١٢ آب / أغسطس ١٩٤٩م[٥]، وبشكلٍ عام فإن هذه الجرائم تُرتكب في حالات النزاع المسلح، سواء أكانت نزاعاتٍ دوليةً أو نزاعاتٍ غيرَ دولية[٦]، حيث تُرتكب في سياسة عامة واسعة النطاق للقضاء على الخصوم.

بالنظر إلى سلوكيات الكيان الصهيوني أثناء النزاعات المسلحة منذ إنشاء الكيان وصولاً لحرب غزة الحالية فقد ارتكب جميع الانتهاكات الجسمية، فعلى سبيل المثال وبالتركز على حرب غزة الأخيرة، تم ارتكاب مجازر يومية بحق المدنيين بما فيهم الأطفال والنساء، من آخرها مجزرة مخيم جباليا شمال القطاع في مدرسة أبو حسين التي تؤوي نازحين[٧]، كما ركز الكيان على تدمير

(١) للتوسع ينظر في المواد ٦-٧-٨ من نظام روما الأساسي.
(٢) للتوسع في أركان الجرائم ينظر: أركان الجرائم، المحكمة الجنائية الدولية، قسم الإعلام والتوثيق، ٢٠١١م.
(٣) ينظر: اتفاقية عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية، صكوك حقوق الإنسان، الأمم المتحدة، مكتب المفوض السامي.
(٤) للتوسع ينظر: مجموعة المبادئ المتعلقة بحماية حقوق الإنسان وتعزيزها من خلال اتخاذ إجراءات لمكافحة الإفلات من العقاب، الأمم المتحدة، مكتب المفوض السامي لحقوق الإنسان، ٢٠٠٥م.
(٥) ظهر مفهوم «جريمة الحرب» مع ظهور هذه المعاهدات، كمصطلح لوصف أخطرِ انتهاكات قوانين الحرب هذه. أرستْ محاكمُ نورمبرغ وطوكيو في أعقاب الحرب العالمية الثانية، قواعدَ هذه المحاكمات الدّوليّة لجرائم الحرب، وكذلك الأمر في تسعينات القرن العشرين مع المحاكم الدوليّة التي أقامتها الأمم المتحدة في يوغوسلافيا السّابقة ورواندا.
(٦) تنقسم النزاعات المسلحة إلى نوعين رئيسيين هما: النزاعات المسلحة الدولية (IAC) التي تحدث بين دولتين أو أكثر؛ والنزاعات المسلحة غير الدولية (NIAC) التي تحدث بين الدولة والجماعات المسلحة غير الحكومية أو بين الجماعات المسلحة فقط. للتوسع ينظر: تصنيف النزاع المسلح، مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة، الموقع الرسمي.
(٧) عشرات الشهداء والجرحى بمجزرة للاحتلال في جباليا، الجزيرة، ٢٠٢٤/١٠/١٧م.

الأعيان المحمية وفي مقدمتها المراكز الصحية[١] عبر استهدافها بشكل مباشر، أو إيقافها عن العمل بالقوة[٢] لزيادة معاناة المدنيين[٣]، واستهداف الأطقم المحمية كالصحفيين لمنعهم من نقل الحقيقة وتوثيق الجرائم[٤]، يضاف إلى ما سبق استخدام الأسلحة المحرمة دوليًا، والتدمير واسع النطاق للممتلكات[٥].

بالانتقال إلى سلوك المحور الإيراني وميليشياته أثناء النزاعات المسلحة، ومع تنوع أنماط جرائمها وامتدادها الواسع جغرافيًا يمكن استعراض عينة منها في سوريا واليمن تباعًا من خلال التركيز على المجازر، واستهداف الأطقم والأعيان المحميَّة وتدمير الممتلكات.

في سوريا ومع تحول الثورة السورية إلى النضال المسلح واشتعال المعارك في مختلف المناطق السورية ارتكبت مليشيات الحرس الثوري الإيراني ولفيف المليشيات التي تنطوي تحتها كحزب الله اللبناني والمليشيات العراقية والأفغانية... إلخ[٦]، مجموعة واسعة جدًا تشمل كل أصناف جرائم الحرب، على سبيل المثال: ارتكبت هذه الميليشيات مجازر جماعية ضخمة عبر القصف العشوائي كما حصل في القصير[٧]، واستهدفت مخيمات المهجرين بالصواريخ البالستية المحملة بقنابل عنقودية كما حصل في مجزرة مخيم قاح عام ٢٠١٩م[٨]، وركّز المحور الإيراني بالشراكة مع مليشيات الأسد والروس على تدمير المراكز الصحية

(١) جاء في بيان الاتحاد الدولي بشأن خروج مستشفى الأمل في غزة عن الخدمة: إن مستشفى الأمل، الذي يحمل شارة الهلال الأحمر بوضوح، محمي بموجب القانون الدولي الإنساني. وتمثل الشارة الحياد والمساعدة الإنسانية غير المتحيزة، وتعد بالحماية في أوقات النزاع والكوارث.

(٢) الهلال الأحمر: خروج جميع نقاطنا الطبية عن الخدمة بمدينة غزة، حسني نديم، وكالة الأناضول، ٢٠٢٤/٧/٩م.

(٣) وزارة الصحة الفلسطينية تعلن خروج أكثر من ٨٠ بالمئة من مستشفيات قطاع غزة عن الخدمة، وكالة الأنباء القطرية، ٢٠٢٤/٥/١٤م.

(٤) تتحول غزة منذ قرابة عام إلى مقبرة للصحفيين مع مقتل ما لا يقل عن ١٣٠ صحفي وصحفية. ينظر: غزة: مراسلون بلا حدود ترفع رابع شكوى خلال عام واحد أمام المحكمة الجنائية الدولية بشأن جرائم حرب ارتكبتها إسرائيل بحق الصحفيين في القطاع، مراسلون بلا حدود، ٢٠٢٤/٩/٢٤م.

(٥) ينظر على سبيل المثال: إسرائيل/الأرض الفلسطينية المحتلة: يجب التحقيق في ارتكاب الجيش الإسرائيلي جريمة الحرب المتمثلة في التدمير غير المبرر في قطاع غزة - تحقيق جديد، منظمة العفو الدولية، ٢٠٢٤/٩/٥م.

(٦) للتوسع ينظر: التقرير التمهيدي «مليشيات المشروع الإيراني في سوريا... التصنيف والتبعية وعوامل الحشد»، مركز الحوار السوري، ٢٠١٩/١١/١م، الورقة التحليلية «مليشيات المشروع الإيراني في سوريا... الأدوار ومجالات التأثير»، مركز الحوار السوري، ٢٠١٩/١١/٢٢م.

(٧) هيئة سورية معارضة: ٣٠ قتيلاً في مجزة لحزب الله بالقصير، وكالة الأناضول، ٢٠١٣/٥/٨م.

(٨) مجزرة مروعة ترتكبها الميليشيات الإيرانية في مخيم قاح، تلفزيون سوريا، ٢٠١٩/١١/٢٠م.

واستهداف كوادر الإنقاذ والإسعاف على مدار السنوات السابقة[١]، واستهداف واعتقال وتعذيب الصحفيين والإعلاميين وقتلهم بشتى الوسائل[٢]، وممارسة أشكال التعذيب في سجونها السرية في مختلف المناطق[٣].

على ذات المنوال في اليمن فقد ارتكبت جماعة الحوثي سلسلةً واسعةً من جرائم الحرب منذ انقلابها على السلطة الشرعية عام ٢٠١٤م واندلاع المعارك بين الطرفين، حيث اعتمدت سياسة الاستهداف العشوائي للمدنيين بما فيهم الأطفال كمجزرة حي الروضة في مدينة تعز[٤]، أو المجازر الجماعية خلال الاجتياحات كمجازر عدن عام ٢٠١٥م[٥]، كما مارست مليشيات الحوثي وبوسائل عديدة أعمالاً عدائيةً على القطاع الصحي اليمني مما أسهم في انهياره[٦]، وهو ما طال الكوادر الطبية حيث تعرض العشرات من الأطباء والمسعفين لعمليات إخفاء قسري وقتل[٧]، وعلى ذات النحو استهدفت جماعة الحوثي خلال معاركها ممتلكات المدنيين بشكل واسع عبر التخريب والنهب[٨].

> **في بعض المحطات التاريخية تواجه الشعوب محطات مفصلية وشديدة التعقيد معًا، ويغدو فيها المشهد حاملاً طيفًا من الأعداء، والذين قد يتواجهون مع بعضهم البعض سعيًا للتفرُّد في السيطرة وتغيير معادلات توازن القوى، كما قد يتحالفون بعد تلك المواجهات إذا ما نجحوا في فرض معادلات ترضي جميع الأطراف**

الجرائم ضد الإنسانية المرتكبة بحق الشعوب العربية، وسائل الإحلال الصهيوني، وتصدير الثورة الخمينية:

على خلاف جرائم الحرب التي لا ترتكب إلا في حالةٍ واقعيةٍ هي النزاع المسلح، فإنَّ الجرائم ضد الإنسانية قد تُرتكب أيضًا في غير هذه الحالات؛ ضمن استهداف واسع النطاق أو هجوم منهجي ضد المدنيين تأييدًا للدولة أو اتباع سياسة تنظيمية بارتكاب هذا الهجوم[٩]، وتشتمل بدورها على أفعال عديدة من أبرزها: التهجير القسري للسكان، الإخفاء القسري والتعذيب، الأفعال اللاإنسانية الأخرى: كالاضطهاد الشديد والإبادة عبر فرض ظروف تؤدي للهلاك.

بالنظر إلى سلوكيات الكيان الصهيوني، وبالتركيز على نمطين من الجرائم ضد الإنسانية وهما: التهجير القسري، وفرض ظروف الهلاك عبر الحصار والتجويع، فلا شك أن الكيان الصهيوني قام أصلاً على أساس اقتلاع أصحاب الأرض وإحلال مجاميع سكانية مكانهم، عبر المجازر والطرد والنقل القسري للسكان، إعمالاً للفلسفة الصهيونية التي تقول «فلسطين أرضٌ بلا شعب، سيقطنها شعبٌ بلا أرض»، والتي تُرجمت في سياسة استمرت في كل أنحاء فلسطين عبر المستوطنات والضغط على السكان للتخلي عن أراضيهم، وممارسة عمليات الفصل العنصري، فيما بدأ بممارسة أطوار جديدة من التهجير والحصار المفضي إلى الهلاك في غزة حاليًا، على سبيل المثال بعد تهجير السكان عشرات المرّات داخل غزة بذريعة الأعمال العسكرية، بدأت ملامح

(١) على سبيل المثال: تقدِّر منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان أن الحكومة السورية وحلفاءها مسؤولون عن ٩٠ بالمئة من الوفيات في الكوادر الصحية طوال النزاع، وأن ٩٢٣ عاملاً طبيًا قتل بين ٢٠١١ و٢٠٢١م. ينظر: استهداف الكوادر الطبية في سوريا، أطباء من أجل حقوق الإنسان، الموقع الرسمي.

(٢) في اليوم العالمي لحرية الصحافة: توثيق مقتل ٧١٧ من الصحفيين والعاملين في مجال الإعلام منذ آذار ٢٠١١م بينهم ٥٣ بسبب التعذيب على يد أطراف النزاع والقوى المسيطرة في سوريا، الشبكة السورية لحقوق الإنسان.

(٣) ينظر على سبيل المثال: تضم معتقلين مدنيين وقيادات وعناصر.. المرصد السوري يكشف خفايا سجون الميليشيات الإيرانية في دير الزور، المرصد السوري لحقوق الإنسان، ٢٠٢٣/١١/٢٧م.

(٤) مجزرة الحوثيين بحق أطفال تعز تثير غضب الحقوقيين والأحزاب اليمنية، الشرق الأوسط، ٢٠٢٢/٧/٢٤م.

(٥) تقرير حقوقي يوثق.. شهادات مروعة عن مجازر حوثية في ٢٠١٥، أوسان سالم، العربية، ٢٠١٩/١١/١٩م.

(٦) الحوثي يصادر المستشفيات ويدمر قطاع الصحة اليمني، أحمد شعبان، مركز الاتحاد للأخبار، ٢٠٢٣/٢/٢م.

(٧) ينظر على سبيل المثال: وفاة استشاري تحت التعذيب تُذّكر بجرائم الحوثي ضد الأطباء، العاصمة أون لاين، ٢٠٢٤/١/٣٠م، أكثر من ٤١٠٠ انتهاك حوثي في القطاع الصحي خلال ٤ سنوات، العربية، ٢٠٢١/٧/٢٥م، بسبب احتجاجهم ورفعهم الشارات الحمراء.. جريمة حوثية بحق ٦ أطباء وموظفين في أكبر مستشفيات العاصمة بصنعاء، الحكمة، ٢٠٢١/٣/٣١م.

(٨) تقرير يكشف الحقيقة.. الحوثيون يدمرون اليمن، الشبكة اليمنية للحقوق والحريات، ٢٠٢٢/٢/٢٢م.

(٩) في خصوصية الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب في نظام المحكمة الجنائية الدولية نظام روما، ترتيل درويش، المجلة الدولية للفقه والقضاء والتشريع، المجلد ٣، العدد ١، ٢٠٢٢، ص (٦٠).

الخطة الأكبر في تهجير السكان إلى سيناء قسرًا[١]، كما بدأت ممارسة خطة تسمى خطة «الجنرالات» عبر الحصار والتجويع ضد سكان شمال غزة بهدف تهجيرهم[٢]، فضلاً عن حالة الظروف التي وصلت لحد المجاعة في كل أنحاء غزة[٣].

بالانتقال إلى الجانب الإيراني ومليشياته ومع اعتماد إيران لمبدأ تصدير الثورة وتعميم نظرية الولي الفقيه[٤]، كان مشروعُها الرئيس يرتبط بالتغيير الديمغرافي والتمدد عبر الأدوات الناعمة كالإعلام والثقافة أو الأدوات الخشنة عبر الأعمال العسكرية، وبالتركيز على الأخيرة ارتكبت سلسلةٌ واسعةٌ من جرائم الحرب في العراق وسوريا واليمن.

ففي العراق وتحت أعين الاحتلال الأمريكي بدأت إيران عبر ميليشياتها الطائفية بحملات قتل وترهيب ممنهجة بلغت حدَّ الذبح بالسكاكين لأهل السنة في مناطق عراقية عديدة والتي أدت لتهجير مليوني سني عراقي بين عامي ٢٠٠٣م و٢٠٠٦م[٥]، لتنتشر فرق الموت الطائفية للقتل على الهوية على مدار السنوات التالية[٦]، ويتم استخدام أنماط متعددة تهدف لتحقيق تغيير ديمغرافي عبر إرهاب السنة في العراق عبر وسائل عديدة[٧]، واستغلالاً لأحداث مستجدة آخرها عمليات الحشد الشعبي ضد السنة في مرحلة محاربة تنظيم الدولة «داعش»[٨].

بالانتقال إلى سوريا لم تتخلَّف المليشيات الإيرانية عن تنفيذ مذابح كبرى بهدف فرض التهجير القسري كمقدمةٍ للتغيير الديموغرافي في سوريا، منها على سبيل المثال مذبحة داريا الكبرى عام ٢٠١٢، والتي أدت لمقتل ٧٠٠ مدني جلهم من الأطفال والنساء[٩]، ومجزرة القبير في ريف حماة عام ٢٠١٢م التي مورس فيها الذبح بدوافع طائفية، وراح ضحيتها ٥٦ مدنيًا غالبيتهم من الأطفال والنساء[١٠].

من جانب آخر عمدت المليشيات الإيرانية إلى ممارسة الحصار الشامل على مناطق عديدة في سوريا، وفرضت ظروفًا أدت لوقوع مجاعاتٍ ووفاة مدنيين بسبب نقص الإمدادات الأساسية، والتي انتهت عمليًا بنقل السكان قسريًا وإحلال مجموعات سكانية بديلة[١١]، ومن الجدير ذكره أنَّ عمليات التهجير القسري لم تتوقَّف بعد سيطرة المليشيات الإيرانية وانتهاء العمليات العسكرية حيث استمرَّت نهجًا رديفًا لعملية التشييع والتجنيد الاقتصادي وهو ما ظهر بوضوح في مناطق حيوية في شرق سوريا[١٢].

> **الملايين من ضحايا الحرس الثوري الإيراني ومليشياته وذويهم في العراق وسوريا واليمن ما يزالون يأملون العدالة والمساءلة واستعادة الأوطان السليبة وهم يناصرون قضيتهم الفلسطينية ومقاومتها الباسلة، ويرون أن سلسلة الانتهاكات تكبر، وأن المجرمين يزدادون جرأة في كل مكان في العالم**

(١) من ١٠ صفحات.. وثيقة إسرائيلية مسربة تكشف مخطط تل أبيب لتهجير سكان غزة إلى مصر، روسيا اليوم، ٢٠٢٤/٧/٣م.
(٢) ٤ منظمات إسرائيلية تحذر العالم من المشاركة بجريمة تهجير سكان شمال غزة، وكالة الأناضول، ٢٠٢٤/١٠/١٤م.
(٣) تقرير دولي: المجاعة وشيكة في شمال غزة وجميع السكان يواجهون أزمة جوع كارثية، الأمم المتحدة، ٢٠٢٤/٣/١٨م، خبراء من الأمم المتحدة يعلنون تفشّي المجاعة في جميع أنحاء قطاع غزة، الأمم المتحدة، ٢٠٠٤/٧/٩م.
(٤) مثّلت نظرية «تصدير الثورة» على الدوام مصدر احتكاك سلبي مع الجوار العربي بعد سعي إيران الخميني للوصول إلى قيادة العالم الإسلامي، من خلال تبنّيها نموذجها الخاص للتشيع السياسي عبر اعتمادها «الخطاب الثوري المظلومي»، ومحاولتها تقويض الأنظمة العربية التي تعارض الطموحات الإيرانية الإقليمية التوسعية. للتوسع ينظر: تصدير الثورة والتحولات في السياسة الإيرانية، تقرير تحليلي، مركز الحوار السوري، ٢٠٢١/١/١٠م.
(٥) ينظر على سبيل المثال: أُفول أهل السُّنَّة: التهجير الطائفي وميليشيات الموت وحياة المنفى بعد الغزو الأمريكي للعراق، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٩م.
(٦) التايمز: فرق الموت في بغداد تقتل على الهوية، عربي بي سي، تموز ٢٠١٥م.
(٧) تفريغ السكان: كيف توظف إيران استراتيجية الإرهاب لتغيير ديموغرافيا العراق؟، للدكتور فريد خان، مركز رع للدراسات الاستراتيجية، ٢٠٢١م.
(٨) نينوى العراقية.. تغيير ديموغرافي تقوده إيران عبر «الحشد»، إيران إنسايدر، ٢٠١٩م.
(٩) تقرير استقصائي يكشف تفاصيل مجزرة داريا منارة الحراك السلمي، الشرق الأوسط، ٢٠٢٢/٨/٢٥م.
(١٠) مجزرة القبير بريف حماة ٢٠١٢ التي ارتكبتها قوات الأسد والميليشيات الطائفية التابعة لها في ذكراها الحادية عشرة، اللجنة السورية لحقوق الإنسان، ٢٠٢٣/٦/٦م.
(١١) ينظر على سبيل المثال: حصار مضايا والزبداني والمعضمية ذروة الكارثة الإنسانية السورية، يوسف دياب، الشرق الأوسط، ٢٠١٦/١/٨م.
(١٢) الميليشيات التابعة لإيران تضغط لإخراج السكان من المنطقة الحدودية بين سوريا والعراق، سماح عبد الفتاح، الفاصل، ٢٠٢٤/٣/٧م.

نوع الجريمة المرتكبة	النمط	المحور الإيراني	الكيان الصهيوني
جرائم حرب	• القتل العشوائي • استهداف الأعيان المحمية • استهداف الأطقم المحمية • استخدام أسلحة محظورة • تدمير الممتلكات ونهبها	• آلاف الضحايا المدنيين جراء القصف والقتل المباشر • سياسة ممنهجة في سوريا واليمن عبر القصف أو الاعتقال كلما اقتضت الحاجة وخاصة في سوريا • الاستيلاء والنهب	• آلاف الضحايا المدنيين جراء القصف والقتل المباشر • سياسة ممنهجة عبر القصف باستمرار في غزة ولبنان • التدمير الواسع
الجرائم ضد الإنسانية	• التهجير القسري • الاضطهاد والظروف المفضية للهلاك	• مناطق السنة في العراق وسوريا • الحصار والتجويع في مدن عديدة في سوريا واليمن	• تاريخيًا كامل فلسطين • الممارسة الحالية في غزة والضفة • حصار غزة وخطة الجنرالات شمال غزة

جدول يقارن بين نماذج من الفظائع المرتكبة بحق الشعوب من قبل الجانبين الإيراني والصهيوني

خاتمة

في بعض المحطات التاريخية تواجه الشعوب محطات مفصلية وشديدة التعقيد معًا، ويغدو فيها المشهد حاملاً طيفًا من الأعداء، والذين قد يتواجهون مع بعضهم البعض سعيًا للتفرُّد في السيطرة وتغيير معادلات توازن القوى، كما قد يتحالفون بعد تلك المواجهات إذا ما نجحوا في فرض معادلات ترضي جميع الأطراف.

ومع التعقيدات الحالية في المنطقة ومواجهة شعوبها لمشروعين يسعيان ليكونا القوة المهيمنة والمسيطرة على المعادلات الأمنية والقرارات الاستراتيجية وعلى حاضر ومستقبل الشعوب، يمكن من المنظور السياسي التكتيكي الحديث بمرونة كبيرة عن تغير التحالفات والتموضع، إلا أن ذلك إذا ما جاء في مرحلة ما تزال فيها الأطراف تمارس شتى الجرائم، وبالطريقة التي تسعى لتبييض سجلات الماضي القريب والعبث بذاكرة الشعوب التي تمثل مداد حيويتها وأساس تغيير واقعها ورسم مستقبلها، فإنها تصبح في صدام مباشر مع الأخلاق من جهة والمنطق من جهة ثانية.

فليس من كفيلٍ قادرٍ على ضمان توقُّف جرائم المشروع الإيراني وميليشياته، ومن ثم عدم تكرارها بحق الشعوب، فيما إذا هرعت نفس الشعوب لدعمه في مواجهة العدو الآخر، بل لربما حملت هذه الدعوات في طياتها مزيدًا من الخطر بوصفها -حال تطبيقها- قادرة على التطبيع مع جرائم الإيراني التي نهلت من دماء أبنائها لمواجهة جرائم الكيان الأخرى، وفتح الباب على مصراعيه مع كل عدو لنسيان الانتهاكات الجسيمة التي ارتكبها.. هو ما لا يمكن مستقبلاً إنكاره -بنفس المنطق- على من يدعو لتحالف تكتيكي مع الصهيونية نفسها أمام خطر مستجد، وخاصة مع عطالة النظام الدولي، بل ازدواجية معاييره وتسامحه مع كل المجرمين والتصفيق لهم ودعمهم بدلاً من السعي لإعمال قواعد القانون الدولي.

لذلك فإن المقاربة الحقوقية التي تقوم على المطالبة باستمرار بمحاسبة المجرمين، وقبل ذلك توصيفهم بشكل دقيق، والاستمرار في تعريتهم، ومناصرة حقوق ضحاياهم، واستغلال كل منصة ومحطة في سبيل ذلك.. هو الكفيل بتحديد المواقف والآراء على أساس صلب وقواعد متينة.

ولا بد من القول ختامًا بأنه في الوقت الذي يرتكب الكيان الصهيوني عملية إبادة جماعية بحق سكان غزة بلغ عدد ضحاياه خلال السنة الأولى من الحرب على غزة: (٤٢,٤٣٨) شهيدًا و(٩٩,٢٤٦) مصابًا[1]، فإن ضحايا الحرس الثوري الإيراني ومليشياته وذويهم في العراق وسوريا واليمن -وهم بالملايين- ما يزالون يأملون العدالة والمساءلة واستعادة الأوطان السليبة وهم يناصرون قضيتهم الفلسطينية ومقاومتها الباسلة، ويرون أن سلسلة الانتهاكات تكبر، وأن المجرمين يزدادون جرأة في كل مكان في العالم مع استمرار طي الملفات الحقوقية بذرائع واقعية.

(١) صحة غزة: ارتفاع حصيلة الشهداء إلى ٤٢ ألفًا و٤٣٨ منذ أكتوبر ٢٠٢٣، وكالة الأناضول، ٢٠٢٤/١٠/١٧م.

قضايا معاصرة

كيف استثمرت إيران العلاقة مع الولايات المتحدة لضرب الحواضن السنيَّة؟

أ. عامر المثقال (*)

العلاقة بين إيران وأمريكا معقدة، وقد استثمرت إيران هذه العلاقة لتحقيق أهدافها التوسعية، خاصةً في ضرب الحواضن السنية، واستفادت من التغاضي الأمريكي في سوريا والعراق ولبنان واليمن وأفغانستان، لتكريس نفوذها، ممارسةً التهجير، والتغيير الديموغرافي، في المقابل، اتسمت السياسة الأمريكية بالبراغماتية، مما ساهم في تقويض الاستقرار السني، ورغم ذلك، يظل المشروع الإيراني هشًا، كما أثبت نجاح الثورة السورية في إسقاط النظام الطائفي.

مقدمة:

تُعدّ العلاقة بين إيران وأمريكا من العلاقات التي يمكن أن تُوصَف بالمعقدة والمتشابكة؛ نظرًا لما شهدته من التفاعلات المتباينة منذ «ثورة الخميني» في العام ١٩٧٩م، لا سيما مع حالة «العداء» المُعلن والاختلافات السياسية بين الجانبين، وما نجم عنها من تشابكات في كثير من الملفات الإقليمية والدولية.

ولكن رغم هذه العلاقة التي يطغى عليها كثيرًا «الاشتباك» السياسي، وبدرجة أقل كثيرًا «العسكري»[1]؛ فإن إيران تمكنت من استثمار بعض مراحل هذه العلاقة لصالح مشروعها الإقليمي التوسُّعي الذي يُشكل هدفًا استراتيجيًا قام عليه نظام الخميني فيما يُعرَف ب «تصدير الثورة»، إذ عملت إيران على توجيه ضربات مُؤلمة

(*) باحث مساعد في مركز الحوار السوري.

(١) كانت هناك بعض الجوانب التي كان فيها صدام عسكري غير مباشر بين الطرفين، منها مثلاً في يناير عام ٢٠٢٠م اغتالت أمريكا قائد فيلق القدس بالحرس الثوري الإيراني قاسم سليماني بضربة على مطار بغداد، ومن قبل أيضًا كانت هناك عملية الإنزال على السفارة الأمريكية في إيران (١٩٨٠م) وهي العملية المعروفة باسم «عملية الطائرة الصاعقة» وكانت محاولة أمريكية فاشلة لإنقاذ ٥٢ رهينة أمريكيًا تم احتجازهم في السفارة الأمريكية في طهران بعد أن اقتحمها مجموعة من الطلاب الإيرانيين في نوفمبر ١٩٧٩، كما توجد مواضع أخرى لاحتكاك عسكري غير مباشر بين الطرفين، لكن يمكن القول بالمجمل إنه لم يحصل اشتباك مفتوح ومستمر بين قوات البلدين رغم تضارب المشروعين في الكثير من الملفات.

تجاه الحواضن السنية في العديد من الدول العربية لم تكن لتقدر عليها لولا العلاقة والتنسيق مع أمريكا، وإن كان بشكل غير معلن.

يسعى هذا المقال إلى استكشاف بعض جوانب استثمار إيران علاقتها مع أمريكا في خدمة مشروعها الإقليمي التوسعي وضرب الحواضن السنية؛ وذلك من خلال تسليط الضوء على سلوك إيران في خمس دول وهي: سوريا، العراق، اليمن، لبنان، وأفغانستان.

وتأتي أهمية هذا المقال لكونه يُحاول تسليط الضوء على تفاعلات العلاقة بين إيران وأمريكا، خصوصًا في ظل استمرار محاولات النظام الإيراني لتصدير ثورته، بينما تُقدم أمريكا نفسها كخصم رئيسي للمشروع الإيراني، كما يتجنب المقال الوقوع في فخ نظريات العداء المطلق أو التحالف السري بين الطرفين، ليؤكد أن كل طرف يسعى لتحقيق مشروعه الاستراتيجي في المنطقة العربية والإقليم عمومًا، ما يُشير إلى أهمية فهم هذه الديناميكيات لتطوير أساليب مواجهة فعالة أمام الطموحات الإيرانية في تغيير هوية المنطقة العربية، والسنية الإسلامية عمومًا، وفرض «التشيع الفارسي» عليها[١].

إيران وأمريكا؛ استثمار الخصومة المعلنة في تحالف المصالح الاستراتيجية:

رغم الخطاب العدائي المعلن بين إيران وأمريكا، تحمل العلاقة بين الطرفين أبعادًا تتجاوز التصريحات الظاهرة، لتتسم بقدرٍ من التداخل في المصالح الاستراتيجية، فقد وظّف كل طرف هذه العلاقة في سياقات تخدم أهدافه، خاصة في ملفات الشرق الأوسط:

التغاضي الأمريكي عن تدخل إيران في سوريا لحماية نظام الأسد من السقوط:

عند الحديث عن التدخل الإيراني في سوريا بعد اندلاع الثورة فإنه لا يمكن التغافل عن الموقف الأمريكي الذي لعب دورًا في التغاضي عن التدخل رغم موقف أوباما الداعي لرحيل الأسد آنذاك[٢]، فلم تكن هناك أدوات أمريكية فعالة لمواجهة النفوذ الإيراني، بل إن الدعم الأمريكي لفصائل المعارضة السورية كان في سياقات مُعينة[٣] وتوقف بشكل نهائي في العام ٢٠١٧م، علمًا أن الفرصة كانت سانحة لضرب المشروع الإيراني في مقتل لو كانت أمريكا جادةً فعلاً في إنهائه، لا سيما مع وجود فصائل الثورة المُكتوية بنيران هذا المشروع الطائفي ورغبتها بمواصلة العمل ضد تلك المليشيات، لكن أمريكا وظّفت فيما يبدو التمدد الإيراني لإضعاف الثورة السورية وبقاء القوى المحلية في معادلة «لا غالب ولا مغلوب» لفترة طويلة من الوقت.

رغم التوسع الإيراني في سوريا بشكل تدريجي ركزت الجهود الأمريكية على محاربة «داعش» دون الاهتمام بمواجهة التمدد الإيراني أو حماية الحواضن السنية التي كانت تُمثل عمق الثورة[٤]، وبالرغم من ذلك فقد تمكنت قوى الثورة والمعارضة من تكبيد مليشيات إيران خسائر فادحة وطردها من عشرات القرى والبلدات، إلا أن التدخل الروسي في ٢٠١٥م قلب الموازين بسبب سياسة الأرض المحروقة ضد مناطق قوى الثورة والمعارضة، وهو ما شكل خدمةً مباشرة للمشروع الإيراني لكون إيران استفادت من التدخل الروسي لصالح تعزيز وجودها على الأرض في مراحل زمنية مختلفة قبل زوال النظام البائد.

فضّلت أمريكا التعامل مع الملف السوري ضمن إطار تفاوضي، بما في ذلك ربط بعض القضايا الإقليمية بالاتفاق النووي الإيراني، الأمر الذي

(١) التشيّع الفارسي تشيّع سياسي يجمع مع عناصر المذهب دخائل كثيرة يمتزج فيها الانتماء الديني مع الانتماء القومي والتعصب للحضارة الفارسية، واكتملت خصائص هذا «التشيُّع الفارسيّ» بما فرضَه الخميني من مبدأ «ولاية الفقيه» الذي هو جزء أساس في هوية إيران اليوم، يُنظر: حتى لا تكونَ الشام إيرانية! د. ياسين جمول، مجلة رواء، العدد الثامن.

(٢) أوباما: نظام الأسد يجب أن ينتهي، الجزيرة نت، ٢٥ / ٩ / ٢٠١٢م.

(٣) على سبيل المثال فإن أمريكا منعت فصائل المعارضة من مهاجمة مواقع نظام الأسد واشترطت أن يكون الدعم مرتبطًا بالحرب ضد داعش، وهذا ما دفع واشنطن لدعم تشكيل ما تُعرف بـ «قوات سوريا الديمقراطية - قسد» شمال شرقي سوريا التي تتهم بأنها الذراع السوري لحزب العمال الكردستاني المصنف على لوائح الإرهاب في أمريكا نفسها وفي الاتحاد الأوروبي وتركيا، كما يجب التمييز بين الدعم في المجال الإنساني والعسكري، فالنشاط الأمريكي بالأول يختلف عن الثاني المحدود والمؤطر بسياقات محدودة.

(٤) لا يعني ذلك أن الثورة حينما قامت كانت تنتظر الدعم أو الحماية الأمريكية، لكن على سبيل المثال لا الحصر فإن الإدارة الأمريكية نفسها حذّرت مرارًا نظام الأسد من ارتكاب مجازر بالسلاح الكيماوي وأنها سترد على تجاوز ما اعتبرته «خطًا أحمر»، لكن على أرض الواقع لم يكن هناك أي ردة فعل وقتل آلاف السوريين بنيران نظام الأسد والمليشيات الإيرانية المساندة له دون أي تطبيق فعلي للتهديدات الأمريكية.

سمح لطهران بالتحرك بحريةٍ في سوريا لتحقيق أهدافها الاستراتيجية دون أن تخشى تداعيات كبيرة من الجانب الأمريكي، ولم تظهر التوترات بشكل متكرر بين الطرفين إلا بعد عملية «طوفان الأقصى» لكون إيران سعت لتوظيف المليشيات الموالية لها في ريف دير الزور للتحرش بقواعد القوات الأمريكية في شرق سوريا، وبالرغم من الهجمات المتكررة ضد قواعد التحالف الدولي بقي الرد الأمريكي في سياق منضبط وفي إطار ما تعتبره الولايات المتحدة حق «الدفاع عن النفس».

لم تظهر التوترات بين إيران وأمريكا بشكل متكرر إلا بعد عملية «طوفان الأقصى» لكون إيران سعت لتوظيف المليشيات الموالية لها في ريف دير الزور للتحرش بقواعد القوات الأمريكية في شرق سوريا، وبالرغم من الهجمات المتكررة ضد قواعد التحالف الدولي بقي الرد الأمريكي في سياق منضبط وفي إطار ما تعتبره الولايات المتحدة حق «الدفاع عن النفس»

واللافت أن أمريكا لم تمارس أدورًا حقيقية لإضعاف النفوذ الإيراني في سوريا قبل زوال النظام البائد، بل استمر الملف السوري كأحد أدوات التفاوض بين إيران وأمريكا، ولذلك ينظر الكثيرون إلى توقيع إدارة أوباما للاتفاق النووي على أنه أدى إلى توفير بيئة مواتية لإيران لتعزيز تدخلها العسكري والطائفي في سوريا، وضرب الحواضن السنية، إذ أتاح الاتفاق لإيران رفع الحظر عن مليارات الدولارات من أصولها المجمّدة لزيادة دعم وكلائها بالمنطقة[١]، وممارسة العديد من الأساليب لتثبيت نفوذها في سوريا، وتهجير ملايين السوريين وفرض سياسات استيطانية لصالح المليشيات[٢]، بتسهيل من نظام الأسد البائد الذي عمل بدوره على تجنيس آلاف من عناصر المليشيات[٣]، وهذا ما شكل محل توافق مع المشروع الإيراني قبل أن يتمكن السوريون من إسقاط النظام البائد مستثمرين الظرف الإقليمي والدولي الذي بدت فيه إيران ومليشياتها شديدة الضعف وتبددت فيما يبدو المصالح المشتركة بينها وبين أمريكا في سوريا.

هدم البوابة الشرقية للعرب.. تمكين مليشيات المشروع الإيراني وتفريغ الحواضن السنية في العراق:

يُشكل الغزو الأمريكي للعراق نقطة انطلاق لاستراتيجية إيرانية أمريكية أسهمت في ضرب المكونات السنية وتمكين المليشيات الطائفية الموالية لإيران؛ فمنذ احتلال بغداد عام ٢٠٠٣ كانت إيران اللاعب المستفيد الأكبر، إذ استثمرت علاقتها مع أمريكا لضرب خصومها الإقليميين وهدم البوابة الشرقية للمنطقة العربية، مستغلةً الحرب الأمريكية ضد نظام صدام حسين، رغم أنها عارضت الحرب نظريًا إلا أنها كانت داعمة لسياسة أمريكا في التخلص من النظام العراقي المعادي لها[٤].

ويعود ذلك بطبيعة الحال إلى ما عانته إيران خلال مرحلة الحرب العراقية-الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨م)، التي خاضها النظام العراقي بقيادة صدام حسين ضد إيران، ففي تلك الفترة دعمت واشنطن علنًا العراق كجزء من استراتيجيتها لاحتواء إيران، ووفرت دعمًا لوجستيًا ومخابراتيًا لدول الخليج الداعمة لصمود النظام العراقي، ومع ذلك كُشِف لاحقًا أن أمريكا كانت تُزود إيران بالسلاح في الخفاء في صفقةٍ عُرفت بـ«إيران-كونترا»[٥]، حيث زودت واشنطن طهران بأسلحة عبر وسطاء مقابل تمويلها لقوات الكونترا في نيكاراغوا.

بعد الغزو الأمريكي للعراق استغلت إيران حالة الفراغ السياسي والأمني لتوسيع نفوذها، ومع صعود تنظيم داعش ظهر تعاون غير مباشر بين طهران وواشنطن، حيث قدمت أمريكا دعمًا جويًا لمليشيات «الحشد الشعبي» والميليشيات الطائفية الأخرى بحجة مواجهة داعش، على الرغم من توثيق انتهاكاتها الواسعة بحق السكان السنة، مثل القتل

(١) إضاءات على العلاقات الإيرانية مع الولايات المتحدة و«إسرائيل» وتأثيراتها في الملف السوري، محمد سالم وعلي فياض، مركز الحوار السوري، ص (١٣٣).
(٢) التغلغل الإيراني في سوريا، اغتيال المستقبل السوري، مركز الحوار السوري، ص (٣٨٢، ٣٨٨).
(٣) الأسد... «سوريا لمن يدافع عنها أيًا كانت جنسيته»، سبوتنيك، ٢٦ / ٧ / ٢٠١٥م.
(٤) إضاءات على العلاقات الإيرانية مع الولايات المتحدة و«إسرائيل»، ص (١٠٦).
(٥) المرجع السابق، ص (٦٦).

والخطف والتهجير القسري[١]، فكانت الحرب ضد داعش أحد أدوات تمكين المشروع الإيراني.

وبالرغم من إنهاء وجود التنظيم في آخر معاقله ببلدة الباغوز شرقي دير الزور السورية عام ٢٠١٩م ظلت المعابر الشرعية وغير الشرعية بين سوريا والعراق تحت سيطرة المليشيات الإيرانية وتدخل منها أطنان من السلاح والذخيرة إلى القواعد والنقاط الإيرانية المطلة على مناطق نفوذ أمريكا شرق الفرات في سوريا، دون أن تقوم قوات التحالف الدولي حينها بالضغط العسكري المستمر لإنهاء عمل تلك المعابر[٢].

إذًا: فإن تسليم أمريكا ما بقي من العراق لإيران لم يكن وليد الحرب ضد داعش، ولكن جاءت الحرب ضد داعش لتُعزّز المشروع الإيراني لكونه أتاح لإيران تدمير مناطق سنية وإفراغها من سكانها وجعلهم نازحين ولاجئين، وهذا يصب في صالح مشروعها خصوصًا بعدما استوطنت مليشيات موالية لها ضمن مناطق السنة في العراق، بينما كانت تكمن المصلحة الأمريكية بسياقات معينة أبرزها ملء الفراغ الناجم عن سقوط صدام وتقليل حجم الوجود الأمريكي بالعراق، والاستفادة من مليشيات إيران لمواجهة تنظيم داعش وضرب الطرفين ببعضهما، فضلاً عن جعل العراق بلدًا ممزقًا خاضعًا للهيمنة الإيرانية، ما يجعل نهوضه مرة أخرى أمرًا صعبًا، وفي ذات الوقت ربما يُجبر دول المنطقة على التماهي مع السياسات الأمريكية لمواجهة النفوذ الإيراني.

الدور الأمريكي في تعزيز مشروع إيران السياسي والعسكري في لبنان:

أظهرت واشنطن مرارًا أنها غير جادة في مواجهة النفوذ الإيراني المتمثل ب «حزب الله» في لبنان، بل تعاملت مع هذا النفوذ كعامل يمكن توظيفه ضمن ترتيباتها الإقليمية وفق ما سيأتي.

إن تسليم أمريكا ما بقي من العراق لإيران لم يكن وليد الحرب ضد داعش، ولكن جاءت الحرب ضد داعش لتُعزّز المشروع الإيراني لكونه أتاح لإيران تدمير مناطق سنية وإفراغها من سكانها وجعلهم نازحين ولاجئين، وهذا يصب في صالح مشروعها خصوصًا بعدما استوطنت مليشيات موالية لها ضمن مناطق السنة في العراق

فمنذُ تأسيس مليشيا «حزب الله» في أوائل الثمانينيات غضّت أمريكا النظر عن دعم إيران ونظام الأسد البائد له، الأمر الذي أسهم في بناء قوته العسكرية وترسيخ مكانته كفاعل سياسي وعسكري رئيسي في لبنان، ورغم إدراج الحزب على قوائم الإرهاب الأمريكية منذ التسعينيات[٣]، إلا أن الموقف الأمريكي عمومًا اتّسم بالبراغماتية، فعلى سبيل المثال خلال الاجتياح «الإسرائيلي» للبنان عام ٢٠٠٦م اكتفت واشنطن بدعم «تل أبيب» دبلوماسيًا وعسكريًا دون تشجيعها على إنهاء وجود الحزب تمامًا، وهو موقف فُسِّر على أنه تفضيل لاحتواء الحزب كجزء من المعادلة اللبنانية، ونفس الأمر يتكرر اليوم بعد عملية «طوفان الأقصى» إذ يُظهِر الحراك الأمريكي رغبة أمريكية بإضعاف الحزب لا إنهائه بشكل نهائي، وهذا ما قد يفتح الباب لإيران لتقوية نفوذ الحزب مستقبلاً بعد عودة الهدوء[٤].

كما برزت توافقات ضمنية أمريكية إيرانية في التعامل مع «حزب الله»، منها على سبيل المثال ما حصل بعد الفراغ الرئاسي الذي استمر سنتين بين ٢٠١٤ و٢٠١٦م، إذ لعبت إيران دورًا محوريًا في انتخاب حليفها ميشال عون رئيسًا، وهو ما تم بموافقة أمريكية ضمنية تُرجِمت بعدم ممارسة أي ضغوط فعلية لمنع هذه الخطوة، فرغم معرفة

(١) ديالى.. قلق من التغيير الديمغرافي بالقوة، الجزيرة نت، ١٢ / ١ / ٢٠١٥م.

(٢) ولا يعني ذلك التزام إيران بالمطلق بالتفاهمات مع أمريكا في هذا الإطار، فهي صاحبة مشروع يحاول الهيمنة على كل الجغرافيا السورية، لذلك فإنها سعت إلى التحرش كثيرًا بقواعد التحالف خاصة بعد طوفان الأقصى، ومن قبل حاولت أيضًا توظيف بعض عشائر شرق الفرات للخدمة في مشروعها، ولذلك كانت هناك محاولات توسُع متكررة في شرق الفرات عبر دعم بعض مليشيات العشائر لمهاجمة مليشيات «قسد»، خاصة أن منطقة شرق الفرات غنية بالنفط والثروات الزراعية، ما يجعل السيطرة عليها أمرًا بالغ الأهمية في سياق تمكين المشروع الإيراني في سوريا.

(٣) حزب الله، rewardsforjustice، موقع رسمي تابع للولايات المتحدة الأمريكية.

(٤) أشار تقرير لمركز الحوار السوري إلى أن الموقف الأمريكي لا يبدو مندفعًا تجاه الرغبة «الإسرائيلية» في إنهاء نفوذ «حزب الله» بشكل كامل في لبنان، بل إضعافه وإجباره على قبول شروط «إسرائيل» لوقف الحرب، يُنظر: تداعيات الحرب في لبنان على سوريا.. «سيناريوهات إعادة تموضع حزب الله وآثاره الأمنية والعسكرية والديمغرافية»، مركز الحوار السوري، ٧ / ١٠ / ٢٠٢٤م.

واشنطن بأن وصول عون يُعزّز النفوذ الإيراني من خلال «حزب الله»[١]، إلا أنها تعاملت معه فيما يبدو كحلٍ مؤقت يضمن استقرار لبنان في ظل أزمات المنطقة.

استغل «حزب الله» حالة الانقسام السياسي اللبناني وضعف الدولة لترسيخ مشروع إيران الإقليمي، فمع تراجع القوى التقليدية في لبنان، أصبح الحزب يمتلك تأثيرًا مباشرًا على القرار السياسي والأمني للبلاد، ورغم فرض واشنطن عقوبات اقتصادية على الحزب وشبكاته المالية، لم تُظهر أي جدية في كبح تمدده على الأرض، بل على العكس، لعبت مواقفها المترددة في ملفات أساسية دورًا في تعزيز موقعه، خاصة في سوريا، إذ إنه نقل مليشياته عبر الحدود دون أي محاولةٍ أمريكيةٍ جادة لمنع ذلك، وهو ما مكن إيران بشكل عام من تحقيق مكاسب على الأرض بسوريا نظرًا لمشاركة الحزب بالقتال وتكريسه المشروع الإيراني من خلال قتل وتهجير السوريين.

> **رغم فرض واشنطن عقوبات اقتصادية على حزب الله وشبكاته المالية، لم تُظهر أي جدية في كبح تمدده على الأرض، بل على العكس، لعبت مواقفها المترددة دورًا في تعزيز موقعه، خاصة في سوريا، وهو ما مكن إيران بشكل عام من تحقيق مكاسب على الأرض بسوريا نظرًا لمشاركة الحزب بالقتال وتكريسه المشروع الإيراني من خلال قتل وتهجير السوريين**

ومن جانب آخر لا يمكن إغفال حقيقة أن أمريكا قدمت بشكل غير مباشر غطاءً للميشيا «حزب الله» عبر دعمها للجيش اللبناني، فرغم أن الدعم كان يُقدّم تحت شعار «تقوية مؤسسات الدولة اللبنانية»، إلا أن واشنطن لم تمارس أي ضغط حقيقي لضمان فصل الجيش عن تأثير «حزب الله»، بل على العكس كان بعض المسؤولين الأمريكيين يشيرون لأهمية دور الجيش اللبناني في مواجهة «الجماعات الإرهابية السنية»[٢]، وهو ما عزّز نفوذ الحزب داخليًا.

الازدواجية الأمريكية في اليمن؛ بين محاربة تنظيم «القاعدة» وتجاهل خطر الحوثيين:

تُظهر السياسة الأمريكية في اليمن تناقضًا واضحًا بين ادعاءاتها محاربة «الإرهاب»، ومواقفها العملية على الأرض؛ إذ حصرت الإرهاب ب «القاعدة» وتجاهلت مخاطر مليشيات الحوثي، وهذا ما مكن إيران من استغلال هذا التناقض لتعزيز نفوذها.

فعلى سبيل المثال: في العام ٢٠١٨م مارست أمريكا ضغوطًا على قوات التحالف العربي بقيادة السعودية لوقف عملية تحرير ميناء ومدينة الحُديدة الاستراتيجية على الساحل اليمني[٣] بحجة المخاوف الإنسانية، الأمر الذي سمح للحوثيين بالاحتفاظ بشريانهم الاقتصادي والعسكري، إذ بقي الميناء قناة رئيسية لتهريب الأسلحة الإيرانية، وهو ما مكنهم من تعزيز مواقعهم على الأرض، وحرمان التحالف العربي من فرصة لتقليص نفوذهم بشكل حاسم.

ومن جانب آخر، وبالرغم من الدعم العسكري واللوجستي الواضح الذي تُقدمه إيران للحوثيين إلا أن واشنطن ترددت لسنوات في إدراج المليشيات الحوثية على قوائم الإرهاب، إذ تم إدراجهم في فترة ترامب الأولى ثم رُفِع التصنيف مع قدوم بايدن[٤]، ثم عادت واشنطن وأدرجتهم بعد تهديدهم للملاحة الدولية ومهاجمة أهداف «إسرائيلية» في البحر الأحمر عقب «طوفان الأقصى»، ولم يُخف المسؤولون الأمريكيون الرغبة برفع التصنيف فيما لو أوقف الحوثيون عملياتهم[٥].

عمومًا تُظهِر السياسة الأمريكية في اليمن لجوءها إلى استراتيجية تهدف إلى إبقاء التهديد الحوثي قائمًا في مواجهة دول الخليج، فواشنطن قد تكون ترى في استمرار نفوذ الحوثيين وسيلة لإشعار دول الخليج بأهمية الدور الأمريكي

(١) ميشال عون رئيسًا للبنان بتسوية وافقت عليها غالبية الأطراف السياسية، فرانس برس، ٣١ / ١٠ / ٢٠١٦م.

(٢) على سبيل المثال صرح مساعد وزير الخارجية الأميركية ديفيد شينكر عام ٢٠١٩م «للولايات المتحدة ثقة كبيرة في الجيش اللبناني، وتعتقد أنه شريك ممتاز في محاربة الإرهابيين الجهاديين السنّة، وأنّ هذا الترتيب الأمني الثنائي ذو قيمة، ونعتزم الاستمرار فيه»، ينظر: شينكر: دعم الجيش اللبناني هو «استثمار جيد»، لبنان ٢٤، ١٥ / ١١ / ٢٠١٩م.

(٣) مصادر: التحالف يوقف الهجوم على الحديدة بعد دعوات متزايدة من الغرب، رويترز، ١٥ / ١١ / ٢٠١٨م.

(٤) إلغاء تصنيف الحوثيين جماعة إرهابية: إنقاذ للسعودية أم قرار أمريكي بحاجة لإعادة نظر؟، بي بي سي، ١٤ / ٢ / ٢٠٢١م.

(٥) واشنطن تعيد إدراج الحوثيين على قائمة الإرهاب، الجزيرة نت، ١٧ / ١ / ٢٠٢٤م.

كضامن وحامٍ لأمن المنطقة، الأمر الذي قد يُترجم إلى مكاسب اقتصادية وصفقات تسليح ضخمة، وهذا ما ظهر بشكل واضح في ولاية ترامب الأولى، بالإضافة إلى نفوذ سياسي دائم في الخليج والتعامل مع الحوثيين كورقة يمكن استثمارها لتحقيق مكاسب جيوسياسية طويلة الأمد، بدلاً من مواجهتهم بشكل مباشر.

هذه السياسة الأمريكية خلقت فراغًا استراتيجيًا استغلته إيران بشكل فعال لتعزيز نفوذها الإقليمي عبر دعم الحوثيين. فقد شهد اليمن توسعًا غير مسبوق في النفوذ الإيراني، خاصة على الحدود الجنوبية للمملكة العربية السعودية، لا سيما بعد وصول أسلحة متطورة وتقنيات عسكرية مكنت الحوثيين من استهداف العمق السعودي مثل مكة والرياض وشركة أرامكو[١]، فضلاً عن تحول الحوثيين إلى قوة تُهدد الممرات المائية الدولية، وهو ما يُقوي موقف إيران عند أي عملية تفاوضية سواء مع الدول العربية أو الغربية.

> **تُظهِر السياسة الأمريكية في اليمن لجوءها إلى استراتيجية تهدف إلى إبقاء التهديد الحوثي قائمًا في مواجهة دول الخليج، الأمر الذي قد يُترجم إلى مكاسب اقتصادية وصفقات تسليح ضخمة، وهذا ما ظهر بشكل واضح في ولاية ترامب الأولى، بالإضافة إلى نفوذ سياسي دائم في الخليج والتعامل مع الحوثيين كورقة يمكن استثمارها لتحقيق مكاسب جيوسياسية طويلة الأمد، بدلاً من مواجهتهم بشكل مباشر**

إيران وأفغانستان؛ من التعاون مع واشنطن إلى استثمار الفراغ الأمريكي:

في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م وجدت إيران نفسها على الجانب ذاته مع أمريكا في هدفها المُعلَن بالقضاء على حركة طالبان، حيث لعبت طهران دورًا مهمًا في دعم الحملة الأمريكية العسكرية التي أطاحت بحركة طالبان[٢]، وجاء ذلك منسجمًا مع المصالح الإيرانية آنذاك واعتبارها أن طالبان تُشكل تهديدًا أيديولوجيًا وأمنيًا على حدودها الشرقية.

ووفق تقارير غربية أظهرت إيران مرونة في التعاون مع إدارة بوش الابن خلال المرحلة الأولى من الحرب، خاصة في مؤتمر بون عام ٢٠٠١م، حيث أسهمت في دعم تشكيل حكومة انتقالية موالية للغرب في كابول[٣]، ولكن مع تصاعد النفوذ الأمريكي واستمراره في المنطقة بدأت إيران تنتهج استراتيجية مزدوجة، حيث بدأت بدعم قوى محلية ونسج علاقات مع أطراف أفغانية متعددة، بما فيها حركة طالبان[٤]، في محاولة لتعزيز نفوذها وموازنة النفوذ الأمريكي[٥].

ومن يتتبع خريطة التشكيلة السياسية قبل الانسحاب الأمريكي من أفغانستان يلحظ حجم التغلغل الإيراني في الحكومة الأفغانية حينها، فعلى سبيل المثال في العام ٢٠١٦م كانت هناك العديد من الأحزاب الشيعية التي على صلة وثيقة بالنظام الإيراني بالتزامن مع حضور ناعم عبر افتتاح مراكز طبية بالمناطق الفقيرة وجامعات إيرانية ومدارس تعليمية وحوزات تنشر المذهب الشيعي[٦]، وتغلغل في مؤسسات سياسية مثل البرلمان الذي وصل فيه عدد الأعضاء الشيعة في ٢٠١٦م إلى ما يعادل ربع الأعضاء لأول مرة بتاريخ البلاد مع حصول الشيعة على مقاعد وزارية[٧] فضلاً عن الاعتراف ب «المذهب الشيعي

(١) الحوثيون يعلنون قصف أرامكو وأهداف سعودية حساسة والرياض تعلن إحباط الهجمات، الجزيرة نت، ٢٩ / ١ / ٢٠٢٠م.
(٢) إضاءات على العلاقات الإيرانية مع الولايات المتحدة و«إسرائيل»، ص (١٠٣).
(٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) المرجع السابق، ص (١٠٤).
(٥) كما يقول «المعهد الدولي للدراسات الإيرانية»: إن إيران تُعد العميل المفضَّل لطالبان في ما يتعلَّق بأنظمة الأسلحة التي استولت عليها والمسروقة والمعطَّلة، وغالبًا ما تكون إيران في حاجة ماسة إلى الأنظمة الفرعية المتطوّرة، والتي يمكن استخدام بعضها في الصواريخ والطائرات المسيّرة والقنابل، بينما يتم استخدامُ البعض الآخر منها لأغراضِ الهندسة العكسية، وإنتاج الأسلحة بكمِّيات كبيرة، يُنظر: إيران بعد الانسحاب الأمريكي من أفغانستان: تحويل التهديد إلى فرصة، القدس العربي، ١٤ / ٨ / ٢٠٢١م.
(٦) التغلغل الإيراني في أفغانستان يهدد الأقاليم، الشرق الأوسط، ١٠ / ٦ / ٢٠١٦م.
(٧) على سبيل المثال في العام ٢٠١٦م كان النائب الثاني لرئيس الجمهورية عبد الكريم خليلي ووزير العدل ووزير الصناعة ووزير النقل ووزير الأشغال العامة وعدد من نواب الوزراء وحكام بعض الولايات المهمة مثل هرات وباميان وسمنجان ودايكوندي من الشيعة، ينظر: التغلغل الإيراني في أفغانستان يهدد الأقاليم.

الجعفري» في الدستور الأفغاني[١] جنب المذهب السني الحنفي لأول مرة في تاريخ البلاد رغم أن الشيعة لا يُشكّلون سوى نحو ١٠٪ من عموم الشعب الأفغاني.

ومع انسحاب القوات الأمريكية من أفغانستان عام ٢٠٢١م وجدت إيران الفرصة سانحة لتوسيع نفوذها بشكل أكبر، مستغلةً الفراغ الذي تركه الانسحاب لتعمل على تعزيز وجودها الناعم في البلاد، عبر محاولة التقرب من طالبان من خلال تقديمها مشاريع لتطوير وترميم المطارات والطرقات وبناء المشافي وتوسيع الاستثمارات الإيرانية في أفغانستان[٢]، وهو ما قد ينظر له البعض على أنه محاولةٌ منها للقبول بالحكومة الجديدة كأمر واقع من باب ضرورات الجيرة وتأمين الحدود لا سيما مع توقعاتها بتراجع نفوذها السياسي والمذهبي بعد سيطرة طالبان على الحكم[٣].

الأدوات الناعمة في التغلغل الإيراني بأفغانستان تبدو مشابهة للحالة السورية واليمنية والعراقية واللبنانية، لكن الفارق الوحيد أنه لا يوجد ذراع عسكري واضح لها، لكن هذا غير مستبعد لا سيما أن إيران استثمرت باللاجئين الأفغان إليها بما فيهم الأطفال عبر تشجيعهم وتقديم المحفزات لهم من أجل التجنيد للقتال في سوريا سابقًا[٤]، حتى بات هناك فصيل أفغاني كامل ممول من قبل إيران يُدعى «لواء فاطميون» قوامه من الأفغان شارك في قتل السوريين قبل أن يُطرد من سوريا مع زوال النظام البائد[٥].

ورغم أن «فاطميون» فصيلٌ مارَسَ الكثير من الانتهاكات إلا أنه وخلال نحو عقد من الحرب في سوريا كان يندر أن تُوجّهَ أمريكا لعناصره ضربات جوية إلا ما كان في إطار الرد على هجمات المليشيات الإيرانية عمومًا، وبعد زوال النظام البائد في سوريا وعودة هذا الفصيل لإيران فإنه من غير المستبعد أن يعود عناصره لأفغانستان ليكونوا أداة بيد إيران تطوعهم في خدمة مشروعها التوسعي بأفغانستان، وهو أمر ينظر له البعض بأنه وارد الحدوث خاصة في إقليم هرات الشيعي الذي يعد أحد مناطق اهتمام إيران بشكل أساسي في أفغانستان.

الأدوات الناعمة في التغلغل الإيراني بأفغانستان تبدو مشابهة للحالة السورية واليمنية والعراقية واللبنانية، لكن الفارق الوحيد أنه لا يوجد ذراع عسكري واضح لها، لكن هذا غير مستبعد لا سيما أن إيران استثمرت باللاجئين الأفغان إليها بما فيهم الأطفال عبر تشجيعهم وتقديم المحفزات لهم من أجل التجنيد للقتال في سوريا سابقًا

خاتمة:

يتضح من استعراض علاقة إيران مع أمريكا في سياقاتها الإقليمية أن هذه العلاقة، ورغم ظاهرها «العدائي» المعلن، إلا أنها اتسمت بالتشابك واستثمار الفرص المشتركة بينهما، وقد أدى ذلك إلى تكريس النفوذ الإيراني في عدة دول عربية وإسلامية على حساب استقرار الحواضن السنية، ما ساهم في تشكيل واقع جديد للمنطقة وإدخالها في دوامة من الفوضى والفقر والتجهيل والتطرف.

استثمرت إيران التغاضي الأمريكي عن تمددها لتحقق أهدافها الاستراتيجية المتمثلة في تصدير الثورة، فأطلقت العنان لميليشياتها لممارسة شتى صنوف الانتهاكات والتهجير والتغيير الديموغرافي في قلب الحواضن السنية بسوريا والعراق ولبنان واليمن، بينما أظهرت السياسة الأمريكية «براغماتية عالية» تهدف إلى تحقيق مصالحها حتى وإن كان ذلك يعني تدمير الحواضن السنية.

لكن ورغم كل محاولات التغلغل الإيراني والسعي لإضعاف الحواضن السنية واستنزافها فإن نجاح الثورة السورية في إسقاط النظام البائد، رغم الدعم الكبير الذي تلقاه من حليفيه الروسي والإيراني على مدى أكثر من عقد، يؤكد هشاشة المشروع الإيراني الذي لا يعدو كونه أوهى من بيت العنكبوت، ويأتي خلاص السوريين من هذا النظام الطائفي كتجربة ملهمة للشعوب التي اكتوت بنيران المشروع الإيرانَي حافزًا لكسره والتخلص منه بلا رجعة.

(١) النفوذ الشيعي المتنامي في أفغانستان.. إلى أين؟ الراصد، ١٦ / ١ / ٢٠١٠م.
(٢) إيران تضفي الطابع الرسمي على علاقاتها مع حركة «طالبان»، معهد واشنطن، ٣ / ٣ / ٢٠٢٣م.
(٣) أفغانستان وإيران.. إكراهات السياسة وضرورات الجيرة، الجزيرة نت، ٢٧ / ١٢ / ٢٠٢٢م.
(٤) إيران: تجنيد أطفال أفغان للقتال في سوريا، هيومين رايتس ووتش، ١ / ١٠ / ٢٠١٧م.
(٥) لواء فاطميون بأفغانستان.. مقاتلون ولاؤهم لإيران ويثيرون حفيظة طالبان، الجزيرة نت، ٢٨ / ٤ / ٢٠٢٤م.

لا سقفَ للممكن!

أ. هدى عبد الرحمن النمر (*)

تدعو المقالة إلى تحطيم وهم العجز الذي يسيطر على بعض النفوس، مؤكدةً إمكانية تغيير الواقع باتباع القواعد الربانية للعمل والإصلاح، ويؤكد المقال على ضرورة البدء بتغيير النفس، إذ لا يتحقق التغيير الأممي إلا بصلاح الأفراد، كما يشدد على التوازن بين تحمل المسؤولية الفردية، وتفويض ما لا يمكن تغييره لله، فالنجاح يتطلب إيمانًا صادقًا، وعملاً جادًا، وابتعادًا عن التراخي والانهزام.

هل تغيير العالم ممكن؟

من الحيل النفسية التي استقرّت بها الغَلَبَة الظاهرة لأهل الباطل: إيهام الأمة المسلمة أنها بمجموعها لا تقدر على نصرة ولا نهضة لأنها لا تملك زمام السلطة الفردية أو الدولية، ولا تقوم لإرادتها قائمة في وجه إرادات الأجندات العالمية التي تدير كواليس الحكم. وهذه الغلبة الظاهرة لأهل الباطل واقعة لا نكران لها، لكن يظل هذا الحال مهما طال -وقد طال- واستتب حالاً طارئًا معوجًّا من حيث مخالفته لما يحب الله تعالى من عباده المسلمين ويرضاه ويريده منهم. ويظل بالإمكان تغييره حقيقة لا مجازًا، وواقعيًّا لا خيالاً.

كيف ذلك؟

إذا نظرنا إلى الآيتين اللتين أرستا قانون التغيير الإلهي:

* ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].
* ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٥٣].

نجد أن سياقهما جاء من جهة واحدة؛ وهي أن العبد عندما يغير حاله من طاعة لمعصية يعرّض نفسه لزوال نعمة من نعم الدنيا عليه.

(*) كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات.

لكن حصر زوال النعم في النعم المادية الملموسة فهم قاصر لأمرين:

فمن جهة: مقصود النعمة في التصور الشرعي هو كل ما يعين في حفظ دين المرء وقيامه به من منافع الدنيا والآخرة، وليس النعم المادية فحسب. ولهذا يمكن -بل ويقع- أن يبتلى مؤمن طائع بنقص في نعمة دنيوية، فيُنعِم الله عليه بتثبيته وحفظ دينه، ويجعل نقصه الدنيوي ذاك رفعة له وزيادة في النعمة الكبرى التي لا تعدلها نعمة في الدارين، وهي نعمة الإيمان التي يَسْلَم بها العبد من العذاب الخالد في الآخرة. فهذا لا يُقال إنه عوقب بنقص في النعم مع أنه طائع، بل امتحانه ذاك رفعة له حقيقة وتزكية وتطهير: (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة)[١].

وكذلك ثبت أن المصائب قد تنزل بذنوب المجموع لا الأفراد، فمعلوم ما أصاب جمع المسلمين يوم أُحُد إثر مخالفة جماعة الرُّماة لأمر رسول الله ﷺ. وجاء عن السيدة زينت بنت جحش عليها الرضوان: أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول: (لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم مِن ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه)، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب: فقلت: يا رسول الله، أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم، إذا كثر الخبث)[٢]. ولا تعارض بين كون كل مؤمن محاسبًا وحده في الآخرة، وإمكان عموم البلاء في الدنيا. ففي حديث آخر: (إذا أنزل الله بقوم عذابًا، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم)[٣]. وجاء في شرح الحديث في «فتح الباري»: «والحاصل أنه لا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب أو العقاب، بل يجازى كل أحد بعمله على حسب نيته، ...، ويستفاد من هذا مشروعية الهرب من الكفار ومن الظلمة؛ لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة، هذا إذا لم يُعِنْهُم ولم يرضَ بأفعالهم، فإن أعان أو رضي فهو منهم، ويؤيده أمره ﷺ بالإسراع في الخروج من ديار ثمود»[٤].

ومن جهة أخرى: فالتغيير من حال المعصية والتفريط إلى حال الطاعة وحُسن الامتثال ممكن، بل واقع على المستوى الفردي والأممي معًا. ومن ثم فتغيير حال الأمة بصلاحها على المستوى الفردي وتَبَعًا الجماعي، وترقيتها من وضع الاستضعاف والمغلوبية للإعزاز والغلبة ممكن بأمر الله تعالى قطعًا، وعلى ذلك دلّت النصوص، ومنها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

لله الأمر كله:

وأما ما يتمّ تهويله من هيمنة نظام عالمي متجبّر، وخيوط خفية متحكمة، وسلطات غالبة، وأن كل ما يقع إنما هو بتدبيرهم أو بتخطيط منهم... فأمره هيّن على الحقيقة. ذلك أن المُلك كله لله وحده حقيقة وحقًّا، ومقاليد الأمور كلها بيد الله تعالى رأسًا، والأرض لله تعالى وحده يورثها من يشاء متى شاء، والله تعالى هو الذي يؤتي المُلك وهو الذي يَنزِعه، ويَرفع أقوامًا ويضع آخرين؛ فلا حكم ولا سلطان يقوم بذاته، وإنما مشيئة الله تعالى هي التي تجري بقيام الملك أو السلطان لأجل مسمّى عند الله تعالى، كما تقضي باندثاره في أجل مسمّى عند الله تعالى. وهو تعالى قادر أن يقلب موازين الوجود القائمة في أقل من طَرفة عين، وأن يخسف الأرض بمن عليها ويأتي بأقوام آخرين، وأن يهدّ الدنيا برمّتها ويقيم القيامة ذاتها! ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

كل ما كان مستقرًّا من حضارات هي اليوم أثر بعد عين، وكذلك ما نراه اليوم من حضارات مستقرة أتى عليها زمان ولم تكن أصلاً. وكل طغيان نظنه راسخًا ضاربًا بجذوره في الأرض قد سبقه ما بدا أعظم منه فزُلزِل وزال. فالأيام دُوَل، والسماوات والأرض مطويات بيد خالقهما الواحد القهار، الذي له الملك والملكوت والعزة والجبروت: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩).
(٢) أخرجه البخاري (٧١٣٥).
(٣) أخرجه البخاري (٧١٠٨).
(٤) فتح الباري (٦١/١٣).

ومن ثم، على المؤمن بالله تعالى ألا يخلط بين المُجريات عند مقام الرب تبارك وتعالى، والمجريات في جهته هو بوصفه عبدًا. فمن جهته يأخذ بما عليه من أسباب محتسبًا صابرًا، ويوقن بمعيّة الله تعالى الذي يسمع ويرى ولا يعزُب عنه مثقال ذرة، ويوقن بكمال قدرته تعالى وعظيم مشيئته وحكمته دون ريب أو شك. ثم يَكِل أمر الله تعالى إليه وحده سبحانه، فالله تعالى أعلم متى وأنى وكيف يكون النصر وقلب موازين الغالبية والمغلوبية. وإذا كانت هذه قدرة الله وهذه حكمته وهذا تدبيره.. فما للمؤمن ينظر للموازين الأرضية الحالية باستعظام واستهوال يجعله يستصغر مسؤوليته وطاقاته، ويستبعد نصر الله تعالى وإعلاء مقام أمة الإسلام فوق الأمم؟!

استبطاء النصر:

وقد ضرب الله تعالى لنا مثالاً في القرآن الكريم عن أمة كانت مستضعفة وعالقة في دوامة السخرة والخدمة، وتتعرض للبطش والقتل دون مانع أو رادع، فهيأ لهم من الأسباب والأحداث ما كان كفيلاً بقلب حالهم، قال تعالى في آيتين متتاليتين: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٤-٥]، وتابعت بعدها آيات سورة القصص في وصف الترتيبات الإلهية من ولادة موسى عليه السلام في هذا الظرف العصيب، وكيف أوحى لأمه أن تلقيه في اليم، ثم كيف التقطه آل فرعون ووقع في قلب امرأة فرعون حب هذا الصبي، وكيف نشأ بعدها معززًا مكرمًا، حتى وقع ما وقع من قتله للقبطي، ثم هروبه إلى مدين وعودته منها نبيًا رسولاً.

وبعد مدة من المعاناة تذمّر بنو إسرائيل، واستبطؤوا نصر الله تعالى، خاصة لِمَا ظهر لبصرهم القاصر مِن أنّ الحال لم يعتدل حتى بعد بعث سيدنا موسى عليه السلام، فكان الردّ عليهم في ذلك الزمان هو الردّ في كل زمان على كل متذمّر بنفس العقلية: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

وكان النصر المبين تدبيرًا خالصًا من الله تعالى يوم أن اكتمل اليأس عند بني إسرائيل فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فأغرق الله فرعون وجنوده في حدث إلهي معجز.

الحاصل أن الله تعالى قادر لا ريب على إبدال موازين النصر والهزيمة في أقل من طرفة عين، لكن محلّ الامتحان في هذه الدنيا ليس قدرة الله تعالى ولا مشيئته ولا تدبيره، وإنما العبد هو محل الامتحان من الله تعالى: صبره ومصابرته ويقينه في وعد ربه تبارك وتعالى وثباته على الحق حتى يلقى الحق تعالى مُقبلاً غير مُدبِر

ما عليك وما عليك:

بناء على ما سبق، بدل كثرة انشغالنا بسؤال «متى يكون النصر؟»، فليكن تفكّرنا وعملنا موجّهًا لجواب: «ما المطلوب منا؟» وأول المطلوب التمييز بين ما عليك، وما عليك! أي التمييز بين ما الذي تستطيعه فتقوم عليك مسؤولية القيام به (ما يقوم عليك)، وما ليس عليك أن تحمل همه مما ليس بيدك أصلاً التدخل فيه (فما عليك منه بأس)، كما فيمن يشعر بالذنب لكونه لا يعايش الابتلاء بنفسه مع المبتلين أو لكونه في سعة وهُم في ضيق، فهذا الشعور موجّه للوجهة الخاطئة وإن كان في أصله طيبًا. ذلك أنك لستَ مطالبًا أن تعيش كالمُبتلى لتكون مناصرًا له، بل ما دمت عوفيت فأنت مطالب أن تعيش كالمعافى وتتصرف كالمعافى، بأن تكفّ عن التمارض والتعلل والتحجج بأعذار الخذلان والتخاذل، وتتعبد بما آتاك الله تعالى على ما تستطيع.

البطولة التي نحتاجها:

ثم المطلوب أن يصيب كل مسلم من معاني «البطولة» ما يستطيع. ولفظة البطولة هذه مما كثر استعمالها في أدبيات التحفيز والتنمية، بمعان مستوردة من الثقافة الغربية، ألصقت بها هالاتٌ خرافية، صوّرت البطل بوصفه نجمًا خارقًا يأتي بمعجزات تغيّر الواقع في لحظة. ومع هذه الصورة، انتشرت ثقافة النجومية والجماهيرية والتنافس على الصدارة والشهرة. وعندما امتزجت هذه التصورات مع المفاهيم الإسلامية في الوعي السطحي، اختلطت الحدود بين السمعة الطيبة والرياء، مما أدى إلى

اختلال موازين الأعمال وغياب التوازن بين تقدير الجهود الكبيرة والصغيرة وفق معايير الشهرة والوجاهة. هذا التداخل أثّر في النفوس، فجعلها تتعجل النصر وتستثقل البلاء ويضعف صبرها.

والحق أن الإسلام قائم على البطولة بالمعاني العربية الأصيلة؛ فالبطولة في الإسلام تقوم على إبطال المسلم للباطل وإحقاقه للحق في نفسه أولاً، ثم سعيه في إحقاقه على النطاق الأوسع خارج نفسه بحسب الاستطاعة وما يقيمه الله تعالى فيه من ثغرات وما يجعل له من قبول. وقد شرط الله تعالى وراثة الأرض بالتقوى، التي يمثلها عمليًّا الصلاح والإصلاح معًا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وإذن، البطولة التي نحتاجها معشر المسلمين هي أن نؤمن بما أعزّنا الله به من حق صادق الإيمان، ونعقله صادق العقل، ونتوقّف عن الاشتغال بالنعي على أهل الباطل تداولهم للباطل بأشد الحق، ونلتفت لمعايبة أنفسنا على أخذنا للحق بمنتهى الباطل.

> **كان من كلام علي ﷺ في خطبته المشهورة: «فيا عَجَبًا من جِدّ هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن حقكم! فقُبحًا لكم وتَرَحًا، حين صرتم هدفًا يُرمى، وفَيئًا يُنتهب، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزَون ولا تَغزُون، ويُعصَى الله وترضون!»**
>
> البيان والتبيين للجاحظ

هل أنا من سيعدل المائل؟

ما أكثر ما سمعت تعقيبًا في معرض كلامي عن مسؤولية الفرد المسلم في الصلاح الفردي والإصلاح الأممي على السواء، قول القائل:

- أأنا من سيعدل المائل؟

والرد عليها:

- المطلوب ألا تكون أنت مائلًا! المطلوب منك: عدِّل نفسك أنت، ثم من يليك ممن تتحمّل مسؤوليتهم في دائرتك أنت، المهم ألا نفقد الأمل وأن نواصل العمل لما نستطيع، ونترك ما لا نستطيع من التدبير لله تعالى.

> **هلّا قمنا بما علينا أولاً حق القيام، فُرادى وجماعات، ثم رأينا ما يصنع الله تعالى بنا بعد أن غيّرنا ما بأنفسنا ليوافق مراده منا؟!**

ختامًا:

القاعدة الربانية التي لا تتخلف هي أن سعي كل امرئ سوف يُرى ويجازى يوم يُوقف أمام رب العالمين، ولا يَظلِم ربنا مثقال ذرة، لا في الدنيا ولا في الآخرة. فليس عليك من حساب الناس من شيء، هذا بينهم وبين الله تعالى، وإنما عليك نفسك أنت، بمعنى عليك أن تجتهد في القيام بكل ما يمكنك القيام به، وليس المقصود بها أن تنشغل بمصالحك وتلبية حاجاتك، وتصمّ آذانك عن أحوال الأمة وتلبية نداء الغوث حيث أمكنك! كيف و(ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع)[1].

علينا معشر المؤمنين أن نتحلى بأدب العبودية في التسليم لحكمة الله ومشيئته في خلقه وتدبيره. وبدلاً من التشاغل بالتلاوم وتبادل الاتهامات وتصيّد أخطاء الآخرين وصرف الطاقة فيما لا يد لنا فيه ولا قدرة على تغييره، فلننظر لما في أيدينا من نعم ونشكر الله عليها، ولما نجهله من أمور ديننا فلنتعلمها، ولما ينقصنا من علوم ومهارات فلنستكملها لنقدر على الانتفاع والنفع معًا.

فلنقم بواجب كل وقت في حينه، مستحضرين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٦]؛ ثم نَكِل الأمر لذي الأمر كله، والله تعالى حَسْبُ كل مؤمن، وحسيبه.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٢).

التشيُّع الإيراني بين مخرجات الأمس واليوم

د.محمد بن عبد الله السلومي (*)

يتناول هذا المقال استمرارية الفكر الشيعي الإيراني وممارساته التاريخية والحاضرة، مسلطًا الضوء على الانحرافات العقائدية والأيديولوجية التي تستهدف أهل السنة، مع إبراز دور الزعامات الشيعية المعاصرة في توظيف عقيدة التشيع لدعم مشاريع توسعية تحت غطاءٍ دينيٍّ وسياسي، كما يُناقش تداخُل المصالح الإيرانية مع الغرب والصهيونية، والتحدِّيات التي تواجه أهل السنة في مواجهة هذا المشروع.

اهتمَّ علماء الإسلام قديمًا وحديثًا بالكتابة عن التشيُّع والشيعة حسب تسميتهم لأنفسهم، ومن هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- الذي ألّف عنهم كُتبًا ورسائل كاشفةً لحقيقة معتقدهم، ومما قال فيهم: «فمن له أدنى خبرةٍ بدين الإسلام يعلم أن مذهب الرافضة مُناقضٌ له، ولهذا كانت الزنادقة الذين قَصْدُهم إفساد الإسلام يأمرون بإظهار التشيُّع والدخول إلى مقاصدهم من باب الشيعة»(١).

ويؤكد الدكتور موسى الموسوي -من علماء الشيعة الناقدين المعاصرين- على أنَّ شعارات الشيعة في نُصرة علي ﷺ وآل البيت غير صحيحة، وأنها تُعدُّ وسيلةً لأهدافٍ أخرى تكشف عن الهدف الحقيقي، وهو ما جعل هذا الباحث الشيعي تتملَّكه الحَيرة والدهشة من هذا التناقض الظاهر والباطن -حسب قوله- وذلك بقوله: «الحيرة كل الحيرة هي الطريقة التي اتَّبعتها الشيعةُ في معالجتها لمشكلة الخلافة، فهي تتناقض كُلَّ التناقض مع سيرة الإمام علي، وسيرة أولاده من أئمة الشيعة، ولذلك تتملَّكُني الحيرة والدهشة عندما أرى أنَّ شعار الشيعة هو حبُّ الإمام علي وأولاده، ولكنهم يضربون عرض الحائط سيرة عليٍّ والأئمة من ولده»(٢).

(*) باحث في الدراسات التاريخية ودراسات العمل الخيري والقطاع الثالث.

(١) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٤٧٩/٨).

(٢) الشيعة والتصحيح، لموسى الموسوي، ص (١١).

ولابن تيمية خلاصات جامعة مفيدة عن الشيعة الباطنية في كتابه «منهاج السنة النبوية»، ومن ذلك قوله عن أساس نشأة هذا المعتقد ومؤسس هذا الانشقاق في جسد الأمة المسلمة: «الذي ابتدع مذهب الرافضة -ابن سبأ- كان زنديقًا مُلحدًا عدوًا لدين الإسلام وأهله، ولم يكن من أهل البدع المُتأوِّلين؛ كالخوارج والقدرية»[١].

وقال عن أصل الفتن في التاريخ الإسلامي مما يجب معرفتُه على كل مسلم: «أصل كل فتنةٍ وبليةٍ هم الشيعة ومن انضوى إليهم، وكثيرٌ من السيوف التي سُلت في الإسلام إنما كانت من جهتهم»[٢]!

كما قال عن مدى ضلالهم وانحرافهم وعداوتهم للصحابة الأطهار وموالاتهم للكفار: «فهل يوجد أضلُّ من قوم يُعادون السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ويوالون الكفار والمنافقين»[٣]، وقال في توصيف عداوتهم للإسلام: «الرافضة ليس لهم سعيٌ إلا في هدم الإسلام ونقضِ عُراه وإفساد قواعده»[٤]. كما قال عن حقيقة الرافضة الشيعة وموالاتهم للكفار والمشركين واليهود والنصارى: «دائمًا يوالون الكفار من المشركين واليهود والنصارى، ويعاونونهم على قتال المسلمين ومعاداتهم»[٥].

ومن الخلاصات المعبِّرة عن واقعهم مع الإسلام وأهله، ومع العلم والعلماء، أو الجهاد والفتوح ونصرة الإسلام عبر التاريخ؛ ما قاله ابن تيمية فيهم: «ولهذا لا يوجد في أئمة الفقه الذين يُرجع إليهم رافضي، ولا في أئمة الحديث، ولا في أئمة الزهد والعبادة، ولا في الجيوش المؤيَّدة المنصورة جيشٌ رافضي، ولا في الملوك الذين نصروا الإسلام وأقاموه وجاهدوا عدُوَّه مَن هو رافضي، ولا في الوزراء الذين لهم سيرةٌ محمودةٌ من هو رافضي»[٦].

وأضاف ابن تيمية في توصيفهم وصفات أبرز فِرَقهم ما يكشف عن حقيقة بُعدهم عن الإسلام وشرائعه: «وأما مَن هو عند المسلمين من أهل العلم والدين، فليس في هؤلاء رافضيٌّ؛ لظهور الجهل والظلم في قولهم، وتجدُ ظهور الرفض في شرِّ الطوائف؛ كالنصيرية والإسماعيلية والملاحدة الطُّرُقية، وفيهم من الكذب والخيانة وإخلاف الوعد ما يدلُّ على نفاقهم، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) زاد مسلم: (وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم)[٧]»[٨].

كما أنَّ من خلاصات ابن تيمية ما أورده من المقارنات بين أهل الباطل، حينما قارن بين الرافضة الشيعة والتتار قبل إسلامهم، فقال: «ولهذا يُخبر أهل الشرق القادمون من تلك البلاد: أن الرافضة أضرّ على المسلمين من التتر، وقد أفسدوا مَلِك التتر وميَّلوه إليهم، وهم يختارون دولته وظهوره، فكيف يجوز أن يكون في عسكر المسلمين من هو أشدّ عداوةً وضررًا على المسلمين من التتر؟!»[٩].

بل إنَّ ابن تيمية أوضَحَ الفروقات بين من لا دين له -مثل التتار- وبين من يَدينُ بعقيدةٍ باطلةٍ معاديةٍ للإسلام كما هو حال الشيعة الرافضة، ومما قال: «والتتريُّ إذا عَرَف الإسلام ودُعي إليه أحبّه واستجاب إليه؛ إذ ليس له دينٌ يُقاتِلُ عليه يُنافي الإسلام، وإنما يُقاتِل على المُلك. وأما الرافضة فإنَّ من دينهم السعيَ في إفساد جماعة المسلمين وولاة أمورهم، ومعاونة الكفار عليهم؛ لأنهم يرون أهل الجماعة كفارًا مرتدِّين، والكافر المرتدّ أسوأ حالاً من الكافر الأصلي، ولأنهم يرجُون في دولة الكفار ظهورَ كلمتهم وقيام دعوتهم ما لا يَرجونه في دولة المسلمين، فهم أبدًا يختارون ظهور كلمة الكفار على كلمة أهل السنة والجماعة، كما قال النبي ﷺ في الخوارج: (يقتُلون أهل الإسلام ويَدَعُونَ أهلَ الأوثان)[١٠]. وهذه سواحل المسلمين كانت مع المسلمين أكثر من ثلاثمائة سنة، وإنما

(١) منهاج السنة النبوية، (٣٦٣/٤).
(٢) المرجع السابق (٣٧٠/٦).
(٣) المرجع السابق (٣٧٤/٣).
(٤) المرجع السابق (٤١٥/٧).
(٥) المرجع السابق (٣٧٨/٣).
(٦) المرجع السابق (٨٠/٢-٨١).
(٧) أخرجه البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).
(٨) منهاج السنة النبوية (٨١/٢-٨٢).
(٩) جامع المسائل، لابن تيمية (٢١٣/٧).
(١٠) أخرجه البخاري (٣٣٤٤) ومسلم (١٠٦٤).

تسلَّمها النصارى والفرنج من الرافضة، وصارت بقايا الرافضة فيها مع النصارى»[١].

وعن هؤلاء -رافضي الحق- كتب تلميذه ابن القيم رحمه الله واصفًا هؤلاء بأنهم أعداء خيار خلق الله بعد الرسل، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، ومن ذلك قوله: «فإنهم [الشيعة الرافضة] عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادَوهم وتبرَّؤوا منهم، ثم والَوا كلَّ عدوٍّ لهم من النصارى واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصَرَّحُوا بأنهم خيرٌ منهم»[٢].

وقوله كذلك عن بُعدهم عن الإسلام وشرائعه، بل ومعاداة المسلمين: «ولهذا تجد الرافضة أبعدَ الناس من الإخلاص، وأغشَّهم للأئمة والأمة، وأشدهم بعدًا عن جماعة المسلمين؛ فهؤلاء أشدُّ الناس غِلاً وغِشًا بشهادة الرسول ﷺ والأمة عليهم، وشهادتِهم على أنفسهم بذلك، فإنهم لا يكونون قطُّ إلا أعوانًا وظهرًا على أهل الإسلام، فأيُّ عدوٍّ قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطانته، وهذا أمر قد شاهدتْه الأمة منهم»[٣].

إنَّ هذه الأقوال وغيرَها كثير يَبرز فيها تلاقي حقيقة الأهداف الباطنية بين السابقين واللاحقين، وبين الماضي والحاضر من التاريخ، وهي نتائج قطعية الدلالة وقواسم مشتركة بين علماء أمة الإسلام؛ لكن السؤال هنا: هل تلتقي كل النتائج العلمية مع الواقع السياسي المعاصر للشيعة؟

> **«تتملَّكُني الحيرة والدهشة عندما أرى أنَّ شعار الشيعة هو حبُّ الإمام علي وأولاده، ولكنهم يضربون عرض الحائط سيرة عليٍّ والأئمة من ولده»**
>
> **موسى الموسوي**

بين النتائج والواقع المعاصر:

قد يقول قائلٌ إنَّ الكتب المتخصصة في العقائد المنحرفة والملل الفاسدة تتعلق بفرق عقائدية قديمة عفى عليها الزمن، ولا علاقة لها بالرافضة ممن يُسمَوْن الشيعة في العصر الحاضر، لكن النتائج البحثية تقول غير هذا كما هي نتائج كتب وأبحاث الدكتور ناصر بن عبد الله القفاري -المتخصص في الفِرق- وهي متفقة مع السياق العلمي السابق واللاحق حول حقيقة الأهداف لدى الشيعة، ومن هذه الرسائل رسالته للماجستير «مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة»، وكذلك رسالة الدكتوراه «أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية: عرض ونقد»، وغيرها من مؤلفاته. وكما هي كُتب الدكتور سليمان السلومي برسالته للماجستير «القرامطة: تاريخهم وآراؤهم الاعتقادية»، وبرسالته للدكتوراه «أصول الإسماعيلية: دراسة وتحليل ونقد».

ومن التأصيلات العلمية التي توصَّل إليها الباحث القفاري حول حقيقة معتقد الرافضة الشيعة ما نقله كذلك عن الشيخ محمد أبو زهرة حول كتاب «الكافي» المرجعية العلمية الشيعية وما فيه من كفريات وضلالات، مما يربط عقائدهم بين الأمس واليوم، وذلك بقوله: «يقول الشيخ محمد أبو زهرة -رحمه الله- عن كتاب أصول الكافي، وصاحبه الكليني، وهو أعظم كتاب لديهم، وأهم مصدر ومرجعية عندهم: «إن صاحب الكتاب، قَرَّرَ أنه يعتقد القول بتحريف القرآن ونقصه وتغييره»، ويُعلِّق القفاري على هذا القول: مَن هذه عقيدته فليس مِن أهل القبلة[٤]، وليس من المسلمين، ويتلقون دينهم عن غير المسلمين، ولذلك يخطئ من يُعرِّف بهم بأنهم أتباع أهل البيت»[٥].

والدكتور موسى الموسوي -من علماء الشيعة الناقدين المعاصرين- يقرِّر في كتابه الفاضح لعقائد الشيعة، حجمَ التناقض الكبير مع مبادئ الإسلام الصريحة، وهو ما يُوضح كذلك الأهداف الحقيقية لهذه العقائد الباطنية في عصرنا الحاضر، بقوله: «إنَّ

(١) جامع المسائل (٢١٣/٧).

(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٧٢٤/٢-٧٢٥).

(٣) المرجع السابق (١٩٩/١).

(٤) أهل القبلة: هم من يؤمنون بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولاً، وبالقرآن كتابًا، وبالكعبة قبلة، ويؤمنون بالبعث والنشور والحساب والجنة والنار، وغير ذلك مما له علاقة بمجمل قواعد الإسلام وكلياته. يقول الإمام الطحاوي: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين» مقالة في مجلة البيان، بعنوان (أهل القبلة) لعبد الباسط الشيخ إبراهيم، العدد ٣٦٦، بتاريخ ١٩ أكتوبر ٢٠١٧م.

(٥) محاضرة بعنوان: (مدخل إلى كتب الفرق والردود - الجزء الثاني)، للدكتور ناصر بن عبد الله القفاري، على منصة Toutube بتاريخ ٢٦ جمادى الآخر ١٤٣٦هـ.

ولاية الفقيه تلعبُ دورًا بارزًا في إحداث تناقضٍ مع مبادئ الإسلام الصريحة»[١]. بل إنَّ الموسويَ يدعو إلى الثورة على زعامات الشيعة الدينية إذا ما أرادوا أن يكونوا مسلمين حقًا، وذلك بقوله: «إنَّه نداء العقل والإيمان إلى الشيعة؛ كي تنفُض عن نفسها غبار السنين، وتثورَ ثورةً لا هوادة فيها، ولا انتظار على تلك الزعامات المذهبية التي سبَّبت لها هذا التخلُّف الكبير في الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية»[٢].

والحقيقة أنَّ المتأمل في العقائد وبعض الأحداث والوقائع؛ يُدرك أنَّ عقائد اليوم ترتبط بعقائد الأمس، وإن اختلفت الأسماء، وتنوَّعت أساليب التعصُّب والكراهية وأشكال الصراع لديهم، فالعقيدة واحدةٌ، كما أنَّ الأهداف واحدة.

وحول هذا الواقع المعاصر لهذه الملل والنحل المنحرفة وأنها باقية، بل تكفيرُهم لأهل السنة مُحرِّكٌ أساسيٌّ في العصر الحاضر للصراعات والحروب والفتن، واستحلال الدماء والأموال والأعراض، وردت تصريحاتٌ وأقوالٌ لقائد الثورة الإيرانية الخُميني ١٩٧٩م، تكشف عن عنصريةٍ فارسيةٍ مقيتةٍ، وعن طائفيةٍ تكفيريةٍ تستهدف عموم أهل السنة بمشروعٍ طويل الأجل، فالخميني يُسمي أهل السنة (نواصب وخوارج) ويُكفِّرهم، ومن ذلك قوله في كتابه تحرير الوسيلة (١/١١٨): «وأما النواصب والخوارج -لعنهم الله تعالى- فهما نجسان من غير توقُّف». وقال أيضًا في تحرير الوسيلة (٢/١٤٦): «فتحلُّ ذبيحة جميع فِرَق الإسلام عدا الناصبي، وإن أظهر الإسلام»[٣].

وفي كتابه (تحرير الوسيلة) يُوضح بجلاء عداوة أهل السنة، ووجوب محاربتهم في العصر الحاضر، وذلك بقوله: «والأقوى إلحاق الناصبي بأهل الحرب في إباحة ما اغتُنِم منهم وتعلق الخُمس به، بل الظاهر جواز أخذ ماله أينما وُجِد، وبأيِّ نحو كان، ووجوب إخراج خمسه»[٤]. فالخميني يَعدُّ الناصبيَّ (أهل السنة) أشدَّ كفرًا من اليهود والنصارى.

ويُضاف إلى ما سبق تصريح علي خامنئي المرشد الأعلى الإيراني في الوقت الذي يتعرَّض فيه الشعب السُني الفلسطيني إلى أبشع صور القتل والتصفيات والإبادة والتهجير عام ٢٠٢٤م على يد الصهيونية العالمية، وكأنَّ هذا التصريح إثباتٌ وتأكيدٌ إيرانيٌ مباشر وغير مباشر لإكمال مشروع استهداف أهل السنة بتصفيتهم في فلسطين وما حولها بعد العراق وسوريا، وبعد لبنان واليمن، وذلك بقوله عن أهل السُنة الذين يُعبِّر عنهم بمصطلح (اليزيدية)، وذلك في عدة تدوينات وتغريدات في منصة إكس (X) بتاريخ ٢٥ أغسطس ٢٠٢٤م: «المعركة بين الجبهة الحسينية والجبهة اليزيدية لا تنتهي أبدًا». وفي تغريدة أخرى قال: «حدّد الإمام الحسين أثناء خروجه إلى كربلاء هدف الجبهة الحسينيّة، ألا وهو الجهاد ضد الظلم. فمقابل هذه الجبهة تقف جبهة الجور والظلم ونكث العهد الإلهي. إنكم ترون اليوم هذه المواجهة في العالم»[٥].

كما قال في تغريدة ثالثة، وحرب الإبادة لا تزال دائرة على أهل السنة في فلسطين، وهي إبادة بشكل مختلف عن العراق وسوريا: «تأخذ المعركة بين الجبهة الحسينية والجبهة اليزيدية أشكالاً مختلفة؛ ففي عصر السيوف والرماح لها شكلُها الخاص، وفي عصر الذرّة والذكاء الاصطناعي لها شكلٌ آخر، وفي عصر الدعاية والإعلام عبرَ الشعر والبيان والكلام لها شكلُها أيضًا، وفي عصر الإنترنت والكوانتوم وما إلى ذلك، لها شكلٌ مختلف»[٦].

ويؤصل خامنئي لمعركته المعاصرة ضد أهل السنة في تدوينة رابعة له عبر منصة إكس: «المعركة بين الجبهة الحسينية والجبهة اليزيدية هي معركة مستمرة، وقد حدّد الإمام الحسين (ع) ماهيّة هذه المعركة وهدفها، قائلاً: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من رأى سلطانًا جائرًا) القضيّة قضيّة الظلم والجور؛ الجبهة الحسينية تقاوم اليوم الجبهة اليزيديّة، أي جبهة الظلم والجور»[٧]، وهي تصريحاتٌ مباشرةٌ في مشروعية تقتيل أهل

(١) الشيعة والتصحيح، ص (٧٦).
(٢) المرجع السابق، ص (٧).
(٣) (كلام الخميني في أهل السنة)، زيد عبد العزيز الفياض، مقال بعنوان: بتاريخ ٢٦ أغسطس ٢٠١٠م، على موقع الألوكة alukah.net.
(٤) المرجع السابق.
(٥) مقالة على موقع سي إن إن عربية arabic.cnn.com، بعنوان: (إيران.. علي خامنئي يشعل ضجة بتدوينة «المعركة لا تنتهي أبدًا» بين الشيعة وأنصار يزيد بن معاوية)، بتاريخ ٢٦ أغسطس ٢٠٢٤م.
(٦) المرجع السابق.
(٧) المرجع السابق.

السنة، وتتكامل مع مخطط إكمال استهداف أهل السنة فيما بقي من دول العالم العربي، تماهيًا أو تقاطعًا في المصالح مع الصهيونية العالمية، والصليبية الغربية، أو تعاونًا معهما.

ويُعزز هذا التوافق وتقاطع المصالح بين القوى الثلاثة ما صَرَّح به وزير الخارجية الإيرانية بالنيابة علي باقري كني بتاريخ ١٣ يونيو ٢٠٢٤م، وذلك خلال مؤتمر صحفي مشترك مع مستشار الأمن القومي العراقي، حيث قال بوضوح تام: «خلافات أمريكا مع إيران ترجع إلى الحصة التي خصَّصوها لنا، نحن لم نقبل بذلك، ونسعى للحصول على حصَّتنا في المنطقة»![١]، وهو تصريحٌ يكشف عن قناعٍ واضح من التعصب والكراهية، وخطط الصراع والحروب في العصر الحاضر كما هو في العصر الماضي.

إنَّ المتأمل في عقائد الرافضة وبعض الأحداث والوقائع التاريخية؛ يُدرك أنَّ عقائد اليوم ترتبط بعقائد الأمس، وإن اختلفت الأسماء، وتنوَّعت أساليب التعصُّب والكراهية وأشكال الصراع لديهم، فالعقيدة واحدةٌ، كما أنَّ الأهداف واحدة

الرعاية الغربية:

حول توافق هذه الأيديولوجية بين شيعة الأمس واليوم، وأنها واحدة، وإن اختلفت الوسائل والأساليب؛ كما أوضح عن هذا بصورةٍ مفصَّلةٍ خامنئي، كَتَبَ العلامة الشيخ حسين عبد القادر المؤيد -وهو المهتدي من طائفة الشيعة- وأوضح بما هو أكثر حول العلاقات الدولية بين إيران والصهيونية العالمية وتقاطُع مصالحهما بما يمكن تسميته بالرعاية الغربية: «الغرب يرعى التمدُّد الشيعي. اليوم أيُّ عملٍ دعوي بسيط يُوصف بالإرهاب إذا كان من أهلٍ السنة والجماعة، أي عمل خيري يُمنع، أراد أهل السنة أن يفتحوا مدرسة في أفغانستان فمنعتهم أمريكا، وجاء خامنئي وفتح جامعة كبرى في كابول السنية التي ليس فيها شيعي؛ جامعة كبرى، وأجُيز. فالغرب يرعى التمدُّد الشيعي، ويريد لهذا التشيُّع أن يمتدَّ، لأنَّه صنيعةُ هؤلاء أصلاً تاريخيًا، فهؤلاء يرعون صنيعتهم، هم صنعوا التشيع وأرادوه أن يبقى إسلاميًا... وهؤلاء الشيعة أرادوا لهم أن يقولوا: نحن المسلمون، نحن جزء من هذه الأمة كي يستطيعوا أن يلعبوا الدور»[٢]، وهذا الموقف الغربي يؤكِّد حقيقة المشروع الإيراني المكتوب عنه في كثيرٍ من الوثائق والكتب التي تؤكد أنه مشروع فكري عقدي سياسي توسعي، لا يمكن أن يتوافق مع أي جهود مصالحة أو سلام مع العالم العربي والإسلامي.

كما أنَّ من يتأمَّل كتاب (استهداف أهل السنة)[٣] للباحث المُنصف الماروني النصراني نبيل خليفة يُدرك أن العقائد القديمة هي العقائد المعاصرة، والمشروع القديم ضد أهل السنة هو المشروع الحديث، وإن اختلفت بعض الوسائل؛ فالأهداف تتفق بين الأمس واليوم بالأقوال والأعمال في عداوة أهل السنة، بدعمٍ غربي مكشوف، ومن ذلك قول خليفة: «ملامح مشروع الآخرين [الغربي] واضحة: إقامة شرقٍ أدنوي أقلّوي خالٍ من النفوذ السياسي السُّني، ومحكوم بالنفوذ الشيعي الإيراني، برضىً إسرائيلي، ودعم غربي روسي»[٤].

وفي كتاب (صحوة الشيعة)[٥] للمؤلف الخبير الإيراني الأمريكي ولي نصر الذي يعمل مع المحافظين الجُدد من مجموعة رامسفيلد في أيام الرئيس الأمريكي بوش، ما يكشف بوضوح عن الموقف الدولي المساند للتشيع الإيراني بمشروعه التوسعي، خاصةً بعد المشهد الشيعي المُتَشَكِّل بالثورة الإيرانية عام ١٩٧٩م، ثم ما حدث من تسليم للعراق لطائفة الشيعة.

وقد نال كتاب صحوة الشيعة هذا تقريظاتٍ غربية؛ من أبرزها قولُ أحدهم من الكونجرس الأمريكي: «من يريد أن يتعرَّف على الاتجاهات المستقبلية للسياسة الأمريكية عليه أن يقرأ هذا الكتاب، فعند قراءته سيجد القارئ أن من خلاصته لدى صاحب القرار الأمريكي

(١) مادة على موقع: إيران إنترناشنال iranintl.com/ar، بعنوان: (وزير الخارجية الإيراني بالإنابة: خلافنا مع الولايات المتحدة حول حصتنا في المنطقة)، بتاريخ ١٣ يونيو ٢٠٢٤م.

(٢) محاضرة بعنوان: (المخاطر الأمنية والعسكرية للتشيع)، لحسين بن عبد القادر المؤيد، في برنامج (مجالس الطيبين) قناة طيبة الفضائية، بتاريخ ٣١ أغسطس ٢٠١٦م، على منصة يوتيوب Youtube.

(٣) كتاب استهداف أهل السنة -من يتزعم العالم العربي- الإسلامي السعودية أم إيران؟، لنبيل خليفة.

(٤) المرجع السابق، ص (٢٩).

(٥) كتاب صحوة الشيعة، لولي نصر.

بأنَّ أهل السنة هم الخطر على الغرب؛ فأهل السنة مشروعٌ نهضويٌّ يمكن أن ينفجر في أي لحظة من اللحظات! يجب علينا أن نخرج الشيعة من القُمْقُم، ونخلق كُتلاً سياسية، دولاً شيعية في وسط دُول أهل السنة، كي نمنع تماسُك الدول السنية، وكي تبقى هذه الكِيانات الشيعية مصدرًا لضرب الاستقرار في الدول السنية»[1].

ويؤكِّد هذه الاستراتيجية الغربية الإيرانية ما قاله بول بريمر Paul Bremer الحاكم المدني الأمريكي سابقًا للعراق، وذلك بعد احتلاله عام ٢٠٠٣م حول وُجوب تغيير ونقل حكم العراق من أهل السُّنة إلى طائفة الشيعة في العصر الحديث حينما أصدر: «مائة من المراسيم (الأوامر) ليعكس بها استراتيجية فريق الرئيس بوش الابن، ومن حوله مهندسو الحقبة التي أنهت حكمًا للسنَّة استمرَّ ألف عام، وأبرزهم نائب الرئيس ديك تشيني، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، ومساعده آنذاك بول وولفوفيتز وآخرون»[2].

ووُفق هذه المخرجات العلمية والواقع السياسي العالمي والإقليمي المفضوح، فلا غرابة فيما تداولته بعض وسائل الإعلام من أخبارٍ وتقارير؛ مما يؤكد على حقيقة التشيع الإيرانيِّ الصفوي الفارسي والعربي بين مخرجات الأمس واليوم، حيث يتم تجنيد مرتزقة من الطائفة الشيعية بعشرات الآلاف من باكستان، وتجنيسهم بالجنسيات العراقية والسورية واللبنانية واليمنية، ودمجهم في مكوِّنات تلك الدول، وذلك من بوابة العراق وكربلاء والنجف بمناسبة عاشوراء محرم ١٤٤٦هـ، إضافةً إلى تجنيس ودمج مئات الآلاف من الإيرانيين الشيعة خاصةً في العراق كما هو معروف إعلاميًا وسياسيًا، وحيث أن تجنيد المرتزقة يُعدُّ أمرًا متكررًا عبر التاريخ في استهداف أهل السنة بالقتل والتشريد؛ لذا فإن هذا الأمر يجبُ أخذه مأخَذَ الجد وبعين الاعتبار، فهذه الهجرات الباكستانية تُعدُّ استعداداتٍ عدوانيةً هُجومية، وليست حالاتٍ دِفاعية، وربما أنَّ ما خفي أعظم! ومن الوسائل الإعلامية التي كتبت عن هذه المخاطر الجديدة بتعليقاتها وتقاريرها ومصادرها الإخبارية؛ ما يدفع لقراءةٍ أكثر عن المشهد المستقبلي الخطير في تصدير الثورة الإيرانية ومخاطر مشروعات الإبادة السنية[3].

وما سبق حول وضوح عقيدة الشيعة الباطنية، إضافةً إلى ما ورد من تصريحات بأقوال عدائية وأخبار وتقارير جميعها تكشف للقارئ مدى أهمية القراءة والكتابة والنشر عن العقائد والأفكار المنحرفة في سابق التاريخ، وارتباطها بعقائد وأفكارِ الواقع المعاصر ارتباطًا تاريخيًا وثيقًا، خاصةً العقائد المناوئة لمنهج أهل السنة والجماعة، وهو ما يدعو للمراجعة المخلصة من قِبل بعض الرموز الدعوية والفكرية، المنخدعين بالنظام الإيراني وميليشياته الرافعين لشعار القدس! وأنهم مناصرون للقضية الفلسطينية! بل وإعادة النظر لدى هذه الرموز في المنطلقات الفكرية والتحليلات السياسية البعيدة عن البعد العقدي.

> **«أهل السنة مشروعٌ نهضويٌّ يمكن أن ينفجر في أي لحظة من اللحظات! يجب علينا أن نخرج الشيعة من القُمْقُم، ونخلق كُتلاً سياسية، دولاً شيعية في وسط دُول أهل السنة، كي نمنع تماسُك الدول السنية، وكي تبقى هذه الكِيانات الشيعية مصدرًا لضرب الاستقرار في الدول السنية»**
>
> الشيخ حسين بن عبد القادر المؤيَّد

وبوضوح هذا الانحراف العقدي في السابق واللاحق للتشيُّع، وما دَوّنه التاريخ بأحداثه المؤلمة، إضافةً إلى الواقع السياسي المعاصر للعدوان الاستراتيجي، فإن كل هذا مما يفرض على أمة الإسلام -حكوماتٍ وشعوبًا- أن يكون لها مشروعها الخاص المناوئ والموازي في القوة للمشروع الإيراني، مع التفريق في العلاقات الدولية للدول والحركات الإسلامية مع أي نظام يتبنى هذه العقائد المنحرفة، وبين اعتبار هذه العقائد الباطنية بأهلها -بالرغم من انحرافها العقدي- إخوةً وأنصارًا وأعوانًا في أي قضية إسلامية، حتى لو كانت فلسطين والقدس، دون اعتبارٍ للعقائد المنحرفة، والتاريخ الكاشف، والممارساتِ المفضوحة.

(١) محاضرة بعنوان: (المخاطر الأمنية والعسكرية للتشيع)، لحسين بن عبد القادر المؤيد، في برنامج (مجالس الطيبين) قناة طيبة الفضائية، بتاريخ ٣١ أغسطس ٢٠١٦ م، على منصة يوتيوب Youtube، الدقيقة ٤٠ فما بعد).

(٢) مقال بعنوان: (بريمر يعترف بأخطاء في قراري تفكيك البعث وحل الجيش)، علي بردي، صحيفة الشرق الأوسط، بتاريخ ٢٧ شعبان ١٤٤٤هـ.

(٣) تقرير صحيفة الشرق الأوسط، بعنوان: (٥٠ ألف باكستاني اختفوا في العراق)، بتاريخ ٢٠ محرم ١٤٤٦هـ، وينظر: مشاري الذايدي، بعنوان: (البحث عن ٥٠ ألف باكستاني من العراق لليمن)، صحيفة الشرق الأوسط، بتاريخ ٢٣ محرم ١٤٤٦هـ.

متى ننتصر على أعدائنا؟ ومتى ينتصرون علينا؟

د. محمد ماهر محمد قدسي (*)

يتناول المقال أسباب النصر والهزيمة بين الأمم من منظور إسلامي، موضحًا أهمية العقيدة والإيمان بالله كعناصر أساسية للنصر، بالإضافة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب المادية؛ كقوة السلاح والتكاتف، ويشير إلى أن الإعداد الجيد والعمل الجماعي يعززان فرص الانتصار، فيما يؤكد أنَّ ضعف الإيمان والاعتماد على القوة المادية -فقط- يؤدي إلى الهزيمة، وأكَّد على دَور الإيمان كدافعٍ للاستبسال وتحقيق التماسك.

مقدمة:

تُعَدُّ رابطة الدين أهم رابطة في الصراع بين الحق والباطل؛ فهي التي تصنع البطولات، وهي التي تجعل المقاتل مجاهدًا مستبسلاً مقدمًا غير مدبر، طالبًا إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

تناقش هذه المقالة دور رابطة الدين في تحقيق النصر، وتحاول الإجابة عن التساؤلين الآتيين:

١. ما هي أسباب تحقق النصر من المنظور الإسلامي؟

٢. كيف ينتصر الأعداء بغير دين؟

أولاً- أسباب تحقق النصر من المنظور الإسلامي:

١. قوة العقيدة بالله والتوكل عليه.

مَن آمن برب العالمين لزمه أن يعتقد أنه لا يجري في ملكه أمر إلا بمشيئته، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وهو الذي يذكرنا أيضًا بمعنى حصر النصر بيد القدرة الإلهية، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، إذ لا معنى لنصر أمة على أمة ونظام على نظام وما يترتب على ذلك من نتائج مهمة دون أن يكون هذا

(*) عضو هيئة تدريسية برتبة (أستاذ)، دكتوراه بمرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة.

التغيير مرتبطًا بالمشيئة الإلهية، وإذا كان الأمر كذلك لزم على المؤمن بمقتضى هذا الاعتقاد الذي يبعث فيه القوة ويدعوه إلى التفاؤل أن يعتمد أولاً على الله، يهتدي بهديه، ويستمد منه العون، ويتقيه ولا يعصيه، وبذلك يكون قد خطا الخطوة الأولى في طريق النصر.

ولعل من البدهي أن قوة العقيدة لها الدور الأكبر في تحقيق النصر، وضعف العقيدة يؤدي إلى حالة من الجبن والبخل بالنفس، فقوة العقيدة تهدي إلى مزيد من الاهتمام بالعلم، والتحقق بالشجاعة، وتعين على بذل الغالي وإرخاص النفس في سبيل تحقيق الأهداف السامية.

وعندما نتكلم عن سلامة العقيدة وقوتها نعني بها ذلك الإيمان الراسخ في القلب، والمؤثر في الجوارح والسلوك، والمنتج عملاً إنسانيًا صالحًا منضبطًا بضوابط الشرع الحنيف، وعليه كان الوعد الإلهي بالنصر والتمكين، بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

٢. الأخذ بجميع الأسباب وقوة السلاح.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومن قرأ السيرة النبوية عرف أن النبي ﷺ كان يأخذ بجميع الأسباب المتاحة ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء، حتى إنه ﷺ أمر بصناعة السيوف محليًا، لئلا تكون قوة المسلمين رهينة قرار غيرهم.

> **من البدهي أن قوة العقيدة لها الدور الأكبر في تحقيق النصر، وضعف العقيدة يؤدي إلى حالة من الجبن والبخل بالنفس، فقوة العقيدة تهدي إلى مزيد من الاهتمام بالعلم، والتحقق بالشجاعة، وكذلك أن ترخص النفس في سبيل تحقيق الأهداف السامية**

ومن هدي النبي ﷺ كان هدي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أرشد بقوله: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وهو يعلم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة»(١).

وينتقد الأمير شكيب أرسلان ما انتشر بين المسلمين من شحٍّ وبخل ونكوص عن التضحية معتبرًا ذلك نكوصًا عن الأخذ بأسباب النصر، وهو ناتج عن ضعف الإيمان(٢).

ومن الأخذ بأسباب النصر: تكاتف المجاهدين مع إخوانهم في خندق الإيمان، ونبذ الخلاف المؤدي إلى نزاع يفرِّق الصف ويضعفه، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، والله تعالى يكره أن يتفرق عباده، ويحب من يقاتلون في سبيله صفًا واحدًا، يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وورد في الحديث: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(٣).

> **من الأخذ بأسباب النصر: تكاتف المجاهدين مع إخوانهم في خندق الإيمان، ونبذ الخلاف المؤدي إلى نزاع يفرِّق الصف ويضعفه**

ثانيًا- كيف ينتصر الأعداء بغير دين؟

مع عدم اعتماد الأعداء على الله، واستمداد العون منه على نحو عقيدتنا، وخلو فلسفتهم من ذلك، لكنهم ملكوا السبب الثاني وهو الأخذ بالأسباب المادية (قوة السلاح):

١. من خلال تمكنهم من العلوم المادية الحديثة، ولم يسبق أن ملكته أمة من قبلهم، ومن ذلك سلاح الطيران والنووي وما شابه ذلك.

٢. وهم يد واحدة على مَن سواهم، مهما اختلفت اتجاهاتهم الفكرية، فنرى النصارى مع اليهود يدًا واحدة على أمة الإسلام، رغم ما حصل في تاريخهما من دماء فيما بينهما.

(١) إحياء علوم الدين (٦٢/٢).
(٢) ينظر: لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟ ص (٨٢) وما بعدها.
(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦) واللفظ له.

٣. ويملكون بعض المثل التي تغريهم بالثبات في ساحة القتال، وإن كان لا يبلغ المستوى الكامل الذي رسمته لنا عقيدتنا في حب الشهادة والفداء، وهم بما يملكون من القوة والوحدة ... إنما يعملون بتوجيه الدين، وإن لم يعتقدوا به.

فعندما لا يملك الطرفان فضيلة (التوكل على الله) من ناحية، ويملك العدو قوة السلاح بأعلى استعداد له؛ تكون الغلبة لهم بالقوة المادية، فالمنطق يقول: «إذا خلا الطرفان من الدين، انتصر الذي يملك القوة الكبرى» بحكم العدل الإلهي وأسبابه.

وقد ورد في الأثر عن سيدنا عمر بن الخطاب وهو يخاطب الجند: «فإذا استويتم أنتم وعدوكم في المعصية، كانت الغلبة لهم بعدتهم وعتادهم»[١].

لذا فإن الهزائم والنكسات التي أصبنا بها في كل المعارك التي خضناها مع اليهود كما يقول د. عبد الله علوان: «كانت نتيجة بُعد العرب عن الله، وتنكُّرهم للإسلام، وانغماسهم في المعاصي والذنوب والآثام، وهزيمة الروح والخلق التي مُني بها شبابنا وشاباتنا في هذا العصر»[٢].

ويؤكد الدكتور مصطفى السباعي أن النصر بين قوتين غير متكافئتين لا يتم إلا بعون من الله وتوفيقه، وعون الله لا يعطى إلا لمن اتقاه، وأناب إليه، ولزم حدود شريعته فيما أمر ونهى، فإن لم يفعل المحاربون ذلك خذلهم وتركهم إلى أنفسهم، وأمضى فيهم سننه في الحياة: الأقوى يغلب الأضعف، والأكثر يغلبون الأقل[٣].

وينبه د. السباعي أيضًا إلى أن دول أوربا تحاول أن تغيِّب مصطلح (الجهاد) من قاموس المسلمين؛ لأنهم يدركون أنه يحمل قوة معنوية تستطيع قهر الصهاينة وإجهاض مؤامرتهم الآثمة[٤].

ومما يؤكد ما ذهب إليه السباعي رحمه الله ما نذكره من موقف الدعم اللامحدود الذي أولته بريطانيا لفرقة البهائية، التي من أهم مبادئها إعلان نسخ فريضة الجهاد في سبيل الله.

ومن هنا يؤكد العلامة محمد المبارك على أن الذين يُتوقع منهم تحرير الأرض هم الواثقون بربهم، والمتحررون في نفوسهم، فلا تبعية ولا إملاءات خارجية أو داخلية[٥].

والإيمان الذي يبني القوة يتجسد -كما يرى بعض المفكرين[٦]- في أمرين:

١. العنصر الإيجابي: ويتمثل في الرصيد الذاتي للقوة.

٢. العنصر السلبي: ويتمثل في عدم قدرة الآخرين على إضعافه.

وأما «الأمة الكثيرة العدد، الضعيفة في قوتها، فإن الإسلام لا يرحب بها، بل يفضل عليها القوة المتوازنة، التي تفعل في الحياة بدلاً من أن تنفعل بها، وتقود حركة التاريخ بدلاً من أن تقودها القوى التي تتحرك في مسيرة التاريخ»[٧].

ومن هنا يمكن فهم الآية: ﴿كَم مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وعليه تُفهم قصة طالوت وجالوت، حيث كان معسكر الإيمان قلة قليلة بجانب معسكر الكفر المدحور، بخلاف معركة حنين، حيث قال المسلمون: «لا نُغلب اليوم من قلة» ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

> **عندما لا يملك الطرفان فضيلة (التوكل على الله) من ناحية، ويملك العدو قوة السلاح بأعلى استعداد له؛ تكون الغلبة لهم بالقوة المادية، فالمنطق يقول: «إذا خلا الطرفان من الدين، انتصر الذي يملك القوة الكبرى» بحكم العدل الإلهي وأسبابه**

ولعلَّنا ندرك أن واقع المشروع الصهيوني يستند إلى القضية الدينية، ولولا نصوص التوراة المحرَّف

(١) ينظر: بدائع السلك في طبائع الملك، للأصبحي الأندلسي (٢١١/١).
(٢) الإسلام والقضية الفلسطينية، للدكتور عبد الله علوان، ص (٩٩).
(٣) رمضان ومؤتمر القمة، د. مصطفى السباعي، مجلة حضارة الإسلام، سنة٤، عدد٦، شعبان١٣٨٣هـ/١٩٦٤م
(٤) ينظر: حقيقة المعركة بين الإسلام والاستعمار، د. مصطفى السباعي، مجلة حضارة الإسلام، السنة٣، العدد /١٠/ ذو الحجة ١٣٨٢/١٩٦٣م.
(٥) نحو وعي إسلامي جديد، لمحمد المبارك، ص (٣٨).
(٦) ينظر: الإسلام ومنطق القوة، لمحمد حسين فضل الله، ص (٧٠-٧١).
(٧) المرجع السابق، ص (١٤٩).

لديهم، والتي يستندون إليها في وجودهم لما كان لهم وجود يُذكر[١].

واليهودي الأمريكي أو البولندي الذي ترك وطنه، وخاطر بنفسه، وعاش مهددًا في فلسطين، لم تكن حياته في أمن ورفاهية، بل ضحى بكل شيء لأجل أرض الأجداد والميعاد[٢].

وقد قدم لنا المفكر سعيد النورسي نظرية في هذا الشأن، وهي أن هناك طاعتان لله، طاعة الالتزام بالشريعة، وطاعة أخرى تتعلق بالتفوق علميًا وكونيًا، فقد يكون المجتمع طائعًا لله تعالى في سلوكه، ثم تراه في الأخذ بأسباب التفوق والإعداد للعدو عاصيًا لله، فلا عجب ألا يتحقق النصر عندئذٍ[٣].

وبتعبير آخر: إن للنصر منهاجين:

١. المنهاج الوضعي، ويشتمل على سببين: (العقيدة الوضعية، وقوة السلاح).

٢. المنهاج الرباني، ويشتمل على سببين: (العقيدة الإلهية، وقوة السلاح).

يستوي المنهاجان في تقرير التسلح، ويتراجع المنهج الوضعي أمام المنهج الرباني في: (العقيدة والعون الإلهي).

أما العقيدة فلأن العقيدة الربانية مبنية على يقين، وهادفة إلى قيم ومثل، فهي أعمق من العقائد الوضعية، وأقوى على تحريك المشاعر البشرية، وأشد تثبيتًا للمقاتل.

وبذلك يفضل المنهج الرباني المناهج الوضعية، وهو فضل يؤيده العقل والبرهان، على مستوى البحث والتدقيق والتجربة، والواقع على مستوى حوادث التاريخ.

ومن هنا نرى أن عموم الدول الغربية تعادي الجيوش ذات الصبغة الدينية في البلاد العربية، لأنهم يدركون قوتها.

وبخصوص الثورة السورية المباركة التي بدأت شرارتها عام ٢٠١١م، وانتهت بسقوط النظام الإجرامي، الذي عاث فسادًا عظيمًا على أرض سورية وشعبها ومقدَّراتها... نجد هذا النظام البائد مفلسًا من حيث العنصر العقائدي للجيش،

(١) جاء في سفر التثنية ٢٤/١١ (كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان، من النهر -نهر الفرات- إلى البحر الغربي يكون تخمكم).
(٢) ينظر: حماس - الجذور التاريخية والميثاق، للدكتور عبد الله عزام، ص (٢٦).
(٣) ينظر: مثنوي مولانا جلال الدين الرومي، ترجمه وشرحه د. إبراهيم الدسوقي شتا، ص (٨٦).

لذا فإنّه استعان بالميليشيات الرافضية، والتي تحمل عقيدة (وإن كانت باطلة)، إلا أنّها تدفعها للاستمرار في القتال.

ونرى من المحاولات البائسة لدعم العناصر المقاتلة في النظام البائد ما شاهدناه على الشاشات من خطب لبعض شيوخ السلطان الذين سوَّلت لهم أنفسهم أن ينافقوا له لتحقيق غايات شخصية، ولو على حساب دماء الناس.

ومن المضحك أيضًا تلك الخطب التي كان يُهرِّج فيها ضابط[1] النظام الذي كان مجهولاً، وفجأة صنعوا منه أسطورة من خلال الإعلام المضلل، كان يخطب في مجموعاته خطبًا هزيلة، يحاول أن يضمِّنها من القيم الدينية والتاريخية، ليدفع بجنوده نحو الموت، ولكن هيهات لجندي كان يؤسَّسُ في جوٍّ من الرذيلة أن يتحول حاله إلى جندي عقائدي مستبسل.

> **العقيدة الربانية مبنية على يقين، وهادفة إلى قيم ومثل، فهي أعمق من العقائد الوضعية، وأقوى على تحريك المشاعر البشرية، وأشد تثبيتًا للمقاتل**

خلاصة القول في تحقيق النصر:

يمكن حصر نتائج البحث في نقاط ثمان:

١. إن الإيمان بالله يعطي الإنسان قوة معنوية مضاعفة، يشعر معها بارتباطه بالقوة الأعظم، التي تملؤه بالإحساس بحمايتها له من كل قوىً أخرى، ولذا فإنه لا يعيش روح الخضوع للقوى البشرية، مهما كانت درجة قوتها وسلطتها.

٢. إن الإيمان بالله يوحِّد الهدف أمام الإنسان، فيحسُّ معه بقيمة الهدف من ناحية دينية، لا من ناحية وجدانية ذاتية فحسب.

٣. إن الإيمان بالله يفرض على المقاتلين الإخلاص لقضية القتال، بإعداد كل الوسائل اللازمة لها، فإن من أحكام هذا الإيمان إعداد القوة، وأسلوب المواجهة الشاملة، ومن أحكام هذا الإيمان: الصمود في المعركة حتى الاستشهاد، مهما بلغت درجة الخطورة في حركة المعركة، نحو النصر أو الهزيمة.

٤. إن الإيمان بالله تعالى يجعل المؤمن يحس بالربح في كلتا الحالتين، حالة الشهادة، وحالة النصر، وبذلك يتحول الإيمان إلى عنصر فاعل، يضمن للإنسان النصر، ويهيئ للمجتمع عناصر جديدة للقوة في الحياة.

٥. إن معاركنا الحاضرة التي نواجه فيها قضايا المصير لا يكفي القول فيها: إن علينا أن نؤمن لننتصر -بالمفهوم الساذج لهذه الكلمة- بل يلزمنا القول: إن علينا أن نؤمن إيمانًا يدعونا إلى الإعداد لمعركة النصر من خلال مفهوم الإيمان، ونرتبط على أساس ذلك بالله الذي هو القوة المطلقة التي لا تقف عند حدٍّ، لنحصل على نتائج النصر من خلال حماية الله لنا في حالات المواجهة للأوضاع المفاجئة وغيرها.

٦. إن فقدان الإيمان يجعل المعركة تفتقد جذورها، لأن هؤلاء الذين ينطلقون من خلال صفة معينة، أو انتماء محدد، يفقدون القضية الدافعة لمواجهة العدو عندما تفرغ قلوبهم من الإيمان بالله ورسالاته وقدره وسننه في الكون.

٧. قاعدة الأمر هي أن علاقة الإيمان بالقوة تتمثل في دور الإيمان في إعطاء المعركة قوة جديدة أساسية، تضاف إلى بقية القوى التي تفرض النصر، مما يجعل عناصر القوة متكاملة في حركة المعركة ونموها، بينما يتحول ابتعاد المعركة عن الإيمان إلى معركة لا روح فيها ولا حياة، ولا تقدم ولا استبسال.

٨. إن ما تشهده القضية الفلسطينية من هزائم ونكسات مُني بها المسلمون ليس سببه إلا نتائج حتمية لغيبة الإسلام القسرية عن ساحة القضية الفلسطينية، ونحن ندرك ونؤمن أن عودة الإسلام إلى ساحة القضية ستضع حدًا لكل التناقضات والنكسات والنكبات والهزائم والخيانات[2].

(١) هو الضابط المدعو: سهيل الحسن، عليه من الله ما يستحق.
(٢) ينظر: الحركة الإسلامية وقضية فلسطين، لزياد أبو غنيمة، ص (٧).

هل ولّى دور المجوس؟

جهاد بن عبد الوهاب خيتي (*)

أصدر الشيخ محمد سرور بن نايف زين العابدين -رحمه الله- كتابه «وجاء دور المجوس»، محذّرًا من الخطر القادم من رافضة إيران بعد الثورة التي قادها الخميني عام ١٩٧٩، ومنذ ذلك التاريخ خاضت الأمّة تجارب متعدّدة مع الرافضة وذاقت منهم الويلات، حتى انكسروا في بلاد الشام وزال نفوذهم إلى غير رجعة بحول الله، لكن يبقى سؤالٌ مهم يدور في الأذهان: هل ما يزال خطر المجوس قائمًا أم أنّه ولّى؟ هذا ما سيجيب عليه هذا المقال.

مدخل:

ليس كلّ الشيعة مجوسًا، فهم فِرقٌ متعدّدة متباينة في الاعتقاد[١]، فمنهم التفضيلية: الذين يفضّلون عليًّا على سائر الصحابة ﷺ دون تكفيرهم أو سبّهم، ويعترفون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ، ومنهم الزيدية، وهؤلاء لا تصح نسبتهم إلى المجوسية.

ومنهم الغلاة: مذهبهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض، يقولون بتناسخ الأرواح، وقِدَم العالم، وإنكار البعث والنشور، وأنّ عليًّا هو الربّ، وأنّ محمدًا هو الحجاب، وهؤلاء كفّار بإجماع الأمّة، وعقائدهم هي عقائد المجوس مغلّفة بغلاف إسلامي لا ينخدع بهم أهل العلم والمعرفة.

ومنهم الرافضة الاثنا عشرية الإمامية: وهؤلاء تغيّرت عقائدهم بعد حكم البويهيين والصفويين فدخلها الشرك والكفر، ومن أشهر عقائدهم: نسبة بعض صفات الربوبية لأئمتهم، وصرف أنواع من العبادة لهم، والطعن في الصحابة ﷺ، والقول بعصمة أئمتهم وأنّهم أفضل من الأنبياء وأنّهم يعلمون الغيب، وفي كثير من عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم لوثات مجوسية[٢].

(*) المشرف العام على موقع (على بصيرة)، ماجستير في السنة وعلوم الحديث.

(١) ينظر: وجاء دور المجوس، مقدمة الطبعة العاشرة، ص (٢٢-٢٣).

(٢) ومن ذلك: تعظيم عيد النيروز وهو من أعياد المجوس.

ولا شكّ أنّ زعماء وعلماء الرافضة -الموجودين الآن في إيران ويقودون عامّة الشيعة في العالم- يصرّحون بعقائد الكفر هذه رغم ادّعائهم الإسلام ونطقهم بالشهادتين، ويتمسّكون بما تسرّب إليهم من عقائد وعادات المجوس؛ فصاروا إلى المجوسية أقرب، إضافة إلى فخرهم بالقومية الفارسية وتقديمها على الإسلام، ولهم مشاريع سياسية توسّعية تهدف بالدرجة الأولى إلى القضاء على المسلمين أهل السنّة؛ لذا فإنّ خطرهم عظيم كخطر المجوس لو كانت لهم دولة.. هذا إن لم يصحّ وصفهم بأنّهم مجوس فعلاً.

زعماء وعلماء الرافضة يصرّحون بعقائد الكفر رغم ادّعائهم الإسلام ونطقهم بالشهادتين، ويتمسّكون بما تسرّب إليهم من عقائد وعادات المجوس؛ فصاروا إلى المجوسية أقرب، إضافة إلى فخرهم بالقومية الفارسية وتقديمها على الإسلام، ولهم مشاريع سياسية توسّعية تهدف بالدرجة الأولى إلى القضاء على المسلمين أهل السنة؛ لذا فإنّ خطرهم عظيم كخطر المجوس لو كانت لهم دولة.. هذا إن لم يصحّ وصفهم بأنّهم مجوس فعلاً

خطر المشروع الإيراني الرافضي:

يمثّل قيام دولة للرافضة خطرًا حقيقيًّا على المسلمين من أهل السنّة، وله بعدان رئيسان: البُعد العقدي، والبُعد السياسي/العسكري.

أولاً.. الخطر العقدي:

لا شكّ أنّ الانحراف العقدي لدى الرافضة كبير منذ البداية، وليس أدلّ على ذلك من أنّ أحد رجالات هذا المذهب وواضع أسسه العقدية هو عبد الله بن سبأ اليهودي الذي نقل ما وجده في الفكر اليهودي إلى التشيع، كالاعتقاد في علي ﷺ أنّه يعلم الغيب، ويقدر على أشياء لا يقدر عليها البشر، والقول برجعته، وإثبات النسيان على الله عزّ وجلّ تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا[1]. ورغم أنّ هذه العقائد كانت محصورة في أوّل الأمر في فرقة عُرفت بالسبئيّة، إلّا أنّها تسرّبت مع مرور الوقت لتصبح من عقائد الشيعة الرئيسة.

ونتيجة لانتهاج الرافضة منهج الغلوّ في علي ﷺ وسائر آل البيت؛ فإنّ الانحراف عن الدين القويم استمرّ في الازدياد مع مرور الزمن، حتى حصل الافتراق في أسس العقيدة، فلم يعد يجمعنا معهم -كما تنصّ مراجعهم المعتمدة- إلهٌ ولا نبيٌّ، قال نعمة الله الجزائري: «إنّا لا نجتمع معهم [أي مع أهل السنّة] على إله، ولا على نبي، ولا على إمام، وذلك أنّهم يقولون: إنّ ربّهم هو الذي كان محمد نبيّه، وخليفته من بعدُ أبو بكرٍ، ونحن لا نقول بهذا الربّ، ولا بذلك النبيّ، بلَ نقول: إنّ الربّ الذي خليفةُ نبيّهِ أبو بكر ليس ربّنا، ولا ذلك النبيّ نبينا»[2].

ولا يجمعنا معهم كتاب، فهم لا يؤمنون بالقرآن الذي أنزله الله على نبيّه ﷺ، ويكذبون على جعفر الصادق رحمه الله أنّه قال: «وإنّ عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام؟ ... مصحفٌ فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد»![3].

عوامل أسهمت في الانحراف العقدي لدى الرافضة الإمامية:

إضافة لطريقة نشوء هذه الفرقة فقد توفّر لها عدّة عوامل أسهمت بشكل كبير في وصولها إلى ما وصلت إليه الآن عبر الزمن، ومن أهم هذه العوامل:

١. اعتمادهم الكذب حتى صار منهجًا وسمة بارزة لهم، قال ابن تيمية رحمه الله: «وقد اتفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أنّ الرافضة أكذب الطوائف، والكذب فيهم قديم»[4]. وليس المراد بالكذب هنا كذبهم على مخالفيهم فحسب، وهو ما يسمّونه «التقيّة» ويجعلونه من صلب الدين، بل المراد: الكذب في اختراع الروايات والأخبار والقصص ونسبتها إلى أئمتهم، وبناء العقائد والعبادات والمعاملات عليها، حتى إنّ الكتب المعتمدة عندهم قد زِيْدَ

(١) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٥٢/١).
(٢) الأنوار النعمانية (٢٧٨/٢).
(٣) الكافي، للكليني (٢٣٩/١).
(٤) منهاج السنة النبوية (٥٩/١).

عليها كثيرًا كما ذكر ذلك كثير من علمائهم، فضلاً عن أنّ النصوص التي يروونها ليس لها أسانيد ولا يمكن إثباتها أبدًا، وبالتالي فدينهم قابل للتوسّع والتبديل والتحريف والزيادة والنقص، فشابهوا أهل الكتاب في ذلك، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

٢. دخول الفرس في المذهب الشيعي وتحريفهم له، قال ابن حزم رحمه الله: «فلما امتُحنوا [أي الفُرس] بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب وكانت العرب أقلّ الأمم عند الفرس خطرًا؛ تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيدَ الإسلام بالمحاربة في أوقات شتّى ... فرأوا أنّ كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قومٌ منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيّع بإظهار محبّة أهل بيت رسول الله ﷺ، واستشناع ظلم علي رضي الله عنه، ثم سلكوا بهم مسالك شتّى حتى أخرجوهم عن الإسلام»[١].

٣. فرض الانحراف من قِبَل الصفويين، الذين سعوا إلى إضفاء طابع ديني على حركتهم الشعوبية، من خلال تحويل الدين الإسلامي وشخصية محمد عليه الصلاة والسلام وعلي رضي الله عنه إلى مذهب عنصري، يؤمن بأفضلية التراب والدم الإيراني، والفارسي منه على وجه الخصوص، وبالذات السلالة الساسانية[٢].

وفي سبيل تعميق هذا التحوّل: «حرصت الحركة الصفوية على تعطيل أو تبديل الكثير من الشعائر والسنن والطقوس الدينية، وإهمال العديد من المظاهر الإسلامية المشتركة بين المسلمين. وفي الموارد التي كانوا يضطرّون إلى الأداء المشترك مع السنّة -كمراسم الحج مثلاً- حرص الصفويون على تضييق دائرة المشتركات فيها وتوسيع دائرة المختصّات؛ وذلك تفاديًا لاجتماع المسلمين سنة وشيعة في شعيرة دينية أو فريضة جامعة؛ ممّا يكرّس الشعور بأنّ الدين ليس واحدًا، فالصفوية تخشى من التفاهم والأخوّة والوحدة بين المسلمين، وتعتبرها خطرًا يهدد وجودها القائم على الاختلاف بينهم»[٣].

فالذي نراه الآن من عقائد الشيعة الرافضة الإمامية في إيران وتصرّفاتهم هو التشيّع الصفوي، وصار الشيعة بعامّة أقرب إلى الفرق الباطنية كالإسماعيلية والقرامطة.

هذا الخطر العقدي متوجّه نحو شيعتهم، وذلك من خلال الاستمرار في إضلالهم ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]، وتجييشهم لحرب أهل السنّة. ومتوجّه نحو أهل السنّة بمحاولة إغرائهم بالمال والشعارات الكاذبة للدخول في دينهم وعقيدتهم، وقد شهدت سوريا -على سبيل المثال- قبل بدء الثورة هجمة شرسة قادتها إيران بالتعاون مع الهالك جميل الأسد وجمعيته «المرتضى» لتشييع المسلمين في المناطق التي يغلب عليها الفقر والجهل، وتشييع النصيريين كذلك، وكان المركز الثقافي الإيراني في دمشق يوفّر الكتب الشيعية بمبالغ رمزية، كما أنّ إيران استطاعت -ومن خلال النظام البائد- فرضَ تدريس المذهب الجعفري في مدارس التعليم العام اعتبارًا من العام ٢٠١٤، وقامت ببناء الحسينيات والمراقد المزعومة لآل البيت وإقامة طقوس اللطم والتطبير في الأسواق والشوارع والميادين العامة في المدن السنية كدمشق حتى اتّشحت بالسواد.

ثانيًا.. الخطر السياسي والعسكري:

لجأ الرافضة بعد الغيبة الكبرى لإمامهم المزعوم «المهدي المنتظر» إلى القول بعقيدة التقيّة والانتظار؛ فلم يعدْ لهم سبيل لإقامة دولة حتى خروج إمامهم المسردب، ورغم شيوع هذه العقيدة بينهم إلا أنّها كانت محلّ نقاش على مرّ العصور، وكانت الفتوى بجواز مخالفتها سببًا من أسباب قيام الشاه إسماعيل الصفوي بغزو إيران مطلع القرن العاشر الهجري، والتنكيل بأهلها السنّة تنكيلاً ليس له نظير في التاريخ، وفرض التشيع على مَن بقي منهم[٤].

وفي العصر الحاضر تبنّى الخميني نظرية ولاية الفقيه، والتي تتيح له قيادة الدولة نيابة عن الإمام

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/٩١).
(٢) التشيّع العلوي والتشيّع الصفوي، د. علي شريعتي، ص (١٢٢-١٢٣).
(٣) المرجع السابق، ص (١٤٢).
(٤) يُنظر كتاب: «إيران الصفوية.. كيف صار الإيرانيون شيعة صفويين»، لمؤلفه الشيعي: أمير حسن خُنجي.

الغائب، فقاد ثورة في إيران عام ١٩٧٩، ثم عمل على «تصدير الثورة» إلى البلدان المجاورة؛ بهدف الوصول إلى قيادة العالم الإسلامي من خلال المنهج السياسي الشيعي، وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف كان على إيران أن تدخل في حرب مع جيرانها من الدول السنّيّة التي تعارض مشروعها، وكانت الضحية الأولى هي العراق، ثم امتدّ إجرامها إلى لبنان وسوريا إضافة إلى اليمن، مع التهديد المستمر لدول الخليج، والتفاوض مع الغرب لبسط نفوذ إيران عليها بالكامل[١].

للرافضة في إيران نهجٌ سياسيٌّ واضح يهدف لتصدير ثورتهم إلى البلاد المجاورة، والسيطرة على مناطق الهلال الشيعي كما يسمّونها، وقيادة العالم الإسلامي وفق النظرية السياسية الشيعية. كما أنّهم يعملون بجدّ واجتهاد لتطوير قوّتهم العسكرية الذاتية وامتلاك السلاح النووي، وفي هذا تهديد كبير للمسلمين ولأمن المنطقة كلها

وزن الخطر السياسي والعسكري لإيران:

للرافضة في إيران نهجٌ سياسيٌّ واضح يهدف لتصدير ثورتهم إلى البلاد المجاورة، والسيطرة على مناطق الهلال الشيعي كما يسمّونها[٢]، كما أنّهم يعملون بجدّ واجتهاد لتطوير قوّتهم العسكرية وامتلاك السلاح النووي، وفي هذا تهديد كبير للمسلمين ولأمن المنطقة ككل. إضافة إلى ذلك هناك عاملان آخران غاية في الأهمّية يزيدان من حجم هذا الخطر هما:

١. تحالفات إيران مع القوى العظمى المعادية للمسلمين كأمريكا وبريطانيا وفرنسا، بل إنّ هذه الدول كان لها دور في وصول الخميني إلى السلطة، وتأييد ثورته، والاعتراف بدولته، وإمداده بالقوة والسلاح والذي كان يأتي قسم كبير منه عبر إسرائيل[٣]؛ وذلك حتى تكون إيران أداتهم الفاعلة في زعزعة أمن المنطقة، واستخدامها للضغط على الدول السنّيّة المجاورة لها بهدف السيطرة عليها سياسيًا وعسكريًا واستنزافها اقتصاديًا.

وقد نتج عن هذه التحالفات: مساعدة إيران سرًا للوقوف صامدة أمام العراق في حرب الخليج الأولى (١٩٨٠-١٩٨٨)، ثم تسليم العراق لإيران بعد انتهاء العمليات القتالية في حرب الخليج الثانية التي قامت بها قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية[٤].

كما نتج عنه: السماح للنظام المجرم في سوريا بالاستعانة بإيران في حربه ضدّ المسلمين، حيث دخلت إيران وميليشياتها التي جنّدتها من شيعة أفغانستان وباكستان والعراق ولبنان لتعيث في سوريا فسادًا وقتلاً وتشريدًا لأهل السنّة على مرأى ومسمع من العالم.

وكان للتحالف بين أمريكا وإيران دور كبير في احتلال أمريكا لأفغانستان، بحسب تصريحات الزعماء الإيرانيين.

٢. ولاءُ غالب الشيعة أينما كانوا لإيران، وذلك لأنّهم يعتقدون وجوب طاعة «الولي الفقيه» قائد الشيعة في العالم؛ وبالتالي فطاعته والولاء له أهمّ من الولاء للوطن الذي ينتمون إليه، وهم مستعدّون في سبيل ذلك للوقوف ضدّه متى ما أمروا بذلك، والأمثلة على ذلك كثيرة، أشدّها وضوحًا ما كان يفعله «حزب الشيطان» بقيادة الهالك حسن نصر الله في لبنان؛ فقد كان يتحكّم بمفاصل الدولة واقتصادها ويوجّه سياستها بقوّة السلاح كما تريد طهران، وكان يدرّب شيعة الخليج ليكونوا جاهزين للانقلاب على بلدانهم متى ما أُمِروا بذلك.

---

(١) «ليس سرًّا أنّه في محضر النقاش الذي جرى بين سولانا مسؤول الخارجية الأوروبية ولاريجاني المسؤول الإيراني عن الملف النووي، فذكر لاريجاني أنّه من الممكن أن تتنازل إيران عن السلاح النووي مقابل ثمن لائق، فطلب منه سولانا توضيح ذلك، فوضّح له بأنّهم يريدون هيمنة إيرانية على بقية شواطئ الخليج؛ لأنّ هذه مناطق شيعية وثروتها تذهب لحكّام سنّة». من مقال: رُؤيَةٌ لِلمُعضِلَةِ الشِّيعِيَّة، د.محمد بن حامد الأحمري.

(٢) الهلال الشيعي هو مصطلح سياسي يصف منطقةً جغرافيةً في الشرق الاوسط يشكّل فيها الشيعة نسبة كبيرة من السكان، تمتد من إيران إلى لبنان مرورًا بالعراق وسوريا.

(٣) يُنظر: الثورة البائسة، د. موسى الموسوي، (ص ١٢٢-١٢٥).

(٤) للتوسع في فهم العلاقة بين إيران والغرب يُنظر كتاب: إضاءات على العلاقات الإيرانية مع الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وتأثيراتها في الملف السوري- إصدار: مركز الحوار السوري.

هناك عاملان يزيدان من الخطر السياسي والعسكري لإيران هما: تحالفُ إيران مع القوى العظمى المعادية للمسلمين، وولاءُ غالب الشيعة أينما كانوا لإيران وطاعتهم المطلقة لقيادتها ولو كانت تعني زعزعة أمن أوطانهم التي ينتسبون إليها

الانخداع بالشيعة الرافضة والتقارب معهم:

عدم معرفة حقيقة العدوّ والحذر منه يوقع الإنسان في الغفلة عن الحيطة والحذر، ويجعله فريسة سهلة لمكائد العدو وألاعيبه، لذا فإنّ الله تعالى كرّر في القرآن الكريم التحذير من خطر الشيطان؛ لأنّه غير ظاهر، ويأتي للإنسان من أبواب متعدّدة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، كما كرّر سبحانه التحذير من المنافقين وفَضَحَهم وفَضَحَ أساليبهم في الكيد للإسلام والمسلمين، وكشف موالاتهم للكفار.

والانخداع بالشيعة الرافضة والغفلة عن حقيقة عقائدهم ومشاريعهم خطرٌ بحدّ ذاته، وسبب من أسباب البلاء الذي أصاب المسلمين من قديم، وظهر جليًّا في العصر الحاضر، ولهذا الانخداع أسباب كثيرة أهمّها: محاولة الشيعةِ التقاربَ مع أهل السنّة.

واحدةٌ من أوائل المحاولات للتقريب بين السنّة والشيعة وأكبرها وأهمّها: مؤتمر النجف الذي عقد عام ١١٥٦هـ، وقد بلغ عدد مَن حضر لاستماع مناقشاته نحوًا من ستين ألفًا، ولأنّ المؤتمر بدعوة شيعيّة وعلى أرض شيعيّة[١] فقد اكتفى في مقرّراته بتعهّد الشيعة بعدم سبّ الصحابة ﷺ، لكنّه لم يتعرّض لمحو ما تحويه كتب الشيعة من طعن وسبّ وتكفير، ولا للأثر المترتّب على ذلك وهو العمل بالسنّة المروية عن طريقهم[٢].

أمّا في العصر الحاضر فقد أخذت فكرة التقريب خطوة عملية من خلال إنشاء «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» في مصر، والتي نتجت عن زيارة المرجع الشيعي محمد حسين كاشف الغطاء إلى مصر، فالتقى بكبار شيوخها، وبخاصة شيخ الأزهر: محمد مصطفى المراغي، وقد نتج عن هذا اللقاء طرح فكرة التقريب، والتي أثمرت تأسيس الدار عام (١٣٦٨هـ - ١٩٤٧م)، وضمّ أولُ مجلس إدارة للدار عشرين عضوًا، منهم: محمد تقي القمّي ممثلاً للشيعة الإمامية، وعلي بن إسماعيل المؤيّد والقاضي محمد بن عبدالله العمري عن الشيعة الزيدية، والباقي من كبار علماء مصر، إضافة إلى الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين[٣].

وكان من نتائج هذا التقارب: أن قامت الدار بالدعاية للتشيّع في مصر من خلال نشر كتب التشيع، إضافة إلى خداع الرافضة لشيخ الأزهر محمود شلتوت حتى أصدر فتواه الشهيرة عام ١٣٧٨هـ والتي يعترف فيها بالمذهب الجعفري مذهبًا إسلاميًا صحيحًا يجوز التعبّد به، وذيّلها بخطاب لمحمد تقي القمّي يبشّره فيها بإصداره هذه الفتوى!

وقد طار الروافض بهذه الفتوى فرحًا، واعتبروها القطف الشهي والثمرة الكبرى لدعوة التقريب؛ لأنّها تعطيهم كما يتصوّرن الشرعية في التبشير بالرفض في ديار السنّة[٤].

ولم تقتصر الجهود في العصر الحاضر على إنشاء هذه الدار، فقد قام عدد من علماء المسلمين بمحاولة التقارب مع الشيعة أمثال: محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ د. مصطفى السباعي، والشيخ د. يوسف القرضاوي، وغيرهم.

من جانب آخر: عندما قامت الثورة الإيرانية وأعلنت الانتماء للإسلام حتى سمّيت زورًا: «الثورة الإسلامية الإيرانية»، ورفعت شعار نصرة القضية الفلسطينية، ورفعت شعار الحرب على أمريكا

(١) الذي دعا إليه هو شاه إيران: نادر شاه، وكلّف الشيخ عبد الله السويدي (سنّي) برئاسة المؤتمر، وحضره عدد كبير من علماء شيعة إيران ما يزيد عن السبعين، وحضره من علماء أهل السنّة بضعة عشر عالـمًا.

(٢) يُنظر: مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، للدكتور ناصر القفاري (١٥٧/٢-١٧٠).

(٣) يُنظر: تجربة التقريب بين المذاهب، فهمي هويدي، مجلة أمّة الاسلام العلمية، السودان، العدد الرابع. ومن أهمّ الأسماء التي شاركت في مجلس إدارة الدار: الوزير محمد علي علوبة باشا، والشيخ عبد المجيد سليم رئيس هيئة الفتوى بالأزهر، والشيخ أحمد حسين مفتي وزارة الأوقاف، والشيخ محمود شلتوت عضو هيئة كبار العلماء، والشيخ محمد عبد اللطيف دراز وكيل الأزهر، والشيخ عيسى ممنون عضو هيئة كبار العلماء ورئيس الجمعيات الشرعية، والشيخ حسن البنا رئيس الإخوان المسلمين، والشيخ عبدالوهاب خلّاف، والشيخ علي الخفيف وهما من كبار أساتذة الفقه والتشريع بالجامعة، والشيخ محمد المدني الأستاذ بالأزهر.

(٤) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (١٨٢/٢-١٨٣).

وأطلقت عليها لقب: «الشيطان الأكبر»؛ وقع كثيرٌ من عامّة المسلمين وطائفةٌ كبيرة من علمائهم ومثقّفيهم في الفخ، فأيّدوا هذه الثورة، وراحوا يهتفون لها، ويعقدون عليها الآمال، ويعتبرونها منعطفًا حقيقيًا يستدعي مزيدًا من التقارب مع الشيعة والتعاون معها والوقوف إلى جانبها.

وفي العقدين الماضيين زاد الانخداع بالرافضة بسبب شعاراتهم التي يرفعونها لنصرة فلسطين من جهة، وبسبب الصراع على المصالح والنفوذ بين الطرفين من جهة أخرى، ففي عام ٢٠٠٦ استطاع حزب الشيطان صدّ العدوان الإسرائيلي على لبنان، فأحدث ذلك موجة واسعة من التأييد الشعبي للحزب وقائده حسن نصر الله! وفي أثناء معركة طوفان الأقصى بدأ حزب الشيطان مناوشات وإطلاق صواريخ على البلدات الإسرائيلية على الحدود اللبنانية الفلسطينية؛ فردّ العدو الإسرائيلي بضربة قاضية حصدت قيادات الحزب وزعيمه ومئات من كوادره، وشاركت إيران بصواريخ أخبرت العدو الإسرائيلي عن وقت إطلاقها ومكان وقوعها، ورغم وضوح صورة هذه المعارك وأسبابها للكثيرين إلّا أنّ فئة من أهل السنّة بقيت منخدعة بالرافضة، وفسّرت مواقفها بأنّها لنصرة القضية الفلسطينية لا غير، وعندما فرح السوريون بمقتل حسن نصرالله وقادة حزبه الذين تحالفوا مع النصيرية وتعاونوا على قتلهم وتشريدهم والتنكيل بهم؛ اتّهِمُوا بالخيانة وبطعن المقاومة الفلسطينية في ظهرها! وعادت للسطح مسألة العلاقة بين السنّة والشيعة، والتقارب بينهما!

الانخداع بالشيعة الرافضة والغفلة عن حقيقة عقائدهم ومشاريعهم ومحاولة التقارب معهم خطرٌ بحدّ ذاته، وسبب من أسباب البلاء الذي أصاب المسلمين من قديم الزمان، وظهر جليًّا في العصر الحاضر

التقارب بين السنّة والشيعة إلى أين؟

بدايةً علينا أن ندرك أنّ محاولات التقريب بين السنّة والشيعة كان دائمًا تبدأ من الشيعة أنفسهم، وهدفها المعلن: تقليل الخلاف والوصول إلى الحقّ، وهدفها الحقيقي: محاولة نشر عقيدة الرافضة بين جمهور المسلمين، أو خداعهم بهدف السيطرة عليهم، قال د. مصطفى السباعي رحمه الله: «الواقع أنّ أكثر علماء الشيعة لم يفعلوا شيئًا عمليًا حتى الآن، وكلّ ما فعلوه جملة من المجاملة في الندوات والمجالس، مع استمرار كثير منهم في سبِّ الصحابة وإساءة الظنّ بهم، واعتقاد كلّ ما يُروى في كتب أسلافهم من تلك الروايات والأخبار، بل إنّ بعضهم يفعل خلاف ما يقول في موضوع التقريب ... فيصدِرُ الكتبَ المليئة بالطعن في حقّ الصحابة أو بعضهم ... فكأنّ المقصود من دعوة التقريب هي تقريب أهل السنّة إلى مذهب الشيعة، لا تقريب المذهبين كلّ منهما إلى الآخر»[١].

ومَن كان من علمائهم منصفًا واتّضح له الحق كأحمد الكسروي، وانتقد غلوّ الشيعة في آل البيت، وتحريفهم للقرآن، ووضعَهم الأحاديث، وطعنَهم في الصحابة، ومظاهر الشرك التي تنتشر بينهم؛ دفعَ حياته ثمنًا لذلك[٢]، حيث اغتالته مجموعة شيعية تعرف باسم «فدائيو الإسلام»، وهذه المجموعة أسّسها «نوّاب صفوي» الذي كان يخدع المسلمين في مصر بقوله: «من أراد أن يكون شيعيًّا حقيقيًّا فعليه أن ينضمّ إلى جماعة الإخوان المسلمين»!

من جانب آخر فإنّ العلماء السنّة الذين وقفوا موقفًا مؤيّدًا للتقارب مع الشيعة تراجعوا عنه حينما أدركوا حجم التزييف الذي مورس عليهم والتقيّة التي استخدمها الرافضة معهم، ورأوا بأمّ أعينهم واقع الشيعة وأفعالهم بالمسلمين، وفي مقدمة هؤلاء: د. يوسف القرضاوي الذي عبّر عن ندمه على سنوات قضاها في محاولة التقريب بين السنّة والشيعة، وشنّ هجومًا حادًّا على المرجعيات الشيعية، واصفًا حزب الله اللبناني بـ«حزب الشيطان»، منوّهًا بموقف علماء السعودية الذين وصفهم بأنّهم كانوا أبْصَرَ وأكثرَ نضجًا منه في موقفهم من الشيعة[٣].

(١) السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، (ص ٩-١٠).
(٢) مسألة التقريب بين أهل السنّة والشيعة (٢/٢٢٠-٢٢٢).
(٣) مقابلة خاصّة مع الشيخ -رحمه الله- على قناة العربية.

التقارب بين أهل السنّة والشيعة مشروع فاشل جملة وتفصيلاً، نتيجة الخلاف العقدي الذي يصل إلى التباين المطلق، ونتيجة لما يقوم به الرافضة من أعمال تخالف الدعوة للتقارب، بل هي عين التجافي، والإمعان في العداوة والغدر والخيانة والحرب على المسلمين

فإذن: هذه الدعوة فاشلة غير قابلة للتطبيق في الواقع لسببين رئيسين:

الأول: الخلاف العقدي الذي يصل إلى التباين المطلق؛ لأنّ عندهم من العقائد الباطلة ما ينقض أصول الإسلام. ومما ينبغي التنبّه له أنّه لا يصحّ الاعتماد في معرفة عقائدهم ومناقشتهم بها على غير الكتب المعتمدة عندهم، أمّا الأقوال فقد تصدر مِمَّن لا يمثّلهم؛ فلا يكون لها قيمة، أو تؤوّل بالكذب الذي يسمّونه «تقيّة» ويعتبرونه من صلب دينهم المحرّف! وقد تقدّم كلام أحد علمائهم أنّ دين الإسلام ودين الصفويين -وهم شيعة إيران اليوم- ليس واحدًا.

الثاني: ما يقوم به الرافضة من أعمال تخالف الدعوة للتقارب، بل هي عين التجافي، والإمعان في العداوة والغدر والخيانة، ومن شواهد ذلك إضافة على ما سبق:

١. أنّه في الوقت التي أنشئت فيه دار التقريب بين السنّة والشيعة في مصر، وأتيح للشيعة نشر كتبهم بين السنّة، وخروج فتوى جواز التعبّد بالمذهب الجعفري، فإنّنا لم نشهد شيئًا مماثلاً من طرف الشيعة، لا بخصوص اعترافهم بصحّة المذاهب الفقهية السنية وجواز تعبّد شيعتهم بها، ولا بالسماح بنشر كتب أهل السنّة بين الشيعة، بل إنّ طهران هي العاصمة الوحيدة في العالم التي ليس فيها مسجد لأهل السنّة.

٢. أنّ الفتاوى بجواز قتل أهل السنّة واستباحة أعراضهم وأخذ أموالهم ما تزال باقية في كتبهم ومراجعهم لم يتبرّؤوا منها، بل يعملون بها ويلقّنونها لأتباعهم. فمن الكذب الذي ينسبونه إلى جعفر الصادق -رحمه الله- أنّه قيل له: «ما تقول في قتل الناصب؟[١] فقال: حلال الدم، ولكنّي أتقي عليك، فإن قدرت أن تقلب عليه حائطًا أو تغرقه في ماء لكيلا يُشهد به عليك فافعل، قلت: فما ترى في ماله؟ قال: تَوِّه ما قدرت عليه»[٢].

وقال يوسف البَحراني: «إنّ إطلاق المسلم على الناصب وأنّه لا يجوز أخذ ماله من حيثُ الإسلام خلافُ ما عليه الطائفةُ الـمُحقَّةُ سلفًا وخلفًا مِنَ الحُكم بكُفر الناصبِ ونجاستِه وجوازِ أخذِ مالِه بل قَتلِه»[٣].

وقال الخميني: «والأقوى إلحاقُ النواصبِ بأهل الحربِ في إباحةِ ما اغتُنِمَ منهم، وتعلّق الخُمُس به، بل الظاهرُ جوازُ أخذِ مالِه أين وُجدَ، وبأيّ نحوٍ كان، ووجوبُ إخراج خُمُسِه»[٤].

ومنذ عدّة أشهر قال المرشد الأعلى للجمهورية الإيرانية علي خامنئي: «المعركة بين الجبهة الحسينيّة والجبهة اليزيديّة [والمقصود بهم أهل السنّة] هي معركة مستمرة ... لا تنتهي أبدًا»[٥].

٣. حربهم لأهل السنّة والغدر بهم على المستوى العام وخيانتهم لهم؛ مما نتج عنه إسقاط دُوَل وإزهاق أرواح مئات الآلاف من المسلمين. ومع أنّ شواهد التاريخ على ذلك كثيرة ولا سيما ما فعلوه في القرن الماضي بأهل السنّة في الأحواز والعراق، إلّا أنّني سأكتفي بأمثلة من العصر الحاضر، وفيما يخصّ أهل الشام فقط، فمن ذلك:

» قيام الميليشيات الشيعية في لبنان (حركة أمل) بقتل وتشريد آلاف المدنيين الفلسطينيين المقيمين في المخيمات، والتعاون مع النصارى والنصيرية لتحقيق ذلك.

» قيام الميليشيات الشيعية بقتل وتشريد مئات الفلسطينيين المقيمين في العراق بعد سقوط

(١) الناصب والناصبي وجمعه النواصب: هم الذين يُبغضون عليًّا رضي الله عنه؛ سمّوا بذلك لأنّهم يناصبونه العداء، ولكنّ الشيعة يطلقون هذا الاسم على أهل السنة.

(٢) وسائل الشيعة، للحرّ العاملي (٢١٧/٢٨).

(٣) الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة (٣٢٣/١٢).

(٤) تحرير الوسيلة (٣٥٢/١).

(٥) وذلك في تغريدات له على حسابه الرسمي على منصّة X.

نظام صدّام. كلّ هذا يجري للفلسطينيين من غير ذنب اقترفوه إلا لأنّهم من أهل السنّة، وتحت شعارات الرافضة الكاذبة بنصرة فلسطين وتحرير القدس!

» تدخّل إيران في سوريا، والذي بدأ عندما تحالفت مع حافظ الأسد، وأصدر علماء من الشيعة فتوىً مفادها صحّة عقيدة النصيرية بعد أن كانوا يعتبرونهم كفّارًا! ثم بلغ الغدر غايته عندما وضعت إيران يدها في يد النظام النصيري المجرم وتعاونت معه على قتل وتعذيب وتشريد الشعب السوري المسلم السنّي والسيطرة على أرضه وممتلكاته، ثم توطين مئات الآلاف من الرافضة مكانهم بعد منحهم الجنسية.

» وفيما يتعلّق بمعركة «طوفان الأقصى»: فقد أطلقتها حماس في السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ اعتمادًا على اتفاقها مع إيران وذراعها في لبنان حزب الشيطان بأنّهم سيشاركون في الحرب على إسرائيل بمجرّد بدء حماس للمعركة، لكن الرافضة خانوا العهد وغدروا، ولم يحرّكوا ساكنًا إلا بعد أن أحرق اليهود نصف قطاع غزّة، وكانت مشاركتهم في الحرب أوّل الأمر شكلية استعراضية.

» والمثال الأخير هو اغتيال الشيخين صالح العاروري في ضاحية بيروت الجنوبية الخاضعة لسيطرة حزب الشيطان، وإسماعيل هنيّة في طهران عاصمة إيران؛ مما يوضّح حجم الخيانة والغدر والتآمر، أو على الأقل التهاون الخطير في تأمين وحماية شخصيتين فلسطينيتين سياسيتين بحجمهما.

الخاتمة:

رغم ما مُنيت به إيران من خسائر في بلاد الشام وتراجع نفوذها، إلّا أنّ ذلك لا يعني زوال خطر إيران ودورها في المنطقة، فهي ما تزال دولة قوية، تغذّ السير في سبيل التفوّق العسكري، وتسعى إلى السيطرة على المنطقة برمّتها، ولها نفوذ لا يستهان به في كثير من دول آسيا وأفريقيا.

ولا سبيل إلى مواجهة خطر هؤلاء الرافضة إلّا باليقظة الكاملة لمشروعهم السياسي، وتقديم سوء الظنّ بهم، والتنبّه لألاعيبهم وخياناتهم وغدرهم، وبذل كافّة الأسباب لإفشال مخططاتهم، ومعاملتهم كأعداء لا كإخوة أشقّاء، مع الاستمرار في مسار دعوتهم إلى الإسلام الصحيح وهو ما عليه أهل السنّة والجماعة.

نسأل الله أن يجعل خروجهم من سوريا إلى غير رجعة، وأن يعين المسلمين أهل السنّة على العمل بتبعات النصر وإهلاك العدو والقيام بواجب الاستخلاف في الأرض ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وأن يمنّ على المسلمين في البلاد التي تحتلّها إيران أو تعيث فيها الفساد بالنصر العاجل، إنّه ولي ذلك والقادر عليه.

قضايا معاصرة

بذور علاقات الملالي بالغرب، وخفايا إيرانية بين عهدين ١٩٥٠-١٩٨٩م

م. طاهر صيام (*)

يتناول المقال صعود نظام الملالي في إيران إلى الحُكم، مع إبراز دوره في اختطاف الثورة الإيرانية لتحقيق أجندات أيديولوجية، ويكشف العلاقات الخفية بين الملالي والقوى الغربية منذ الخمسينات، خصوصًا الولايات المتحدة، التي دعمتهم كبديلٍ استراتيجي مع أفول الشاه واستنفاذه، كما يسلط الضوء على سياسات التوسع الإيراني وتصدير الثورة والعلاقات مع إسرائيل، مستعرضًا تناقضاتها بين البراغماتية السياسية والشعارات، ويُظهر كيف استغل الملالي الدِّين لتحقيق أهداف سياسية وإقليمية وسط انقسامات داخلية وتخادم دولي.

ضرورة إعادة قراءة إيران:

لعل أوجز مقولةٍ تعبّر عما نحن بصدده هي: «إيران جبل من الجليد، بعضه ظاهر للعيان، ومعظمه الكثير تغطيه المياه المجهولة»[١]. ففي ذلك الجبل كتلٌ قضايا ومعضلاتٌ مركبةٌ كحكاية صعود الملالي، حيث يصعب فهم أنّ القصة نسجت نفسها، وكأنها تغييرٌ ثوريٌ طبيعيٌ في الحكم استحقّه الخميني فارتفع إلى عرش إيران. سنحاول هنا رواية وجهٍ آخر من قصة (إيران الخفية)، غيرِ مألوفٍ في عالمنا العربي، بالاعتماد على صنّاع الحدث وشُهوده المتنوعين. وقد وضعنا جانبًا التحليلات «الأيديولوجية»، لصالح الشهادات والتوثيقات والنقولات.

سُئل (راي تاقيه) مستشار الخارجية الأمريكية حول كتابه (حقبة الشاه): لماذا وضعت كتابًا رابعًا جديدًا عن الشاه وإيران؟

أجاب: «بعد مرور ٤٠ عامًا على سقوط الشاه، بات من الممكن إجراء تقييم أكثر موضوعية لعهده، فالمشاعر المتّقدة هدأت والنّقاشات باتت منطقية، وبدأت تصدر كذلك سجلّات عن تلك الحقبة»[٢].

(*) باحث في الحضارات والفكر، عمل في جامعة ولاية واشنطن.

(١) ماذا جرى في الشرق الأوسط؟ ناصر الدين النشاشيبي، جريدة التايمز اللندنية ١٩٥٩م، ص (٢٥٥).

(٢) مقابلة مع راي تاقيه، موقع معهد كارنيغي ميلون، ٢٠٢١م، https://carnegieendowment.org/middle-east/diwan/2021/04/the-shahs-ride

ومن المعلوم أنه في العام ٢٠١٧م أصدرت وزارة الخارجية الأمريكية حوالي ١٠٠٠ صفحة من الوثائق حول تلك الحقبة.

يقول عاصم الدسوقي: «البعض يدعو إلى تجديد كتابة التاريخ بعد قرابة (خمسين سنة) لاعتبارات؛ كإعطاء المؤرخ فرصة كي يبتعد عن التأثر الشخصي، والخشية على نفسه، والانسياق مع التيار. ودُور الأرشيف تفتح أبوابها عادة بعد انقضاء تلك المدة مراعاةً للمصالح السياسية والعسكرية. ثم كلما تقدم الزمن ظهرت أوراق ومذكرات غير رسمية تلقي أضواءً أكثر...»[١].

وأيًّا كان، فإنَّ نظام الشاه الدكتاتوري، كان لا بد أن تسقطه قوى الشعب المتنوعة العريقة، وهو الذي قمع الحريات وسلط «السافاك» وبذخ واستعلى، وظن أن الغرب سيحميه. ولا يمكن نسيان جريمته وانقلابه مع بريطانيا على رئيس حكومة الشعب محمد مصدق، ثم إعدامه المشين.

> **تعاني غالب الدراسات العربية وكثير من مواقف الإسلاميين من الدولة والمجتمع الإيراني من ارتباك في مناهج البحث وتنوُّع مصادر المعلومات وطرق معالجتها، وغالبها استبطن مسلمةً رومنسيةً؛ هي لحظة ثورة الإيرانيين المحقّة، وسقوط (الشاهنشاه الديكتاتور)، وانتصار الرمزية الدينية، كلحظةٍ معرفيةٍ تأسيسيةٍ انطلقت منها لتناقش النموذج الإيراني وتُفسر تموضعاته السياسية والاجتماعية والمذهبية**

من أين أُتينا معرفيًا: أشواقٌ وبريقٌ:

تعاني غالب الدراسات العربية للدولة والمجتمع الإيراني وسياسات الملالي من ارتباك في مناهج البحث وتنوُّع مصادر المعلومات وطرق معالجتها، فكثيرًا ما تخضع للتحيزات والالتقاطات اللحظية والمحدودية التي يغلب عليها تأريخ المشهد منذ أواخر سبعينات القرن المنصرم، مع غيابٍ للصورة البانورامية منذ مجيء الشاه والانقلاب على القائد الوطني محمد مصدق بمساهمة الملالي.

إجمالاً، بخلاف روايات الإيرانيين بتنوعها، وشهادات صنّاع الحدث والدبلوماسيين والوثائق، فإن كثيرًا من مواقف الإسلاميين استبطنت مسلمةً رومنسيةً هي لحظة ثورة الإيرانيين المُحقّة، وسقوط (الشاهنشاه الديكتاتور)، وانتصار الرمزية الدينية كلحظةٍ معرفيةٍ تأسيسيةٍ انطلقت منها لتُناقش النموذج الإيراني وتُفسر تموضعاته السياسية والاجتماعية والمذهبية في المنطقة، متجاوزةً حقائق تكوينية بسبب بريق تلك اللحظات ومشهد الرهائن، وتمسح الثورة (بعلي شريعتي)، وطباعة كتب (سيد قطب) وارتداء الخميني عباءة (يوم القدس العالمي) فورًا، ناهيك عن شوق جماهير الأمة إلى هذا التغيير كفاتحةٍ لغيره[٢].

أمعن الملالي والصحافة الغربية (لأسباب متباينة) في رسم صورة (للشاه) موغلة في العمالة والدموية، وردَّدها بعضُ الإسلاميين كونها أقرب إلى حالة القهر التي عاشوها، وتم إلقاء «هالات» على الثورة الملالية رغم اختطافها لعدالة ثورة قوى الشعب الإيراني المتنوعة واستحواذها عليها.

كما ذهل الناس عن تذبذب علاقات (الشاه) بالغرب وتضاربها مع مشاريعه الاقتصادية وسياسته النفطية، وموازنته للعلاقات مع العرب وتل أبيب[٣]، وتوتر علاقاته ببريطانيا وفورد وكارتر وكيسنجر[٤].

لقد استبعد الشاه خوض معارك دموية أخيرة حتى النهاية، وعيّن السجين شابور بختيار رئيسًا للوزراء -اغتاله لاحقًا الحرس الثوري في باريس- وغادر لعلَّه يعود بعد هدوء الأمور في حين كان جيشه قويًا وموالِيًا.

وفي المقابل، تراجع (الخميني)[٥] عن وعوده (بعدم تدخُّل رجال الدين في الحُكم)، وراح يركِّز السلطات بيده، وعمل بولاية الفقيه، وأبعد الملالي الذين خالفوه كشريعتمداري، وأجهز على صلاحيات الحكومات المنتخبة وأقال

(١) البحث في التاريخ، للدكتور عاصم الدسوقي، ص (١٧٣).
(٢) ينظر كنموذج كتاب الشقاقي: الخميني والحل البديل، طبع ١٩٧٩م، واختصره رمضان شلح.
(٣) Treacherous Alliance, Yale University Press, p26, Trita Parsi.
(٤) ينظر: هوشنك نهاوندي: كتاب «الخميني باريس والأكاذيب الكبرى والحقائق الموثقة».
(٥) ينظر فيما كتبه موسى الموسوي مطولاً تحت عنوان (الخميني في الميزان)، في شهاداته في كتابه (الثورة البائسة).

رؤساءها[١]، وطارد حركات ورموز الثورة كبني صدر وبازرجان وقطب زاده ورجوي. ووصف المخالفين (بالماركسيين الإسلاميين) ثم عزل نائبه (منتظري)[٢] في الإقامة الجبرية[٣].

> **ذهل الناس عن تذبذب علاقات (الشاه) بالغرب وتضاربها مع مشاريعه الاقتصادية وسياسته النفطية، وموازنته للعلاقات مع العرب وتل أبيب، وتوتر علاقاته ببريطانيا وفورد وكارتر وكيسنجر**

نموذج طلابي لتسلُّل دعايات الملالي:

مما أسهم في هذا التسلُّل: تَشكّل علاقات قوية بين شخصيات إسلامية عربية وإيرانيين مناضلين في أوروبا وأمريكا، حيث تشاركوا أحيانًا في تأسيس منظماتٍ إسلامية كجمعية مسلمي أمريكا، وروابط الطلبة المسلمين.

يقول د. توتنجي: «صار الطالب الإيراني مهدي بهادوري أول رئيس (لاتحاد الطلبة المسلمين في أمريكا)... ولكن تكرَّرت التوترات التي نشأت عندما تولى الإيراني عباس جباري... وكنت ثاني رئيس للاتحاد قبله...»[٤]. ومن أسباب التوترات ما حلّ بالفلسطينين على يد (أمل) ثم حرب العراق وتوزيع كتاب خميني (الحكومة الإسلامية).

ويضيف توتنجي: «أتذكر أن (خميني) كانت تحيط به مجموعة متميزة، نشؤوا في أوروبا وأمريكا وكونوا علاقات مع المجتمع السني... كان السنة والشيعة متَّحدين في العمل والتزامهم بالدين الإسلامي. وكان هناك سبع وزراء للخميني تلقّوا تعليمهم في أمريكا، منهم وزير الدفاع مصطفى شمران [مؤسس الحرس الثوري]، وإبراهيم يزدي (وزير الخارجية). لقد عملنا معًا للإسلام دون أية حواجز بيننا...»[٥]. وعند بحثنا تبيَّن أن ضمنهم وزراء الخارجية السابقين: علي أكبر صالحي، وولايتي، وجواد ظريف.

هذا النموذج يوضح أحد المداخل النفسية والعلاقاتية مع مفردات الثورة التي سيطرت على بعض العرب، فيما لم يفرّق د. توتنجي -ومثله كثر- بين العلاقات الطلابية وحقيقة أنَّ الخميني إمّا أنَّه حَوّل هؤلاء إلى وحوش أو استغلهم كاليزدي أو ظهروا على حقيقتهم كالمجرم شمران، أو أنهم اكتشفوا أمره لاحقًا كأتباع شريعتي وطالقاني.

نموذج الشِقاقي وحركة الجهاد[٦]:

يقول رمضان شلّح: «عندما اندلعت الثورة الإيرانية ألّف الشِقاقي كتيبًا بعنوان (الخميني: الحل البديل)»[٧].

ورغم أنَّ الشِقاقي ينقل فقراتٍ مطوَّلةً من كتاب الخميني (الحكومة الإسلامية) إلا أنه لم يلحظ فكر خميني كلعنه الشيخين والغلو في أئمتهم.

ثم أعلن الشِقاقي أنها ليست ثورة طائفة دون طائفة، واعتبر عصمة الأئمة مسألةً فرعية. وقال لوكالة الأنباء الإيرانية في ١٩٩٤/٣/١م: «انتصار الثورة الإسلامية بقيادة الخميني أطلق الصحوة الإسلامية في المنطقة وفلسطين...».

كان الشقاقي بعواطفه النبيلة الشابة وقضيته العادلة خير من يمكن لإيران استغلاله، بعد أنْ امتعض من الجمود الحركي والمراوحة عند (جماعة الإخوان) تجاه فلسطين حسب وصف كتابه. وقد قيل إنَّ الشقاقي اكتشف العطب متأخرًا وحاول الفكاك قبل اغتياله.

لقد حصلت مثل هذه التسللات للثورة الخمينية، رغم صدور كتاب سعيد حوى (الخمينية شذوذ) محذرًا من «التقية والبندقية»، وكتاب (وجاء دور المجوس)، وبيان (الإخوان في سوريا)[٨] حول مواقف النظام الإيراني، ومما جاء فيه:

(١) ينظر: تاريخ إيران السياسي بين ثورتي ١٩٠٦-١٩٧٩م، لآمال السبكي، ص (٢٣٩-٢٦٠).
(٢) يراجع: كتاب نقد الذات لسعيد وحسين منتظري.
(٣) ينظر: كتاب «الثورة البائسة»، لموسى الموسوي، ص (١٣٦).
(٤) ٦٠ عامًا بين الشرق والغرب، لأحمد توتنجي، ص (١٢٠-١٢١).
(٥) المرجع السابق، ص (٢٩٠).
(٦) ينظر: «موسوعة الحركات الإسلامية»، مركز دراسات الوحدة العربية.
(٧) «في عين العاصفة» حوار مع رمضان شلح، غسان شربل، بيسان للنشر والتوزيع، ص (٧٣).
(٨) مجلة النذير، العدد ٤٥، ١٩٨٢م.

«إنَّ المواطن السوري والأخ الفلسطيني وكل من تحمَّس لحكّام طهران سرعان ما انقلب عليهم وأدان وقوفهم المخزي مع النظام الطائفي الخائن في دمشق، ولم يعد المسلمون يسألون عن الشواهد التي تثبت شِراء طغاة إيران الأسلحة من الصهاينة...».

> **كان هناك سبع وزراء للخميني تلقَّوا تعليمهم في أمريكا، منهم وزير الدفاع مصطفى شمران [مؤسس الحرس الثوري]، وإبراهيم يزدي (وزير الخارجية)**

إيران مُصدّق وليس الملالي: انقلاب أجاكس

الشاه الأب رضا بهلوي كان يؤمن بمجد إيران واستقلالها، ورغم علاقته بالمستعمر البريطاني لم يمِل لصالح الحلفاء ضد المحور، فخلعوه وجاؤوا بابنه الشاه محمد رضا بعد غزو بريطانيا وروسيا لإيران ١٩٤١م. وبات الشاه الشاب (تحت الوصاية) البريطانية، ولم يجد بُدًا من الهروب إلى الحضن الأمريكي لاحقًا.

في تلك الأثناء رسمت شخصية (محمد مصدق) العظيمة أكبر حراك سياسي في المنطقة للتحرُّر من الهيمنة الغربية فأسَّس «الجبهة الوطنية» تحالفًا وطنيًا واسعًا تبعه شريعتي وطالقاني وبازرجان.

بقيت قضية «تأميم النفط» ضد (الشركة البريطانية) تتفاعل، فقاد مصدق المطالبات الشعبية بالتأميم واستطاع تحجيم الشاه الذي غادر البلاد. لكن بريطانيا شددت حصارًا بحريًا واقتصاديًا على إيران من أجل خلع مصدق (رئيس الوزراء المنتخب)، وإحداث شغبٍ شعبي مضادٍ له من خلال العملاء وشراء بعض القوى الدينية والتجار، أعقبها (عملية أجاكس) بالتعاون مع أمريكا[1].

بذور علاقة أمريكا بالملالي:

ساند مصدقًا عمومُ الشعب والقوى والتيار الديني، وكان أحد أبرز الملالي السياسيين في إيران (آية الله أبو القاسم كاشاني) رئيس مجلس النواب

(١) ينظر: تاريخ إيران السياسي بين ثورتي ١٩٠٦-١٩٧٩، ص (١٨١-١٨٨).

الذي انضم إلى حركة مصدق الوطنية، فأفتى بأن «كل من يعارض تأميم النفط الإيراني عدو للإسلام».

ولكن بدأت الخلافات بين كاشاني ومصدق بسبب انفتاحه على اليساريين بزعمه، فأصدر مجموعةٌ من الملالي فتوى بأنَّ مصدقًا معادٍ للإسلام، فانسحب (كاشاني) من التحالف مع مصدق[١]، واتَّهمه بخيانة الإسلام، ما أدّى إلى كشف ظهر مصدق[٢]، فقام الأمريكان والإنجليز بانقلاب ضده في أغسطس ١٩٥٣م، وبذلك سقطت حكومة مصدق[٣].

تحوَّل الملالي والكاشاني من النقيض إلى النقيض، وتعاوَنَ مع (كيميت روزفلت)[٤] مندوب المخابرات الأمريكية، وتحول إلى حليف للشاه[٥]. وهكذا أعلن ابن الكاشاني من الإذاعة عودة الشاه!

وقد كشفت الدفعة الجديدة من (الوثائق) التي أفرجت عنها الخارجية الأمريكية عام ٢٠١٧م، عن جذب وكالة المخابرات لكاشاني[٦] الذي كان مصدر إلهام للخميني لاحقًا، وعقدت لقاءات مختلفة معه قبل الانقلاب، وهو ما كشفت عنه (وثائق أجاكس) في رسالةٍ من السفارة في طهران إلى الخارجية الأمريكية، وذكرت في نهايتها أن الكاشاني يمكن رشوته[٧].

وقبل ذلك، بعد تولى كاشاني رئاسة البرلمان، هنّأه وغازله وليام وران رئيس برنامج المساعدات الأمريكية، وكانت إحدى طموحات كاشاني حلمه بتشكيل جيش موازٍ من ملايين المسلمين يقودهم. ونقلت إحدى (وثائق أجاكس) عن كاشاني قوله للأمريكان: «أنا لست شخصًا عاديًا، أنا زعيم العالم الإسلامي». ولعل هذه الأفكار شبيهة بتصدير الثورة والمركزية الخمينية، كما أنّ كاشاني كان مُعلم (خامنئي).

كما أكدت BBC تلقي (آية الله بهبهاني) مبالغَ ضخمةً من السفارة الأمريكية قبل تنفيذ الانقلاب، وعنوَن موظف المخابرات الأمريكية (ريتشارد كاتم) في كتابه عنوان: (دولارات بهبهاني)، وهو ما يتفق مع مصادر أخرى، ومذكرات شقيقة الشاه (أشرف بهلوي).

نقلت إحدى (وثائق أجاكس) عن كاشاني قوله للأمريكان: «أنا لست شخصًا عاديًا، أنا زعيم العالم الإسلامي». ولعل هذه الأفكار شبيهة بتصدير الثورة والمركزية الخمينية، كما أنّ كاشاني كان مُعلم (خامنئي)

الخميني: الله صفع مصدقًا، وكاشاني وبهبهاني أبطال:

العجيب كما كتب (منصور فرهانج) أول سفير للثورة في الأمم المتحدة وشاهد عيان على دور كاشاني وبهبهاني في الانقلاب، أنّ «رجال الدين الذين عارضوا مصدقًا إما أيدوا الانقلاب أو التزموا الصمت. ومع ذلك، خلال المظاهرات الثورية عام ١٩٧٩م، استخدموا الاستياء العام من إعدام مصدق في دعايتهم المناهضة لأمريكا... ومن هؤلاء (الخميني) الذي حين سأله صحفي عن مصدق، أجاب: «الرجل الذي ذكرته صفعه الله». وبعبارة أخرى، اختار الله وكالة المخابرات المركزية لمعاقبة مصدق. وأشاد الخميني آية الله بموقف كاشاني وبهبهاني»[٨].

وفي خطاب ألقاه خميني عام ١٩٨١م وصف (مصدق) بأنه «غير مسلم».

---

(١) Kressin Wolfgang: Mossadegh and Kashani from Unity to Enmity.

(٢) السفير منصور فرهانج: مقالة على موقع ميدل إيست أي. https://www.middleeasteye.net/opinion/blame-foreigners-disasters-1953-coup-yes-iranians-must-look-their-own-failings

(٣) Tauris, 2007 Ends of British Imperialism: Suez and.

(٤) ينظر: مذكرات الضابط كيرميت روزفلت: Revolution and Counter Revolution

(٥) تاريخ إيران السياسي بين ثورتي ١٩٠٦-١٩٧٩م، ص (١٨١-١٨٨).

(٦) جوناثان سامياخ: مقالة Don't Blame the Mossadeq Coup، معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، إبريل ٢٠٢٠م.

(٧) ينظر رابط وزارة الخارجية https://history.state.gov/historicaldocuments/frus1951-54Iran/d43

(٨) مقالة فرهانج: مرجع سابق.

صعود الشاه ونزعته الاستقلالية:

بدأ الشاه بعد عقدين ينحو كوالده باتجاه نوعٍ من الاستقلالية السياسية والاقتصادية وتكريسً «الشاهنشاهية»، فرفع أسعار النفط من أجل برنامجه الاقتصادي واستكمال البنى التحتية كمفاعل بوشهر، ورفض صراعًا إقليميًا توظيفيًا ضد العراق والعرب، فوقّع اتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥م، وقد كان عقد السبعينات قد شهد اضطراب علاقات الشاه بفورد وكارتر ولندن بسبب أسعار النفط[١].

جاء ذلك بعد (ثورة الشاه البيضاء) في الستينات، حيث بدأ بنزع ملكيات كبار المزارعين لصالح صغارهم فتقلصت جبايات الملالي، وسمح للنساء بالتصويت، فعارض الملالي ورجال البازار إصلاحات الشاه، لا سيما مع القمع وبذخ حاشيته. ومن هؤلاء (خميني) الذي كان من أشد المعجبين بالكاشاني وبدأ بنسج امتياز قيادة معارضة الشاه واتهم الشاه بمعارضة الدستور والدين وبيع البلاد لأمريكا»[٢].

والخميني يعي أنّ «إيزنهاور رتّب انقلابًا فاشلاً على الشاه عام ١٩٥٨م عن طريق الجنرال محمد ولي قرني»[٣].

الشاه وقضية فلسطين والخيار العربي:

شهدت نهاية حرب ١٩٧٣م، وتحول مصر نحو الغرب وتخلي العرب عن الخيار العسكري، متنفسًا للشاه الذي اعتمد على مبدأ (الخيار العربي)، كانت إيران حينها في أوج قوتها.

بات الشاه يتوجّس أكثر من السوفييت وشراهة الدول الغربية، ورأى أن استقراره لن يتحقّق إلا بالتفاهم مع العرب والتوازن في العلاقة مع تل أبيب[٤]، فمال لخطب ودهم واعترف بالبحرين وزار مكة لتنسيق السياسة النفطية، لكنه تعرض للخذلان بسبب اتفاق يماني وكيسنجر السري[٥].

كما دعمت إيران الاعتراف بمنظمة التحرير وحق العودة، وكانت ترى الخيار السلمي لتحقيق هذه الحقوق. وفيما يتعلق بالقدس والمستوطنات، أبلغ الشاه كيسنجر بأن إيران تطالب بسيادةٍ إسلاميةٍ على القدس، بالإضافة لرفضها المستوطنات، والمطالبة بالانسحاب من أراضي ٦٧.

بالنتيجة كانت مواقف الشاه متماشية مع المواقف العربية، وتقبل الأمر الواقع بوجود إسرائيل، وتتعاون مع تل أبيب في المجالات الاقتصادية والتكنولوجية والأمنية، مع مطالبتها بمنح الفلسطينيين حقوقهم من أجل السلام وتخفيف التوتر في المنطقة لإبقائها بعيدًا عن مغامرات السوفييت التي تستغل القضية الفلسطينية، وبذلك يكون الشاه متصالحًا في سياساته مع البراغماتية الواقعية[٦].

> **مع دور إيران داخل (أوبك) وحرب ١٩٧٣م وأزمة النفط، بدأت ترتسم سياستها في السبعينيات بالتحالف مع مصر والخليج وباكستان، ومع إسرائيل وتركيا في المقابل، ولكن ضمن رؤية مستقلة عن التبعية الكاملة للسياسة الأمريكية**

الشاه والنفط:

مع دور إيران داخل (أوبك) وحرب ١٩٧٣م وأزمة النفط، بدأت ترتسم سياستها في السبعينيات بالتحالف مع مصر والخليج وباكستان، ومع إسرائيل وتركيا في المقابل، ولكن ضمن رؤية مستقلة عن التبعية الكاملة للسياسة الأمريكية.

وعقب توقيع الشاه اتفاقية الجزائر مع العراق ١٩٧٥م، وكلام رابين لكيسنجر بأنه سيكون من الحماقة اعتماد تل أبيب على الشاه[٧]... اعترف كيسنجر لرابين بأن الشاه أدخل عنصرًا خطيرًا من عدم الثقة في عملية السلام قائلاً: «سأعطيك حُكمي، ولكن حُكمي يجب أن يشمل إمكانية تغيير مسار

(١) Oil and the Shah of Iran (١٩٧٤) مقابلة تلفزيونية مع الشاه https://www.youtube.com/watch?v=EI5joeY2l-U
(٢) تاريخ إيران السياسي بين ثورتي ١٩٠٦-١٩٧٩م، ص (١٩٠).
(٣) مقابلة راي تاقيه السابقة، نقلاً عن مذكرات ضابط المخابرات كريميت روزفلت.
(٤) ينظر: رابط لقاء الشاه التلفزيوني ١٩٧٤م - مرجع سابق.
(٥) ينظر: كتاب أندرو سكوت كوبر: الاتفاق السري الذي أطاح بالشاه.
(٦) ينظر مقالة: إيران والقضية الفلسطينية زمن الشاه، لنبيل عودة: https://www.noonpost.com/content/11455/
(٧) استمع لمقابلة تلفزيونية مع الشاه ١٩٧٦م https://www.youtube.com/watch?v=9RH2wXQtFdo

السادات في المستقبل... ما فعله الشاه، هو قادر على فعله... لقد هزني القرار الإيراني أيضًا»[١].

خطط أمريكية بديلة: تصعيد خميني:

يبدو أنَّ الاستقرار السياسي بين دول المنطقة كان خلافًا لرغبة أمريكا بزعزعة المنطقة لتحقيق مصالح استراتيجية اقتصادية وديمغرافية تفتيتية.

الولايات المتحدة كانت تراقب الشارع الذي بقي يتحرَّك منذ الستينات وأيقنت أنَّ البديل المرحلي العقائدي الإقصائي المناسب قد يكون (الملالي)، لا سيما مع مرض الشاه ونزعته الاستقلالية والنفطية وهو ما انتهجته أمريكا لاحقًا بدهاءٍ سياسي على حساب تيارات المعارضة الإيرانية الوطنية الأخرى.

أدركت الولايات المتحدة أنّها لا يمكن أن تسمح للحراك (الذي شمل جميع القوى) بتجديد عهد (مصدق) فأفسحت الطريق لنظام الخميني الأيديولوجي صاحب «ولاية الفقيه»، وهذا قد يفسر تغاضي أمريكا عن (مصطفى جمران)[٢] الذي كان يعمل في وكالة ناسا وأسس جبهةً معارضةً هناك.

فيما تعود جذور فكرة التخادم الأمريكي مع (خميني) إلى التجربة الناجحة مع (كاشاني) في قطع الطريق على القوى الوطنية الثورية عام ١٩٥٣م، وهو ما حصل ١٩٧٩م مع تفاقم مرض الشاه المتمرد.

وفي وثيقة (للوكالة الأمركية) بعنوان «الإسلام في إيران»، ونشرتها هيئة الإذاعة البريطانية، إنّ (خميني) تواصل مع الولايات المتحدة عام ١٩٦٣م عبر د. ميرزا خليل كرامائي حيث أوضح خميني أنه لا يعارض مصالح أمريكا في إيران.

ويعزى إلى (لورد ويورد) وزير خارجية بريطانيا قوله في أكتوبر ١٩١٤م أن هناك أقوى جهاز متنفذ في إيران ونحن نثق به وهو طبقة رجال الدين الملالي.

ويذكر (نهاوندي) رئيس جامعة طهران سابقًا: «السيناريو بدأ يحاك منذ ١٩٧٥م بعد أن تصلب شاه إيران في رفع أسعار البترول، وأخذ يعد العدة للاكتفاء الذاتي، ولا يهتم بالمصالح الأمريكية والأوروبية كالسابق»[٣].

وقد «ذكر الشاه في مذكراته أنَّ الأمريكان لم يعملوا لإنقاذه، ورغبوا في مغادرته البلاد كما قال له الجنرال هويزر معاون رئيس حلف ناتو والذي اتصل بالمعارضة»[٤]. بل «انحصرت مهمة هويزر في منع الجيش من القيام بانقلاب لإنقاذ العرش وأبلغهم أنَّ أمريكا لن تساندهم، وأما BBC فقد كانت تساند المعارضة بشدّة وتبثُّ خطب ومحاضرات الخميني»[٥].

فيما نُقل عن الشاه: «يقول لي الناس لو أنك رفعت لحية الخميني فستجد عبارة صنع في إنجلترا تحت فمه»[٦]. وما كان على الشاه إلا أن يلوم نفسه على حصاده.

> **تعود جذور فكرة التخادم الأمريكي مع (خميني) إلى التجربة الناجحة مع (كاشاني) في قطع الطريق على القوى الوطنية الثورية عام ١٩٥٣م، وهو ما حصل ١٩٧٩م مع تفاقم مرض الشاه المتمرد**

محادثات خمينية أمريكية:

لم يكن سفر إبراهيم يزدي إلى أمريكا عام ١٩٦٠م عائقًا لدوره في (الجبهة الوطنية)، فافتتح لها فرعًا في هيوستن[٧]، وتسلّم مسؤولية ترجمة بيانات (خميني) والرسائل المتبادلة بين خميني والأمريكيين، التي بلغت وفقًا لمذكرات يزدي خمسة لقاءات دارت حول المخاوف من نشوب حربٍ أهليةٍ مع الانقلاب، والتخوف من قوة الشيوعيين... ومستقبل استثمارات أمريكا في إيران[٨].

(١) ينظر: كتاب «ملوك النفط»، لِسكون كوبر، يقصد كيسنجر أن الشاه باتفاقه مع صدام باع الأكراد حلفاء إسرائيل.
(٢) ينظر سيرة جمران عمومًا «Nick Robinson: biography of «Mustafa Chamran
(٣) ينظر: هوشنك نهاوندي: كتاب «الخميني باريس والأكاذيب الكبرى والحقائق الموثقة».
(٤) الثورة البائسة، لموسى الموسوي، ص (١٩).
(٥) تاريخ إيران السياسي بين ثورتي ١٩٠٦-١٩٧٩م، ص (٢١٦).
(٦) الكبرياء والسقوط، مذكرات آخر سفير بريطاني في إيران، للسفير أنتوني بارسونز، ص (١٠).
(٧) مذكرات ابنة دبلوماسي ٥: موقع الأهرام، نقلاً عن مذكرات الأميرة أشرف https://www.siyassa.org.eg/News/15539.aspx
(٨) مقالة، إبراهيم يزدي «النفي الطويل في قلب الثورة»، موقع جادة إيران https://aljadah.media/archives/9237

يقول البروفيسور (موسى الموسوي)[١] الذي كان خميني يطلب مساعدته في طهران والنجف وباريس: «يظهر من اعترافات زمرة خميني أن الأمريكان غيروا سياستهم في دعم الشاه... وبدؤوا بالاتصال مع (خميني) وزمرته. فهل كان هذا لأنَّهم علموا أنَّ (الشاه) مصابٌ بالسرطان... فالبحث إذن عن نظام قويٍّ صديق، لا سيما أن اهتمام السياسة الأمريكيةً ينصب على عدم انتصار الشيوعية في بلد استراتيجي مثل إيران»[٢].

ثم يضيف الموسوي: «... ناهيك عن المحادثات التي دارت في باريس بين خميني ورامزي كلارك، ثم استمرت المحادثات بين زمرة خميني في طهران مع الأمريكان، كما اعترف بازركان وبهشتي ورفسنجاني أنهم أجروا تلك الاتصالات بعلم (خميني) وأمره... ولم يكن وزير الخارجية (اليزدي) هو الأمريكي الوحيد في الدولة الخمينية، بل كان (أمير انتظام) وزير الدولة والناطق الرسمي، (ومصطفى جمران) وزير الدفاع يحملان (الجنسية الأمريكية)»[٣].

«ومن المفارقات أن حسين (حفيد خميني)، ذكر لي أنه حمل إلى جدِّه وثائق من (فتح) تثبت عمالة (جمران) للمخابرات الأمريكية، وأبلغ جدَّه موقف جمران من قضية فلسطين وتورُّطه بدماء الفلسطينيين مع (أمل)، إلا أن جدَّه ثبته كوزير للدفاع. ومع أنَّ حسين الخميني صفع جمران في المطار أمام الجموع علّه يستقيل»[٤].

> **«من المفارقات: أن حسين (حفيد خميني)، ذكر لي أنه حمل إلى جده وثائق من (فتح) تثبت عمالة (جمران) للمخابرات الأمريكية، وأبلغ جده موقف جمران من قضية فلسطين وتورُّطه بدماء الفلسطينيين مع (أمل)، إلا أن جده ثبته كوزير للدفاع»**
>
> **الثورة البائسة للموسوي**

الفئات التي تعاونت لإسقاط الشاه[٥]:

١. الجبهة الوطنية: جماعة مصدق الأعرق. ثم تجمعت في حركة (حرية إيران) التي أسسها الإمام الزنجاني وبازركان، ونفوذها في الجامعات والبازار.

٢. مجاهدو خلق وجماعة الفرقان: بدؤوا بالمقاومة المسلحة، الأب الروحي لهم الطالقاني وشريعتي، دورهم الشبابي كبير في نجاح الثورة، كذلك الأحزاب اليسارية كتوده الشيوعي.

٣. كبار رجال الدين كشريعتمداري وطبطبائي، وكانوا على طرفي نقيض مع الخميني.

٤. جماعة شريعتي: المثقفون المتحمسون للتجديد الإسلامي بعيدًا عن الطبقية وحكم الملالي.

٥. خميني وزمرته من رجال الدين.

وقد اضطر نظام خميني في البداية لأن يسمح لحركة (حرية إيران) بتشكيل أول حكومة بعد الثورة -بازركان ثم بني صدر- ثم أجهضها وطردهم واستحوذ على كل الصلاحيات.

على طريق إيران كونترا:

وفقًا لتريتا بارسي، زار أحمد ابن الزعيم آية الله كاشاني إسرائيل في أوائل عام ١٩٨٠م لمناقشة مبيعات الأسلحة والتعاون بخصوص المفاعل العراقي، وأدى ذلك إلى صفقات أسلحة وسماح الخميني لأعداد كبيرة من اليهود بمغادرة إيران، وزار بعدها الكولونيل Uri طهران[٦].

وتحدث الرئيس الإيراني (أبو الحسن بني صدر) بإسهاب في كتابه (دوري لأتحدث)، وفي عدة مقابلات عن كثيرٍ مما أسلفناه، وعلاقات (خميني) ورجاله بأمريكا والتي تطورت إلى (إيران كونترا)، ومما قاله: «تم عقد اجتماع في إسبانيا بين رضا بسنديدة نجل شقيق الخميني ووليام كيسي مدير الحملة الانتخابية لريجان... وقد قال لي أحمد الخميني أمام والده: إنّ الخميني يصر على التعاون

(١) شخصية مرموقة من عائلة شيعية مرجعية، وحاصل على شهادات الدكتوراة في الفقه والاقتصاد والفلسفة من النجف وجامعة طهران ثم السوربون، وعمل أستاذًا في جامعات طهران وبغداد وهارفرد وكاليفورنيا.
(٢) الثورة البائسة، للموسوي، ص (٢٠).
(٣) المرجع السابق، ص (٢١).
(٤) المرجع السابق، ص (٨٠).
(٥) المرجع السابق، ص (٢٩-٣٠).
(٦) Treacherous Alliance, Yale University Press, P95.

مع ريغان... وكان هناك لاحقًا اتفاقٌ سري لبيع السلاح لإيران»[١].

وبحسب مركز بافي للدراسات في جامعة تل أبيب فإن (إسرائيل) عدا عن وساطاتها والصفقات الأمريكية، باعت إيران أسلحةً مقابل النفط.

يقول الموسوي: «ثبت لإسرائيل أن إيران في ظل «التاج والعمامة» سوقٌ رائجة، فما تستورده الجمهورية الإسلامية من إسرائيل بلغ أضعاف ما كانت تستورده إيران في عهد الشاه، والنفط الذي تستورده إسرائيل منها أضعاف ما كانت تستورده أيام الشاه، فمتى كان الشاه يشتري الأسلحة وقطع الغيار من إسرائيل كما فعلت الدولة الخمينية، غير أنَّ الشاه كان شجاعًا في التصريح بعلاقاته مع إسرائيل، والخميني وزمرته جبناء...»[٢].

وقد اتُّهم مهدي هاشمي من قبل النظام عام ١٩٨٦م بإفشاء معلومات المفاوضات بين هاشمي رفسنجاني والولايات المتحدة، فصدر حكم إعدامه رغم معارضة منتظري.

> **«كان الشاه يشتري الأسلحة وقطع الغيار من إسرائيل كما فعلت الدولة الخمينية، غير أنَّ الشاه كان شجاعًا في التصريح بعلاقاته مع إسرائيل، والخميني وزمرته جبناء»**
>
> **الثورة البائسة للموسوي**

جانب من التعاملات مع إسرائيل:

١. قبل وصول الخميني إلى السلطة بشهر تواصلت إسرائيل معه لمعرفة نواياه تجاه الكيان واليهود، فكان جوابه مطمئنًا. الرسائل[٣] نقلتها «روث بلاو» زوجة الصهيوني «نيتوري كارتا» والتقت بالخميني عدة مرات، ثم لعبت دورًا في هجرة اليهود وبيع أسلحة لإيران منذ ١٩٨٠ حتى إيران كونترا[٤].

٢. في أبريل ١٩٨٠م، إسرائيل باعت إيران قطع غيار لمقاتلات إف ٤ وأسلحة، وبالمقابل سمح خميني لليهود الإيرانيين بالانتقال إلى إسرائيل. وأكد أحمد حيدري تاجر الأسلحة الإيراني أن ٨٠٪ من أسلحة إيران بعد بداية الحرب وصلت عن طريق إسرائيل[٥].

٣. تخوف الموساد من تفوق العراق على إيران وأثره على الأمن القومي. ولهذا قام «وليم كيسي» بعمل عدة اجتماعات بين مسؤولين إيرانيين ومسؤولين في الموساد أحدهم كان «ناخوم ادموني» في إسبانيا. تسليح إيران كان أولوية لإسرائيل[٦].

٤. ريغان أوعز بإيصال الأسلحة في أول أيامه مما فتح الباب لإسرائيل لدعم إيران بشكل لا محدود. تطورت العلاقات إلى فتح لجنة مشتركة بين أمريكا وإسرائيل للتباحث في نوعية وكمية الأسلحة المرسلة لإيران[٧].

٥. بلغت قيمة الصفقات عشرات المليارات حتى العام ١٩٨٧م. إسرائيل استطاعت تزويد إيران بأسلحة إسرائيلية وأمريكية وأوروبية وبرازيلية، وطائرات ميراج ومعامل للأسلحة الكيميائية[٨].

٦. بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية تواصل بيع إيران لملايين براميل النفط لإسرائيل. وقد أبلغت إسرائيل أمريكا بذلك في نوفمبر ١٩٨٩م.

ضرب الإسلام من الداخل:

الشاه كان يؤمن بعظمة القومية الفارسية وتراثها، وسعى لتحقيق عصبية فارسية (شاهنشاهية) في محيط متجاذب راعى فيه التوازن الجيوسياسي، فيما شاركه (خميني) في المركزية العرقية، ولكن زاد عليها العصبية المعنوية (الصفوية)، وهي التي كرست (تصدير الثورة) وهلهلة المنطقة بالتهديدات، وهو ما ثبت أنه أصلح لتدخل الغرب وابتزازه للمنطقة وحلبِها.

(١) الذاكرة السياسية، أبو الحسن بني صدر https://www.youtube.com/watch?v=VfiiV_tA3jM
(٢) الثورة البائسة، ص (١٢٥).
(٣) RUTH BLAU: Motti Inbari, P3.
(٤) Profit of war: Ari Ben-Menashe, 1992.
(٥) Treacherous Alliance, Yale University Press, P95-96.
(٦) OCTOBER SURPRISE, Gary Sick, P100.
(٧) WEALT, EMPIRE & FUTURE OF AMERICA: Peter Scott, P107.
(٨) Profit of war: Ari Ben-Menasha, 1992.

يقول د. محمد الأحمري: «لعل مما يستحق التنبُّه له في الدراسات الغربية والتخطيط هي سياسة تقسيم الإسلام إلى قسمين: سني وشيعي، سياسة سبق أن أثارها أمثال فريدمان الذي يزعم أن السنة كانوا يحتلون العراق، وأن أمريكا جاءت لتحرير الأكثرية من الأقلية!

ومن الزاعمين أنهم يكتبون استراتيجية للعلاقات "الشيعية الأمريكية" نصر والي، صاحب كتاب (انبعاث الشيعة) الذي يقوم على نظرية أنَّ الإسلام السني يشبه "الكاثوليكية" بجموده وتخلُّفه وخطره على الغرب وثقافته، فيما "الإسلام الشيعي" يمثل "بروتستانت الإسلام" أي التيار المتنوِّر الديمقراطي الواقعي المتصالح فكريًا ومستقبليًا مع الغرب، والذي كان يظهر للغرب أنَّه عدو له وفي الحقيقة يحمل بذور الصداقة والعلاقة الاستراتيجية.

قد يكون هدف الفكرة تقريب الغرب للشيعة وتقريب الشيعة للغرب، وتقوية الأقلية ضد الغالبية، وبناء ولاءٍ أعمق من السياسة... وهذا التوجه إحياء لأفكار قديمة استعمارية نجحت في الماضي...»[١].

وجاء على لسان (رفسنجاني) عقب حرب الخليج الثانية: «إنَّ إيران البلد الوحيد الذي يمكن للعالم الاعتماد عليه للدفاع عن أمن منطقة الخليج ومواردها النفطية»[٢].

> **الشاه كان يؤمن بعظمة القومية الفارسية وتراثها، وسعى لتحقيق عصبية فارسية (شاهنشاهية) في محيط متجاذب راعى فيه التوازن الجيوسياسي، فيما شاركه (خميني) في المركزية العرقية، ولكن زاد عليها العصبية المعنوية (الصفوية)، وهي التي كرست (تصدير الثورة) وهلهلة المنطقة بالتهديدات، وهو ما ثبت أنه أصلح لتدخل الغرب وابتزازه للمنطقة وحلبِها**

البرغماتية الملالية:

«أكّد عدد من النخب الإيرانية أن الدعوة لإعادة العلاقات السياسية مع (الولايات المتحدة) أو عدم إعادتها ليست دليلاً على الالتزام بمبادئ الثورة الإيرانية، وإنما يتعلق ذلك بتحقق المصلحة الوطنية»[٣]. واختصر خامنئي معادلة دولة الملالي بكلمات: «إيران بحاجة إلى عداوة أمريكا»[٤].

وقد نقل موقع إيران إنترناشيونال مؤخرًا كلامَ علي أكبر صالحي في مقابلة قناة الميادين: «على طهران أن تفعل شيئًا لمنع (القضية الفلسطينية) من أن تتحول إلى صراع إسرائيلي - إيراني في الرأي العام العالمي».

«وليس سرًا أنه في محضر النقاش بين (سولانا) مسؤول الخارجية الأوروبية و(لاريجاني)، ذكر لاريجاني أنه من الممكن أن تتنازل إيران عن (السلاح النووي) مقابل ثمن لائق... مثل هيمنة إيرانية على بقية شواطئ الخليج، لأنَّ هذه مناطق شيعية وثروتها تذهب لحكامٍ سنّة»[٥].

هل شعوب إيران مستثناةٌ من قيمنا:

يفوق الوصف ما يتحمله (المجتمع الإيراني) بأطيافه من استبدادٍ بعد سرقة ثورته عامي ١٩٥٣م و١٩٧٩م. والأمير (عبد الكريم الخطابي) يقول: «قضية المستضعفين واحدة وتوحدهم»، إذ إنّ المجتمع الإيراني دفع أثمانًا مثلنا على يد الشاهنشاهية والملالية.

يناقش بعضنا بخصوص شدة العلاقة بالنظام الإيراني، كون إيران جزءًا من منطقتنا وحضارتنا. وهذا حقٌ يصح (للشعب الإيراني) أولاً، فهو أساس الحضور والعلاقة. والرهان القيمي يكون على العدالة والحرية والحق.

ويبدو اليوم في إيران حانت لحظة الحقيقة.

يقول دو توكفيل: «تحين اللحظة الأكثر خطورة بالنسبة لنظام سيئ حين يسعى لإصلاح نفسه».

---

(١) رؤية في المُعضلة الشيعية، موقع مجلة العصر، مارس-٢٠٠٧م، بتصرف يسير.
(٢) العلاقات الأمريكية الإيرانية ـــ الوجه الآخر، للدكتور ضيف الله الضيعان، ص (١٢).
(٣) العلاقات مع أمريكا بين خامنئي ورفسنجاني، لمحمد السعيد، مجلة مختارات إيرانية، العدد ١٤٢، ص (٦١).
(٤) مقالة: «دروس للفهم والتعامل مع طهران»، لجورج كينان.
(٥) رؤية في المعضلة الشيعية.

التغيرات المناخية ومواجهتها من منظور الشريعة الإسلامية

أ. د. صبحي رمضان فرج سعد (*)

يوضح المقال أن التغيرات المناخية تفاقمت بسبب الأنشطة البشرية، مما أثر سلبًا على الصحة والبيئة، ويُبرز المنظور الإسلامي الحلول المستدامة؛ مثل الحفاظ على البيئة، والترشيد، والتدوير، كما يؤكد أهمية التعاون الدولي، والسياسات الخضراء، ودور الدولة والمجتمع في مواجهة هذه الظاهرة، مع الأخذ بمبادئ الشريعة لحماية الأجيال المقبلة.

مقدمة:

رغم أن التغيرات المناخية ظاهرة بدأت منذ عدة قرون، إلا أن وتيرتها وحدتها زادت بشكل كبير في الآونة الأخيرة؛ نظرًا لما شهدته الأنشطة البشرية من اعتماد واسع النطاق على مصادر الوقود الأحفوري، وبخاصة في قطاعات الصناعة والزراعة والنقل؛ وهو ما سبب ارتفاعًا مطردًا في درجة حرارة الغلاف الجوي وآثارًا خطيرة على الأنظمة البيئية والموارد والصحة العامة؛ بما يخل بضمان استدامتها وحفظ نظام التعايش فيها وحقوق الأجيال القادمة.

وانطلاقًا من الوعي العالمي بضرورة تعزيز الدور المحوري الذي تقوم به الأديان ضمن الجهود العالمية الرامية إلى معالجة قضايا تغير المناخ، نُظمت قمة عالمية لقادة رموز الأديان (نوفمبر -٢٠٢٤م) في جمهورية أذربيجان، بالتعاون مع مجلس حكماء المسلمين ورئاسة مؤتمر الأطراف COP29 واللجنة الحكومية للمؤسسات الدينية بأذربيجان وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP)؛ بهدف تعزيز التعاون الدولي في مواجهة تغير المناخ، وتوجيه نداء عالمي مشترك للحد من الكوارث وحماية الكوكب من التهديدات البيئية.

ويوضح المقال مدى تكامل وشمولية الرؤية الإسلامية في معالجة قضية التغير المناخي، وواقعيتها من خلال تعاملها المباشر مع أصل المشكلة وليس نتائجها، بالإضافة إلى مرتكزاتها القائمة على العقيدة.

(*) أستاذ جغرافية البيئة - كلية الآداب - جامعة المنوفية بمصر.

أولاً: التلوث البيئي وأضرار التغير المناخي:

يشير مصطلح تغير المناخ إلى التحولات طويلة الأجل في درجات الحرارة وأنماط الطقس، الناتجة عن انبعاث غازات الدفيئة (ثاني أكسيد الكربون، الميثان، الكلورفلوركربون، أكاسيد النيتروز وغيرها). وتؤكد تقارير المنظمة العالمية للأرصاد الجوية أنَّ تركيزات غازات الدفيئة بلغت مستويات قياسية. فبلغ تركيز ثاني أكسيد الكربون على الصعيد العالمي ٤١٩ جزءًا في المليون، بزيادة تزيد على ٥٠٪ مقارنة بمستويات تركيزه بفترة ما قبل الثورة الصناعية.

وأسهم تغيّر المناخ بشكل مباشر في حدوث حالات الطوارئ الإنسانية الناجمة عن موجات الحر وحرائق الغابات والفيضانات والعواصف والأعاصير، التي تتزايد من حيث الحجم والتواتر والشدة.

ويؤثر تغير المناخ بشكل متزايد على الأمن البشري في جميع أنحاء العالم؛ إذ يمكن أن يؤدي هطول الأمطار المفاجئ والظواهر الجوية المتطرفة إلى إشعال فتيل التنافس على الغذاء والماء، كما يمكن أن يؤدي انخفاض الإنتاج الزراعي إلى فقدان شريحة واسعة من السكان لمورد رزقهم؛ مما يؤدي إلى زيادة التفاوتات الاقتصادية القائمة ووقوع المزيد من الناس في براثن الفقر. ويقدر تقرير للبنك الدولي أن ما بين ٦٨ إلى ١٣٥ مليون شخص إضافي قد يقعون في براثن الفقر بحلول عام ٢٠٣٠م بسبب تغير المناخ.

كما تؤدي تأثيرات تغير المناخ بشكل متزايد إلى نزوح أعداد كبيرة من السكان في جميع أنحاء العالم. فبحسب إحصاءات الأمم المتحدة تدفع موجات الجفاف والفيضانات والعواصف بالفعل إلى نزوح أكثر من ٢٠ مليون شخص من منازلهم والانتقال إلى مناطق أخرى في بلدانهم كل عام.

كذلك يؤثر ارتفاع درجات الحرارة بشكل مباشر على صحة الإنسان، حيث يزيد الضغوط على الأشخاص الذين يعانون من بعض الأمراض المزمنة خاصة في فصل الصيف، مثل أمراض القلب والأوعية الدموية والجهاز التنفسي، إضافة إلى التسبب في حدوث ضربات الشمس وتأثر الصحة العقلية.

وبحسب منظمة الصحة العالمية (WHO) يُتوقع أن يسبب تغير المناخ نحو ٢٥٠ ألف حالة وفاة إضافية كل عام بسبب نقص التغذية والملاريا والإسهال والإجهاد الحراري وحدها، خلال الفترة (٢٠٣٠-٢٠٥٠م). وتشير التقديرات إلى أن التكاليف المباشرة للضرر على الصحة (أي دون احتساب التكاليف في القطاعات المحددة للصحة مثل الزراعة والمياه وخدمات الصرف الصحي) تتراوح بين ٢ و٤ مليار دولار أمريكي في العام بحلول عام ٢٠٣٠م.

> **يؤثر تغير المناخ على الأمن البشري في جميع أنحاء العالم؛ إذ يمكن أن يؤدي هطول الأمطار المفاجئ والظواهر الجوية المتطرفة إلى إشعال فتيل التنافس على الغذاء والماء، كما يمكن أن يؤدي انخفاض الإنتاج الزراعي إلى فقدان شريحة واسعة من السكان لمورد رزقهم؛ مما يؤدي إلى زيادة التفاوتات الاقتصادية القائمة ووقوع المزيد من الناس في براثن الفقر**

وقد تضمنت كتب التراث الإسلامي إشارات واضحة إلى الآثار الصحية لفساد (تلوث) الهواء، ومن ذلك ما أشار إليه ابن القيم (المتوفى سنة ٧٥١هـ) في كتابه «الطب النبوي» حيث عقد فصلاً عن الأوبئة التي تنتشر بسبب فساد الهواء جاء فيه: «والمقصود أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام والعلة الفاعلة للطاعون، فإن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء وفساده يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة؛ لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه، كالعفونة والنتن والسمّية، في أي وقت كان من أوقات السنة»[1].

وألف أبو بكر الرازي (المتوفى سنة ٣٠٠هـ) رسالة في «تأثير فصل الربيع وتغير الهواء تبعًا لذلك»، فيقول: «يظهر هذا الداء في فصل الربيع حين تنفتح الأزهار، فتملأ الجو بغبار الطلع الذي يدخل بتماس مباشر مع مخاطية الأنف، فيتسبب في هذا النوع الخاص من الزكام»[2].

(١) الطب النبوي، ص (٣٣).
(٢) قضايا البيئة من منظور إسلامي، لبدوي محمود الشيخ، ص (١٧١).

اعتبر بعض العلماء حفظ البيئة مقصدًا كليًا إلى جانب مقاصد الشريعة وضرورياتها الخمس (حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل)، فإفساد البيئة على هذه الوتيرة الخطيرة في الوقت الحاضر أمر يصعب معه تحقيق الاستخلاف في الأرض وعمارتها؛ وهو ما يصعب معه حفظ الدين

وتحدث محمد بن أحمد التميمي المقدسي (المتوفى سنة ٣٧٠هـ) عن الباعث لتأليف كتابه «مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء»، فقال: «إني نظرت حال علماء الأطباء الساكنين بالأمصار الفاسدة الأهوية، والبلدان المشهورة بالأوبئة الكثيرة الأمراض، التي يحدث بها عند انقلابات فصول السنة الأمراض القاتلة والطواعين المهلكة؛ لأجل فساد أهويتها...»[(١)]، وفي المقالة الرابعة من كتابه يقول عن العلاقة بين تلوث الهواء والماء: «إن الجو إذا فسد بنوع من أنواع الفساد الداخلة عليه، مثل أبخرة المياه الغليظة المتصاعدة إليه، وباختلاف حالاته وتغيير أمزجته في فصول السنة... فلا محالة أنه يفسد لأجل ذلك أيضًا الماء المجاور لتلك الأهوية الفاسدة الذي يشربه أهل تلك البلدان وسكانها؛ لقبوله ما يحدثه فيه الهواء من الحر أو البرد أو العفن أو الغلظ؛ إذ الماء والهواء عنصران متجاوران يستحيل أحدهما إلى الآخر ويدخل أحدهما في أجزاء الآخر فيشابكه ويمازجه»[(٢)].

من أجل ذلك، اعتبر بعض العلماء حفظ البيئة مقصدًا كليًا إلى جانب مقاصد الشريعة وضرورياتها الخمس (حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل)، فإفساد البيئة على هذه الوتيرة الخطيرة في الوقت الحاضر أمر يصعب معه تحقيق الاستخلاف في الأرض وعمارتها؛ وهو ما يصعب معه حفظ الدين. كما أن التلوث البيئي والتغيرات البيئية وما ينتج عنها من كوارث تزهق الأرواح يتنافى مع مقصد الشريعة في حفظ النفس. وأيضًا فإنّ إهدار الموارد واستنزافها – باعتبارها رأس مال طبيعي- والحروب التي تنشب للسيطرة عليها وما يترتب عليها من فقر وتشريد يتعارض مع حفظ المال والنسل والعرض. بالإضافة إلى ذلك فإن الوعي بطبيعة البيئة وقدراتها وسلوكيات التعامل معها برشد ومسؤولية فيه حفظ للعقل من أن يطغى في ذاتيته ونفعيته بما يدمر البيئة ويهلك الحرث والنسل.

ثانيًا: إجراءات مواجهة التغيرات المناخية والحد من آثارها في الشريعة الإسلامية:

إن حقيقة المشكلة البيئية لا تكمن في التكنولوجيا التي يمكن أن تنشأ عنها بعض المشاكل العَرَضية، وإنما تكمن في فهم الإنسان لنفسه ولواقعه البيئي (الوعي البيئي)، بالإضافة إلى المستحِثات الداخلية الدافعة أو الرادعة (الضمير البيئي). وقد قدم الإسلام في هذا الصدد تصورًا شاملاً ومنهجًا متكاملاً يحدد للإنسان المسؤوليات والضوابط، ويرسم له سبل التعامل الرشيد مع كل ما يحيط به من عناصر البيئة.

وقد ألمحت الآية (٤١) من سورة الروم إلى الدور المهم لسلوك الإنسان وممارساته في تدهور البيئة وتلوث مواردها، والذي عبرت عنه الآية الكريمة بالفساد، فقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]. وتبدو الآية الكريمة وكأنها عريضة اتهام للإنسان المعاصر، المستنزف لموارده، الملوث لعناصر بيئته. وقد تضمنت الآية إشارة لأربعة جوانب، وهي: الأول: حدوث تغيير سلبي في البيئة، وهو ما عبرت عنه الآية بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾. الثاني: انتساب التغيير إلى التدخلات البشرية غير الرشيدة، وهو ما عبرت عنه الآية بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾. الثالث: إلحاق الضرر بالبيئة بفسادها وصيرورتها غير صالحة أو ميسرة لما خلقت له، وهو ما عبرت عنه الآية بقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾. الرابع: عقاب المخطئ لعله يعود عن بغيه وإفساده، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة، بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(أ) مرتكزات الرؤية الإسلامية:

تزخر تعاليم الدين الإسلامي بالنصوص التي يشكل العمل بمقتضاها حلاً جذريًا لمشكلة التغير المناخي، وماهية ذلك ما يلي:

(١) مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء، لمحمد بن أحمد التميمي المقدسي، ص (٣٥).
(٢) المرجع السابق، ص (١٨٥).

» خلق الله الأرض على هيئة الصلاح، ونهت تعاليم الشريعة عن إفسادها أو العبث بمواردها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

» أمر الله الإنسان بعمارة الأرض، والعمارة نقيض الخراب، وتعني تمهيد الأرض وتحويلها إلى حال يجعلها صالحة للانتفاع بها وبخيراتها، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

» من المقرر شرعًا أن سيادة الإنسان على الكون سيادة انتداب، وليست سيادة تملك وتسلط مطلق، فالإنسان قائم بما يقوم به الموكَّل من الحفظ والرعاية، وذلك مفهوم الخلافة الذي جاء به الإسلام، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وبناء على ذلك عليه الحفاظ على البيئة ومواردها؛ لضمان استدامتها حفاظًا على حقوق الأجيال القادمة.

» دعت تعاليم الإسلام إلى العيش في بيئة آمنة خالية من المخاطر، لقول النبي ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار)[1]، وهذا الحق يستوي فيه الناس دون تمييز لفئة على فئة أو لمكان دون آخر؛ ومن ثم فإن أي إجراء يترتب عليه أضرار بالبيئة فهو في حكم الشرع محرم.

(ب) إجراءات مواجهة خطر التغير المناخي من المنظور الإسلامي:

(١) دور الدولة:

- الالتزام بما تقرره مؤتمرات المناخ للحد من انبعاثات غازات الدفيئة عالميًا:

من خلال المشاركة في إغاثة المتضررين من الكوارث الطبيعية الناتجة عن التغير المناخي، لا سيما إذا كانوا من المسلمين؛ حيث تصير حينئذ واجبًا شرعيًا. ومعلوم من شأن رسول الله ﷺ أنه كان يساند كل العقود والاتفاقات العادلة التي يتفق عليها الناس لدرء مفسدة، أو جلب مصلحة عامة، وظل الرسول ﷺ يشيد بعقد أبرمته قريش في الجاهلية واتفقت فيه على نصرة المظلوم، وسمي هذا العقد بحلف الفضول، وقال عنه: (لو دُعيت به في الإسلام لأجبت)[2]. وهذا بالطبع يوجب انخراط علماء المسلمين ضمن مبادرات مواجهة التغير المناخي، لتحفيز المسلمين أفرادًا ومؤسسات وشعوبًا، نحو تنفيذ مقررات المناخ، انطلاقًا من الالتزام الأممي، وقبله الالتزام الديني والأخلاقي لاستنقاذ الحياة على كوكب الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

- التناصح والأخذ على يد المارقين:

يُظهر تقرير برنامج الأمم المتحدة للبيئة (UNEP)، الصادر عام ٢٠٢٠م، تحت عنوان «تقرير التفاوت في الانبعاثات»، أن هناك تفاوتًا كبيرًا في حجم الانبعاثات الكربونية الصادرة. فدول مجموعة العشرين مسؤولة عن ٨٠٪ من انبعاثات غازات الاحتباس الحراري. وعند الأخذ في الاعتبار التأثير التراكمي لما أنتجته الدول من انبعاثات كربونية منذ بدء الثورة الصناعية، فإن مسؤولية الدول الصناعية الغربية عن التغير المناخي تصبح أكثر وضوحًا، بينما الدول الفقيرة هي الأكثر تضررًا. لذلك فإن الضغط على هذه الدول لتبني سياسات بيئية أكثر استدامة أمر مطلوب شرعًا، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦].

- تبني سياسات وبرامج التحول الأخضر:

التحول الأخضر هو عملية تغيير واسعة تشمل التحول نحو أنماط إنتاج واستهلاك مستدامة تهدف إلى حماية البيئة وتقليل الأثر السلبي على المناخ، ويشمل مجالات متعددة، مثل التحول إلى مصادر طاقة متجددة (كالطاقة الشمسية والرياح)، تحسين كفاءة استخدام الموارد الطبيعية، وتعزيز الاستدامة في قطاعات مثل الزراعة والصناعة والنقل.

ويُعد التشجير أحد أهم الحلول لمواجهة تغيُّر المناخ، حيث يشكل في ذاته استراتيجية مهمة لمعالجة تغير المناخ. فالأشجار والمساحات الخضراء بشكل عام تزيل الكربون من الغلاف الجوي من خلال عملية التمثيل الضوئي الطبيعية، والتي من خلالها تخزن الأشجار كميات كبيرة من الكربون من الغلاف الجوي في كتلتها الحيوية وفي التربة؛ مما يساعد في التخفيف من آثار تغير المناخ. وقد

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٣٤٠).
(٢) البداية والنهاية (٣/٨٣).

حثت عليه تعاليم الإسلام، فقد جاء في عمارة الأرض بالغرس ما أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة)[1]. وروى الأمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا قامت على أحدكم القيامة وفي يده فَسيلة فليغرسها)[2].

التحول الأخضر هو عملية تغيير واسعة تشمل التحول نحو أنماط إنتاج واستهلاك مستدامة تهدف إلى حماية البيئة وتقليل الأثر السلبي على المناخ، ويشمل مجالات متعددة، مثل التحول إلى مصادر طاقة متجددة (كالطاقة الشمسية والرياح)، تحسين كفاءة استخدام الموارد الطبيعية، وتعزيز الاستدامة في قطاعات مثل الزراعة والصناعة والنقل

(٢) دور المجتمع:

- تفعيل دور منظمات المجتمع المدني:

في خضم الاهتمام العالمي بتدابير مكافحة التغير المناخي برزت منظمات المجتمع المدني في تطوير وإصلاح السياسات البيئية والوطنية والعالمية للتصدي لتغير المناخ وتحقيق الأمن البيئي، من خلال تحفيزها على المشاركة المجتمعية، وتعزيز الوعي والتثقيف بقضايا تغير المناخ، والحث على تبني سلوكيات مستدامة، ودعم ومساندة الفئات الفقيرة والمهمشة المعرضة لأخطار بيئية، بالإضافة إلى دورها الرقابي على القطاعات الحكومية والخاصة للتأكد من التزامها بتطبيق سياسات مكافحة التغير المناخي وإصدار تشريعات تتعلق بهذا الشأن.

وقد دعت نصوص الشريعة في الكثير من المواضع إلى التناصح والتعاضد بين فئات وأفراد المجتمع، وجميعها تدعو في جوهرها إلى صور متعددة من المشاركة المجتمعية قولاً أو فعلاً، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ومن التطبيقات العملية لمفهوم المشاركة المجتمعية في مواجهة الأخطار التي تواجه المجتمع، ما ورد في سورة الكهف على لسان ذي القرنين، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥].

- إحياء دور الوقف البيئي:

يعتبر الوقف البيئي مصدرًا مستلهمًا من التراث والحضارة الإسلامية، كإسهام مؤسسي مالي وقانوني لتمويل ورفد العمل البيئي، وتطبيقاته المعاصرة، كمشروع الصكوك الوقفية لتمويل المشروعات الصديقة للبيئة، حيث تعتبر الصكوك الخضراء أداة تمويلية جديدة استحدثت للاستثمار في المشاريع الصديقة للبيئة سعيًا لتحقيق التنمية المستدامة، مثل مشاريع الطاقة المتجددة، كبناء محطات توليد الطاقة الشمسية ومحطات الغاز الحيوي ومشاريع طاقة الرياح، ومشاريع النقل التي تقلل من الانبعاثات، والإدارة المستدامة للنفايات، والتكيف مع تغير المناخ.

- تضمين قواعد الفقه الإسلامي في التشريعات البيئية ذات الصلة بقضايا تغير المناخ:

من أمثلة هذه القواعد:

» **لا ضرر ولا ضرار:** تستند هذه القاعدة إلى الحديث الذي رواه ابن ماجه في سننه عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قضى أن «لا ضرر ولا ضرار». أي لا يجوز الضرر ابتداء، وإذا حصل هذا الضرر فلا يجوز إيقاع الضرر في مقابلة هذا الضرر. ويندرج تحت هذه القاعدة «تدخين التبغ» على سبيل المثال، لما قد ثبت من ضرره، وكراهة رائحته وما يترتب عليه من إيذاء، بالإضافة إلى منافاته للمقصود الشرعي في الحفاظ على النفس والصحة والمال. فقد ثبت أن لتدخين التبغ العديد من التأثيرات البيئية الخطيرة، فلكي يجفف ورق التبغ يحتاج إلى اقتلاع ستمائة مليون شجرة على مستوى العالم يكون مصيرها الاحتراق، واستهلاك أكثر من أربعة أميال من الورق كل ساعة

(١) أخرجه البخاري (٢٣٢٠) ومسلم (١٥٥٣).
(٢) أخرجه أحمد (١٢٩٠٢).

لتغليف وتعبئة السجائر، وهذه الأشجار كان باستطاعتها امتصاص ٢٢ مليون طن من ملوثات ثاني أكسيد الكربون CO_2 من الجو. يضاف إلى ذلك أن شركات التبغ تنتج سنويًا ٥,٥ تريليون سيجارة، لينتج لدينا أكثر من ٤,٥ تريليون فلتر غير قابلة لإعادة الاستخدام، بما يمثل خمس فضلات الإنسان على كوكب الأرض. ويحتاج كل فلتر إلى عدة شهور وربما سنوات لكي يتكسر إلى مواد بسيطة، كما يغذي التربة بأكثر من ٦٠٠ مركب كيميائي غير مرغوب فيه[١].

- **الضرر يزال:** يعني ذلك أن الضرر ظلم يجب منع حصوله، وإذا حصل يجب إزالته. وإذا كان إفساد البيئة هو ضرر، فإنه يتحتم العمل على منع الأسباب المؤدية لحصوله. وإذا وقع هذا الضرر فإنه يجب العمل على مكافحته والوقاية من أضراره. على أن لا يزال الضرر بضرر مثله، فإذا كان هناك مصدر لتلوث الهواء في منطقة معينة (مصنع مثلاً)، فلا يزال المصنع لتنشأ مكانه محرقة قمامة.
- **الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف:** أي يجب أن يزال الضرر الشديد بضرر أقل منه، ما دام ليس بالإمكان إزالته بدون ضرر. وهذا يعني وجوب العمل على إزالة الضرر كليًا متى ما كان ممكنًا. وإلا يجب على الأقل أن يستبدل به ما هو أقل منه ضررًا. فالصناعات الحديثة مثلاً تنفث غازات وعوادم تضر بالبيئة، وبالنظر لحاجة التقدم والحياة إلى آلاتها ومصانعها مما لا يستطاع الاستغناء عنه؛ لذا وجب العمل قدر الإمكان على الإقلال منها واستبدالها بآليات أقل إضرارًا بالبيئة[٢].
- **درء المفاسد مقدم على جلب المصالح:** استنبطت هذه القاعدة من قول النبي ﷺ: (إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم)[٣]، لأن المنهيات مفاسد، فتحتم تركها جميعًا، وأما المأمورات فعلى المكلفين أن يأتوا منها ما استطاعوا. لذلك إذا تعارضت مصلحة ومفسدة يقدم دفع المفسدة على جلب المصلحة. على أن ذلك مقيد بتساوي المفسدة مع المصلحة أو تكون أكبر منها. أما إذا كانت المصلحة أكبر من المفسدة بكثير فتقدم المنفعة ولا ينظر إلى المفسدة القليلة. لذلك يجب الامتناع عن أي عمل من شأنه تلويث البيئة أو إفسادها إلا إذا كانت المصلحة المتوخاة من وراء هذا العمل كبيرة جدًا بحيث تطغى على المفسدة الناتجة عن هذا العمل، كإنشاء صناعة ضرورية لحياة الناس أو أمنهم فلا اعتبار هنا للمفسدة الناتجة عنها لأنها، أولاً: ضرورة تبيح محظورًا، ثانيًا: يجب أن يعمل في شأن هذه المفسدة بقاعدة الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف، وقاعدة أخف الضررين أولى[٤].
- **المتسبب يضمن بالتعدي والتفريط:** هناك فرق بين التعدي والتفريط؛ فالتفريط ترك ما يجب من الحفظ، والتعدي فعل ما لا يجوز من التصرفات، أو الاستعمالات[٥]. وهناك ما يعرف الآن ب «ضريبة الطاقة»، وهي أداة سياسة مالية تهدف إلى تقليل انبعاثات الكربون عن طريق تثبيط استهلاك الطاقة المشتقة من الوقود الأحفوري، ويمكن فرض ضريبة الطاقة على الأفراد والشركات على حد سواء بهدف تشجيع استخدام مصادر الطاقة النظيفة والأكثر استدامة.
- **ما يؤدي إلى الحرام فهو حرام:** يقع تحت طائلة الحرام هنا كل ما يضر الناس، ومن ثم فإن أي مصدر يضر الناس في صحتهم أو راحتهم، مثل انبعاث غازات تؤذيهم، أو إحداث ضوضاء تقلق راحتهم، يعدّ أمرًا غير مقبول.
- **ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب:** فمثلاً إذا كان من مقتضيات الحد من تلوث

(١) الملحق العلمي لمجلة العربي، العدد ٦١٢، نوفمبر ٢٠٠٩م، ص (١٢-١٣).
(٢) حماية البيئة بالقانون، للجيلاني عبد السلام ارحومة، ص (٦٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧).
(٤) حماية البيئة بالقانون، ص (٦٨).
(٥) القواعد والأصول الجامعة والفروق والتقاسيم البديعة النافعة، للشيخ عبد الرحمن السعدي، ص (٥٠).

البيئة في بلد ما ضرورة استصدار مرسوم أو وضع معايير تحدد مواصفات الملوثات التي تقذف بها عوادم المصانع والسيارات في بيئة هذا البلد، فإن استصدار مثل هذا المرسوم يصبح واجبًا؛ لأن الواجب الأصلي (حماية الناس من أضرار التلوث) لا يتم إلا به.

(٣) دور الفرد:

- التربية البيئية من أجل وعي شامل بقضايا البيئة والمناخ:

فالهدف الأعلى للتربية الإسلامية هو تنشئة المسلم المتكامل الشخصية وتنمية الدافع الأخلاقي كي يتحكم في نفسه ويوجه سلوكه ويحمي تصرفاته من ممارسة أي عمل يسيء إلى المجتمع والبيئة الطبيعية من حوله، ومن أمثلة هذه السلوكيات: الحرق المكشوف للنفايات والمخلفات الزراعية والتدخين والقطع الجائر للأشجار وغيرها.

- الترشيد وعدم الإسراف:

حيث وضعت الشريعة الإسلامية قواعد للحفاظ على موارد البيئة وحمايتها من الاستهلاك الجائر، فكما أنه يتلفها ويفقدها القدرة على التجدد، ينتج عن ذلك كميات هائلة من النفايات تضر بالبيئة وتحدث خللاً في أنظمتها. ومن النصوص التي تدعو إلى الاعتدال والتوسط وعدم الإسراف قول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: (كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا من غير مخيلة ولا سرف)[١].

- التدوير وإعادة استخدام الموارد:

فقد أخرج أبو داوود والنسائي عن ميمونة رضي الله عنها أنها قالت: مر رسول الله ﷺ بشاة يجرونها، فقال: (لو أخذتم إهابها) فقالوا: إنها ميتة، فقال: (يطهرها الماء والقَرَظ)[٢]، والقَرَظ: هو ورق السلم وهو معروف لدبغ الجلود. وللتدوير دور مهم في الحفاظ على موارد البيئة والحد من آثار التغير المناخي، فكل طن من البلاستيك المسترجع يقتصد ٧٠٠ كجم من البترول الخام، وكل طن من الكرتون المسترجع يقتصد ٢,٥ طن من خشب الغابات، وكل ورقة مسترجعة تقتصد ١ لتر من الماء، ٢,٥ وات/ ساعة من الكهرباء و١٥ جرام من الخشب، وكل ذلك له مردود إيجابي بخفض كمية الانبعاثات الغازية؛ وبالتالي تقليل خطر التغيرات المناخية.

يعتبر الوقف البيئي مصدرًا مستلهمًا من التراث والحضارة الإسلامية، كإسهام مؤسسي مالي وقانوني لتمويل ورفد العمل البيئي، وتطبيقاته المعاصرة، كمشروع الصكوك الوقفية لتمويل المشروعات الصديقة للبيئة، حيث تعتبر الصكوك الخضراء أداة تمويلية جديدة استحدثت للاستثمار في المشاريع الصديقة للبيئة سعيًا لتحقيق التنمية المستدامة

الخاتمة:

في ضوء ما سبق، يتضح شمولية وتوازن التصور الإسلامي لقضية التغير المناخي؛ بما يعيد تشكيل وجه القضية تمامًا، عبر تشجيع الاستجابة الاجتماعية لقضايا تغير المناخ. فلم تكتف تعاليم الدين بإقامة تصور ديني عن حماية المناخ وفق أحكامه الفقهية فقط، وإنما أُرسي هذا التصور على قواعد فكرية ومنطلقات إيمانية.

فالخطاب الديني الإسلامي في الوعي بمخاطر التغيرات المناخية والمساهمة في علاجها، وجعل التوصيات العلاجية لهذه الظاهرة حالة دينية إيمانية -قبل أن تكون توجيهًا مدنيًا- تقوم على تعزيز المعايير الأخلاقية والقيم الإنسانية كهدف أساسي في تحقيق التنمية المستدامة. وانطلاقًا من ذلك؛ تتحدد بواعث وأولويات وكذلك توجهات وآليات العمل البيئي للحد من آثار التغير المناخي، كخفض الانبعاثات البيئية الناتجة عن استخدام المنتجات البترولية غير النظيفة، وتبني سياسات الإنتاج والاستهلاك المستدام وبرامج التحول الأخضر، وتعزيز دور البحث العلمي والتكنولوجيا في الحد من أسباب التغير المناخي والتخفيف من حدة آثاره.

(١) أخرجه أحمد (٦٦٩٥).
(٢) أخرجه أبو داود (٤١٢٦) والنسائي (٤٢٤٨).

مظاهر حكمة الله تعالى في المصائب والابتلاءات

د. عمار بن إبراهيم العيسى (*)

يتناول المقال الحِكم المتعددة للمصائب وغاياتها، والتي يجملها في ستة معانٍ مترابطةٍ: الجزاء، البلاء، الجلاء، العلاء، الدواء، والعطاء، مبينًا أن المصائب قدْ تكون عقوبةً للذنوب، ووسيلةً للتمحيص والابتلاء، وتكفيرًا للخطايا، أو رفعًا للدرجات، كما قد توقظ الغافل ليعود إلى الله، موضحًا أن المصائب نِعمةٌ مِن الله، تُظهر لطفه ورحمته بعباده، وتستوجب الشكر لا الجزع، لتكمل مسيرة العبودية بالصبر والرضا.

من الصفات العظيمة لربنا تبارك وتعالى: الحكمةُ البالغة، ومن أسمائه: الحكيم، فهو سبحانه حكيمٌ في خَلقِه، حكيمٌ في شرعِه، فالحكيمُ «يضع الأشياء في مواضعها التي لا يليق بها سواها، ويخصُّها من الصفات والأشكال والهيئات والمقادير بما هو أعلمُ بها من غيره، ويُبرِزُها في أوقاتها وأزمنتها المناسبة لها التي لا يليق بها سواها ... وكذلك جميع ما يُشاهَد من مخلوقاته عاليها وسافلها وما بين ذلك إذا تأملها صحيحُ التأمل والنظر وجدها مؤسسةً على غاية الحكمة، مُغَشّاةً بالحكمةِ، فقرأ سطورَ الحكمة على صفحاتها، وينادي عليها: هذا صنعُ العليم الحكيم، وتقدير العزيز العليم»[1].

وإنّ تلمّسَ الحِكم النبيلة والمعاني الجليلة في أمرٍ من الأمور الكونية أو الشرعية يزيد الإيمان بعظمة الله تعالى وكماله، ويعين على صحة تصور ذلك الأمر وحسن التعامل معه، ومن هنا وردت الشريعة بالحثّ على تأمل خلق الله وشرعه، وجاءت الآيات الكثيرة مخاطبةً أصحاب العقول، حاثّةً لهم أن يُعمِلوا عقولهم في التدبر في كلام الله وآياته الشرعية، والتفكر في خلق الله وآياته الكونية، فمن الأول قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، ومن الثاني قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠﴾

(*) أكاديمي، ومتخصص في البحث والتعليم الشرعي.

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم (٤/١٥٦٦-١٥٦٧).

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، بل جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال عن هذه الآيات: (لقد نزلت علي الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية كلها)[١].

على أن الإنسان عاجز عن الإحاطة بحِكم الله تعالى ومراداته في خلقه وشرعه؛ لقصور إدراكه وضيق اطلاعه، مع عظمة الله تعالى وبديع حِكمته وسَعة علمه، ولكن حسب المرء أن يتأمل بكليل بصره وضعف آلته ما يمكنه الوقوفُ عليه من معالم الحكمة وآثار الإرادة ما يكون درسًا له، ونبراسًا في تفهّم سنن الله وحسن التعامل معها.

إنّ تلمّسَ الحِكم النبيلة والمعاني الجليلة في أمرٍ من الأمور الكونية أو الشرعية يزيد الإيمان بعظمة الله تعالى وكماله، ويعين على صحة تصور ذلك الأمر وحسن التعامل معه، ومن هنا وردت الشريعة بالحثّ على تأمل خلق الله وشرعه، وجاءت الآيات الكثيرة مخاطبةً أصحاب العقول، حاثّةً لهم أن يُعمِلوا عقولهم في التدبر في كلام الله وآياته الشرعية، والتفكر في خلق الله وآياته الكونية

وبالتأمل والنظر في أدلة الكتاب والسنة، وكلام أهل العلم في المعاني والحِكم المتعلقة بالمصائب والشدائد التي تنزل بالعباد وتحدُث للناس؛ يمكن الوقوف على جملةٍ من المعاني التي تعود إليها مقاصد المصائب، وغايات الشدائد، وجُملتها ستة معانٍ اخترت لها ألفاظًا متشابهةً في كونها من الأسماء الممدودة[٢]، فالمصائب: (جزاءٌ، وبَلاءٌ، وجِلاءٌ، وعَلاءٌ، ودَواءٌ، وعَطاء)، وجمعتها في بيتٍ[٣]:

جَزاءٌ، بَـلاءٌ، جِلاءٌ، عَـلاءْ
دَواءٌ كذاكَ يكون الْعَطاءْ

وفيما يلي تجليةٌ لهذه المعاني مع أدلتها الشرعية:

أولاً: الجزاء[٤]:

فالمصائب تقع عقوبةً للذنوب والمعاصي، وجزاءً للظلم والطغيان، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وما يصيبكم أيها الناس من مصيبةٍ في الدنيا في أنفسكم وأهليكم وأموالكم.. فإنما يصيبكم ذلك عقوبةً من الله لكم بما اجترمتم من الآثام فيما بينكم وبين ربكم، ويعفو لكم ربكم عن كثير من إجرامكم، فلا يعاقبكم بها»[٥].

بل دلّ القرآن على أن الله سبحانه لو آخذ الناس بما كسبوا من ظلمهم لأهلكهم واجتاحهم ولم يترك على وجه الأرض دابةً تسير؛ لأن العذاب إذا نزل كان عامًّا؛ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [النحل: ٦١]، وقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

قال الطبري: «يقول: ولو يعاقب اللهُ الناسَ ويكافئهم بما عملوا من الذنوب والمعاصي، واجترحوا من الآثام؛ ما ترك على ظهرها من دابة تدِبُّ عليها»[٦]، «ولكن بحِلمه يؤخر هؤلاء الظلمة فلا يعاجلهم بالعقوبة»[٧].

فاللهُ سبحانه وتعالى «لا يغيّرُ ما بقومٍ من عافيةٍ ونعمةٍ فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضًا، واعتداء بعضهم على بعض، فتحلّ بهم حينئذٍ عقوبته وتغييره»[٨]، فـ«لا يسلبُهم نِعمه حتى يغيروا ما

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦٢٠) بإسناد صحيح.
(٢) «الممدودُ: كلُّ اسمٍ مُعرَبٍ آخرُه همزةٌ قبلها ألفٌ زائدة كحَوْراء ووَرْقاء». اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب، لمحمد علي السرّاج، ص (٦٥).
(٣) من بحر المتقارب، ومفتاحُه: (عَنِ الْمتقاربِ قالَ الْخليلْ ... فَعُولُنْ فَعُولُنْ فَعُولُنْ فَعُولْ).
(٤) يطلق الجزاء على الثواب والعقاب، كما قال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، والمراد هنا العقوبة؛ لأن المصائب عقوبات المعاصي وجزاؤها.
(٥) تفسير الطبري (٥١٢/٢٠).
(٦) المرجع السابق (٣٩٦/١٩).
(٧) المرجع السابق (٢٥٩/١٤).
(٨) المرجع السابق (٤٧١/١٣).

بأنفسهم فيعملوا بمعاصيه»[1]، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ولا يخفى ما قصه الله تعالى من قصص المكذبين للرسل، وكيف كانت عاقبة تكذيبهم وكفرهم من نزول العذاب بهم، وحلول الدمار عليهم ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]، ولكن كون المصائب تقع بسبب الذنوب عقوبةً عليها ليس خاصًّا بالكفار والمنافقين، بل هو عامٌّ يشمل المؤمن كذلك، كما في الآيات العامة التي ذكرت أول هذه الفقرة، ويؤكد ذلك أن الله تعالى خاطب المؤمنين مبينًا أن ما أصابهم يوم أحدٍ كان من أنفسهم ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ثانيًا: البلاء:

من المعلوم أن الدنيا دار ابتلاءٍ وامتحان، والابتلاء يكون بالشدة واليسر، والنعَم والنقَم، والخير والشر ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] أي: «ونختبركم أيها الناس بالشر وهو الشدة نبتليكم بها، وبالخير وهو الرخاء والسعة والعافية فنَفتِنُكم به»[2].

وبهذا الابتلاء يكون التمحيص وتمييز الصادق من الكاذب، والخبيث من الطيب ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. « أي: لا بد أن يعقدَ سببًا من المحنة، يَظهرُ فيه وَليُّه، ويَفتضِحُ فيه عدوُّه، يُعرَف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر»[3].

وبالشدائد يظهر الصابرون الذين يُوَفَّون أجرهم بغير حساب، ويكون عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وبه يُظهِر العبادُ شدة افتقارهم إلى الله، ويُنزِلون به ضرورتهم، ويتجردون من تعلقهم بغيره، ويترقَّون في منازل العبودية لربهم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وبقدر البلاء يكون الثواب والعقاب، والرضا والسخط، ففي حديث أنس بن مالك ﷺ مرفوعًا: (إنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخطُ)[4].

إن المصائب تُحرق ذنوب المؤمن حتى يخرج منها نقيًّا، فيمشي على وجه الأرض بلا ذنوب (فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة)؛ فيلقى ربه بلا خطايا

ثالثًا: الجِلاء[5]:

فالمصائب كفاراتٌ للذنوب، وماحياتٌ لخطيئات المؤمن كما ثبت في الحديث: (ما يصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حُزنٍ ولا أذًى ولا غَمٍّ، حتى الشوكةِ يُشاكُها؛ إلا كفَّر الله بها من خطاياه)[6]، وفي حديث ابن مسعودٍ ﷺ: (ما من مسلمٍ يصيبه أذًى -مرضٌ فما سواه- إلا حطّ الله له سيِّئاته، كما تَحُطُّ الشجرة ورقها)[7].

(١) زاد المسير، لابن الجوزي (٤٨٦/٢).
(٢) تفسير الطبري (٢٦٨/١٦).
(٣) تفسير ابن كثير (١٧٣/٢).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١).
(٥) جَلا السَّيْفَ والـمِرآةَ جَلْوًا وجِلاءً: صَقَلَهُما، والهَمَّ عنه: أذْهَبَهُ. القاموس المحيط، ص (١٢٧١).
(٦) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، ومسلم (٢٥٧٣): من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما. والنَّصَبُ: التعب. والوَصَبُ: الوجع الملازم والمرض. والهَمُّ: هو التفكير في إزالة المكروه وجلب المحبوب في المستقبل. والحزنُ: الأسى على ما حصل له من مكروه في الماضي. والأذى: من تعدّي غيره عليه. والغّم: ما يحصل به ضيق القلب وكدَر النفس.
(٧) أخرجه البخاري (٥٦٦٠)، ومسلم (٢٥٧١).

ومن رحمة الله بعبده المؤمن أن يعجّل له جزاء الذنب قبل يوم القيامة بأن يُنزل به المصائب في نفسه وماله وذرّيته وغيرها (إذَا أراد اللهُ بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد اللهُ بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافِيَ به يوم القيامة)[1].

بل إن المصائب تُحرق ذنوب المؤمن حتى يخرج منها نقيًّا، فيمشي على وجه الأرض بلا ذنوب (فما يبرح البلاءُ بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئةٌ)[2]؛ فيلقى ربه بلا خطايا، كما ثبت في حديث أبي هريرة ﷺ: (ما يزال البلاءُ بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئةٌ)[3].

رابعًا: عَلاء[4]:

من لطف الله بعبده المؤمن أنه إذا أراد له مقامًا رفيعًا قصُر عنه عمله، ولم يبلغه سعيه؛ أوقع به المصائب والشدائد، ثم يُلهمه الصبر عليها حتى يبلغ ذلك المقام، دلّ على ذلك حديث أبي هريرة ﷺ: (إنّ الرجل لتكون له عند الله المنزلةُ، فما يبلغها بعمل، فلا يزال اللهُ يبتليه بما يكره حتى يُبلِّغَه إياها)[5]، ويوضحه حديث: (إنّ العبد إذا سبقت له من الله عز وجل منزلةٌ لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله جل وعز في جسده، أو في ماله، أو في ولده، ثمّ صبّره على ذلك، حتى يبلّغَه المنزلة التي سبقت له مِن الله جل وعزّ)[6].

خامسًا: دواء:

فالمعاصي والذنوب مرض وداء يحتاج إلى علاج ودواء، والدواء قد يكون مُرًّا، ودواؤها المصائب التي توقظ النائم، وتنبّه الغافل لعله يرجع إلى ربه، ويتوب إلى خالقه، ويتضرع إليه برفع البلاء عنه:

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣]. وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ورد عن ابن عباس ﷺ أنّه قال في العذاب الأدنى: «مصائب الدنيا وأسقامها وبلاؤها مما يبتلي اللهُ بها العباد حتى يتوبوا»[7].

وقال عز وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] أي: «ليصيبهم بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوا، ومعصيتهم التي عصَوا ... كي يُنيبوا إلى الحق، ويرجعوا إلى التوبة، ويتركوا معاصي الله»[8].

من تأمل وجوه الحكمة في وقوع المصائب عرف أنها نعمةٌ وعطاءٌ من الله، يستحقّ عليها الحمد، فتعجيل العقوبة للعبد على ذنبه حتى لا يؤاخَذ به يوم القيامة، وابتلاؤه بما يُظهر صبره ويُكمِّل عبوديته ويكفر سيئاته ويرفع درجته، ويبلّغه إلى ما عجز عمله عن بلوغه من المراتب، وينبّهه ويوقظه من غفلته؛ كل ذلك مما يجعل العبد يشعر ببديع لطف الله به وعظيم رحمته وجميل اختياره له

سادسًا: العطاء:

جاء في حديث جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (يودُّ أهلُ العافية يوم القيامة حين يُعطى أهلُ البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قُرِضتْ في الدنيا بالمقاريض)[9].

بل دلت السنة الصحيحة على أن المصائب من إرادة اللهِ الخير بالعبد؛ فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من يرد الله به خيرًا يُصِبْ منه)[10].

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣): من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩٩)، وقال: حديث حسن صحيح.
(٤) «عَلِيَ في المكان يَعلَى، من بابِ تَعِبَ، عَلاءً بالفتح والمَدِّ» المصباح المنير (٤٢٨/٢).
(٥) أخرجه أبو يعلى الموصلي (٦٠٩٥)، وابن حبان (٢٩٠٨).
(٦) أخرجه أبو داود (٣٠٩٠) مِن حديث محمد بن خالد السُّلَمي، عن أبيه، عن جده وكانت له صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(٧) تفسير الطبري (٦٢٧/١٨).
(٨) المرجع السابق (٥١٣/١٨).
(٩) أخرجه الترمذي (٢٤٠٢)، وقال: غريب.
(١٠) أخرجه البخاري (٥٦٤٥).

وهي من علامات محبة الله؛ كما سبق في حديث أنسٍ ﷺ: (إنّ الله إذا أحب قومًا ابتلاهم).

ومِن هنا كان الأنبياء أشدَّ الناس بلاءً، وكان البلاء على قدرِ الدين؛ فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: (الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلى الرجلُ على حسَب دينه، فإن كان دينُه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقّةٌ ابتُلي على حسب دينِه)[١].

وعن ابن مسعود ﷺ قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعَك، فقلت: يا رسول الله، إنّك لتوعك وَعْكًا شديدًا؟ قال: (أجل، إني أُوعَكُ كما يوعكُ رجلان منكم)، قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال: (أجل، ذلك كذلك)[٢].

فمن تأمل ما سبق ذكره من وجوه الحكمة في نزول البلاء والمصائب بالمؤمنين عرف أنها نعمةٌ وعطاءٌ من الله، يستحقُّ عليها الشكر والثناء، فحينما يعجّل الله العقوبة لعبده المؤمن على ذنبه حتى لا يؤاخَذ به يوم القيامة، ويبتليه ويمتحنه بما يُظهر صبره ويُكمّل عبوديته، ويغفر به ذنوبه، ويكفر سيئاته، ويرفع به درجته، ويبلّغه إلى ما عجز عمله عن بلوغه من المراتب، وينبّهه ويوقظه من غفلته؛ فإن العبد يحسُّ ببديع لطف الباري به وعظيم رحمته وجميل اختياره له، فيستشعر بذلك ما تضمنته المصائب من النِّعم والـمِنن، ويوقن أنه عطاء من الله وفضلٌ من لدنه، فلَهَجَ لسانُه بشكره والثناء عليه، فلا غرابة بعد ذلك أن يفرح المؤمن بالبلاء، وقد جاء وصف الأنبياء والصالحين في الحديث: (وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء، كما يفرح أحدكم بالرخاء)[٣].

بل ورد عن بعضهم الدعاء به، كما ثبت عن معاذ بن جبل ﷺ أنه خطب بالشام، فذكر الطاعون فقال: «إنها رحمةُ ربكم ودعوةُ نبيكم، وقبضُ الصالحين قبلكم، اللهم أدخل على آل معاذٍ نصيبهم من هذه الرحمة»[٤]، «فبينا هو كذلك إذ أُتي فقيل: طُعِن ابنك عبد الرحمن.. فمات من الجمعة إلى الجمعة آلُ معاذٍ كلهم، ثم كان هو آخرهم»[٥].

على أنه جاء في السنة ما يدلُّ على كراهة الدعاء بوقوع البلاء خشية عدم الصبر عليه، فعن أنس ﷺ قال: قال رجلٌ عند النبي ﷺ: اللهم لم تُعطِني مالاً

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣): من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (١٨٨/٤): إسناده صحيح، رجاله ثقات.
(٤) أخرجه أحمد (٢٢٠٨٥) وقال محققو المسند: حسن..
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥١٨٦).

فأتصدقُ به، فابتلني ببلاءٍ يكون فيه أجرٌ، فقال: (سبحان الله! لا تطيقه، ألا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[1].

وذكر ابن القيم أن للعبد في المصائب «أربع مقامات:

» أحدها: مقام العَجز، وهو مقامُ الجزَع والشكوى والسخط، وهذا ما لا يفعله إلا أقلُّ الناس عقلاً وديناً ومروءةً، وهو أعظم المصيبتين.

» المقام الثاني: مقام الصبر إما لله وإما للمروءة الإنسانية.

» المقام الثالث: مقام الرضا، وهو أعلى من مقام الصبر، وفي وجوبه نزاعٌ، والصبر متفقٌ على وجوبه.

» المقام الرابع: مقام الشكر، وهو أعلى من مقام الرضا؛ فإنّه يشهد البلية نعمةً؛ فيشكر المبتلي عليها»[2].

فوقوعُ البلاء والمصائب بالمؤمن خيرٌ له كنزول النعم والعافية به، وهو يتقلب في منازل العبودية بين الصبر والشكر؛ فعن صهيب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (عجبًا لأمر المؤمن، إنّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابتْه ضرّاءُ صبر فكان خيرًا له)[3].

«وفي كلِّ فقرٍ ومرضٍ وخوفٍ وبلاءٍ في الدنيا خمسةُ أمورٍ ينبغي أن يفرح العاقل بها، ويشكر عليها:

» أحدها: أن كل مصيبةٍ ومرضٍ فيُتصور أن يكون أكبرَ منها... فليشكر؛ إذ لم تكن أعظمَ منها في الدنيا.

» الثاني: أنّه كان يمكن أن تكون مصيبته في دينه... وفي الخبر: (اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا)[4].

» الثالث: أنّه ما من عقوبةٍ إلا ويُتصور أن تؤخر إلى الآخرة، ومصائب الدنيا يُتسلى عنها بأسبابٍ أُخر تُهوِّن المصيبةَ فيخفُّ وقعها، ومصيبةُ الآخرة تدوم، فلعلّه لم تُؤخر عقوبته إلى الآخرة وعُجّلت عقوبته في الدنيا، فلم لا يشكر الله على ذلك؟.

» الرابع: أنّ هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبةً عليه في أم الكتاب، وكان لا بد من وصولها إليه وقد وصلت، ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها، فهذه نعمة.

» الخامس: أن ثوابها أكثرُ منها؛ فإن مصائب الدنيا طرقٌ إلى الآخرة ... فمن عرف هذا تُصوِّر منه أن يشكر على البلايا، ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يُتصوَّر منه الشكر؛ لأنّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة»[5].

ولا تعارض بين هذه المقامات والمعاني فقد تجتمع كلها أو أكثرها، فتكون المصائب عقوبةً للمرء على ذنوبه، وهي كفارةٌ لتلك الذنوب وتمحيصٌ لها، ثم هي كذلك امتحانٌ للعبد، ثم تكون سببًا لتوبته ورجوعه إلى الله، ويكون بذلك كثرةُ حسناته ورفعةُ درجاته، وقد يتخلف بعضها في بعض الأحوال.

وبهذا تظهر حكمة الله البالغة فيما يوقعه بعباده المؤمنين من الشدائد والمصائب والكوارث، وما يحيطهم به من لطفه ورحمته، وما يقدره لهم من بديع تدبيره وحسن اختياره، فله الحمدُ في الأولى والآخرة، وله الحُكم، وإليه ترجعون.

إن العبد يحسُّ ببديع لطف الباري به وعظيم رحمته وجميل اختياره له، فيستشعر بذلك ما تضمنته المصائب من النِّعم والـمِنن، ويوقن أنه عطاء من الله وفضلٌ من لدنه، فلَهَجَ لسانُه بشكره والثناء عليه، فلا غرابة بعد ذلك أن يفرح المؤمن بالبلاء

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٧).
(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ص (٦٦-٦٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٩).
(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، وقال: حديث حسن غريب.
(٥) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، لجمال الدين القاسمي، ص (٢٨٧-٢٨٨).

الحدث السوري: بين تحديات الواقع ومخاض المستقبل!

د. فيصل البعداني (*)

لسوريا أهمية استراتيجية كبيرة، وهي مركز صراعات محلية ودولية متقاطعة، وبعد سقوط نظام الأسد هناك الكثير من التحديات التي تواجه القيادة الجديدة؛ مثل: التشتت الداخلي، والتدخلات الخارجية، وصعوبة بناء مؤسسات الدولة، تستعرضها المقالة بإيجاز، وتقدم مقترحات لإعادة بناء سوريا، عسى أن تساعد في مواجهة التحديات والانطلاق نحو الآفاق المستقبلية الواسعة.

بعد حمد الله تعالى على هذا النصر والفتح، والتأكيد على عظم هذا الإنجاز وأهميته.. تأتي محاولات فهم وتحليل ما جرى، وهذه إحدى المحاولات.

يتساءل مراقب عما حدث في أرض الشام، بعد رؤية الناس متفاوتين في تصوير مشهده؛ بين من يراه نصرًا مبينًا لم يتحقق للأمة مثله في عقودها الأخيرة، وبين من يراه مجرد توظيف تركي للثوار، يهدف إلى:

- حماية أمن تركيا القومي، والمهدد من خلال مخطط -غربي إقليمي- ساعٍ إلى إقامة دولة كردية على جزء واسع منً تراب الشمال السوري، وهو بدوره ما سيمهد تاليًا لتقسيم تركيا على أساس عرقي، بين المجموعتين السكانيتين الكبيرتين: الترك والكرد.
- إعادة ملايين المهاجرين السوريين، والذين أصبحت استضافة تركيا لهم موضع جدل سياسي كبير، بين الأحزاب السياسية وفي الشارع التركي.
- الرغبة التركية العارمة في تحقيق مكاسب اقتصادية كبيرة، من خلال عقد شراكات متينة بينها وبين سوريا الجديدة، وبخاصة في عقود بناء الجيش وتسليحه وأجهزة الأمن، وقطاعات التشييد والتنقيب عن الغاز في البحر المتوسط.

(*) باحث، عضو الهيئة العليا لحزب الرشاد اليمني.

وملخّص الجواب عن هذه المسألة في النقاط الآتية:

أولاً: الحكم النهائي غير ممكن حاليًا:

المشهد السوري -بعد الأسد- ما تزال حالته سائلة، ولما يتجمد بعد، وبالتالي: فمن المبكر تقديم قراءة رصينة ومتكاملة له، ومن الصعب -في هذا الوقت- الحديث الدقيق عن معطيات ونتائج موضوعية؛ لأن الظاهر من المشهد شيء يسير، وما تزال تفاصيله الكثير مغمورة حتى الآن.

علمًا بأن العبرة بمثل هكذا حدث كبير: تكمن بنهاياته المتحققة، لا بوهج بداياته الملهمة، ولا بكمية الإغراءات والفرص، ولا بواسع الأمنيات الجماهيرية المصاحبة لأحداثه المبهجة والمتوالية، والتي لا تنظر -في الغالب- إلى التحديات والمخاطر كما هي؛ بأعدادها الحقيقية وأحجامها الطبيعية.

ثانيًا: الحدث السوري أكبر من الثوار ومن تركيا:

ما حدث في سوريا في هذه الأيام المحدودة -بحسب قراءتي القاصرة، واطلاعي المحدود- أكبر من الثوار، وأكبر حتى من حليفتهم تركيا، والحضور الدولي فيه شديد، لأمرين:

أحدهما: حساسية سوريا والأهمية الكبيرة لموقعها الاستراتيجي وتاريخها الحضاري العريق؛ إذ تقع في خاصرة العالم الإسلامي السني، وقلب العالم القديم وممراته الدولية، وبجوار فلسطين المحتلة، وتقبع في منطقة تجاذب دولي كبير (أمريكي - روسي- فرنسي)، ومنطقة صراع إقليمي حاد (تركي- إيراني - عربي - صهيوني)، ومنطقة تنازع مذهبي مرتفع (سني - شيعي- علوي)، ومنطقة تحارب عرقي مرتبط بأطماع ومخططات دولية وإقليمية مرتفعة (عربي - كردي)، ومنطقة بمثل هذه الأهمية والسخونة لا يمكن أن يتفرد الثوار وحدهم بقرارها، ولا الأتراك لوحدهم بعيدًا عن التفاهمات غير المعلنة مع القوى الدولية والإقليمية المؤثرة في المشهد.

والآخر: هوية الثوار أنفسهم وحالتهم المقلقة لكثيرين (إسلام سني- حامل للسلاح ومدرب عليه- لا تملك زمامه قيادة واحدة يمكن التفاهم معها أو السيطرة- ساع للحكم وفق الشريعة الإسلامية)، وهذه الهوية بتلك المواصفات غير مسموح لها بالصعود من كافة الفرقاء الدوليين (نظرًا لطبيعة الصراع الحضاري مع العالم الإسلامي، وتصريحات الغربيين والشرقيين كثيرة في هذا الباب)، ومن كافة الفرقاء الإقليميين (ينظر للإسلام السني الساعي للحكم كمهدد للأمن القومي الإقليمي، ومزعزع لاستقرار أنظمته، ولطبيعة العلاقات والتفاهمات السائدة بين حكومات المنطقة والقوى الغربية النافذة).

ثالثًا: السقوط السريع فوق قدرات الثوار:

ما حدث في المشهد من سقوط الأسد: بجيشه وأمنه ونظامه، وامتناع حلفائه الروس وإيران وحزب الله -ذراع الأخيرة القوي- عن التدخل المناصر له، والصمت الأمريكي والصهيوني وقتها عما حدث على ضخامة خطورته على المشهد الإقليمي برمته، فوق قدرات الثوار، وتكتيكات الثوار، وعلاقات الثوار، ولم يعد خافيًا على أحد أن الأتراك كانوا هم القوة الإقليمية الضاربة التي قادت المشهد تخطيطًا وقيادة ومساندة على الأرض -بصورة كبيرة- تحت أردية الثوار، وأن تركيا هي من رتب المشهد مع بقية الدول الإقليمية والدولية، وضمنت لتلك القوى -على الأقل- الحد الأدنى من مصالحهم العليا، حتى أمكن لما وقع أن يحدث في مثل هذا الوقت الوجيز، وفي ذلك الموقع الحساس.

رابعًا: الثورة عامل رئيس في إسقاط الأسد:

من المجزوم به -بعد إرادة الله وتوفيقه- أنه لولا حالة الشعب السوري الثورية والمتصادمة مع نظام الأسد، ولولا حراك الثوار العسكري ووجودهم الميداني وتمكينهم للآخرين من العمل تحت أرديتهم، لما أمكن لا للإقليم ولا للقوى الدولية التي تقف خلف ما وقع -أو حتى التي باركته- أن تقوم بتنفيذ ورعاية ما حدث بمثل هذه السرعة والنجاح، وهذا يعني: أن إخراج الشعب السوري وثواره من المشاركة الفاعلة في صناعة مستقبل سوريا الجديدة -متى تماسكوا، واتسموا بعمق الوعي، وبعقلانية مرتفعة، وحنكة عالية، وبقوا عصيين عن الاختراقات الخارجية والصراعات الداخلية، ولم يرفعوا سقف توقعاتهم وطموحاتهم الإصلاحية كثيرًا مرة واحدة- أمر مستبعد، بل وغير ممكن التنفيذ في ظل المعطيات الحالية.

من المجزوم به -بعد إرادة الله وتوفيقه- أنه لولا حالة الشعب السوري الثورية والمتصادمة مع نظام الأسد، ولولا حراك الثوار العسكري ووجودهم الميداني وتمكينهم للآخرين من العمل تحت أرديتهم، لما أمكن لا للإقليم ولا للقوى الدولية التي تقف خلف ما وقع -أو حتى التي باركته- أن تقوم بتنفيذ ورعاية ما حدث بمثل هذه السرعة والنجاح

خامسًا: تحديات تواجه السوريين:

يتوقع أن يكون من أعظم التحديات التي تواجه الثوار السوريين ما يلي:

- ضعف الوعي الشعبي والثوري بالمخاطر المحدقة بالمسار الثوري بصورة تسهل من عملية اختراقه أو تمكن من حرف مساره، وبخاصة مع حزمة الإغراءات الكبيرة، والضغوطات الدولية المتزايدة، ومع الأيدلوجيات الصارمة للقوى المتحالفة مع الثوار، فضلاً عن المعادية.
- القابلية العالية لتنامي الفرقة والشتات في الساحة الثورية، والخشية الكبيرة من حضور المصالح الشخصية والمناطقية والحزبية، وبالتالي تقديمها على المصالح العليا لسوريا الجديدة.
- إمكانية تفكك الحالة الثورية المسلحة، إما بسبب أزمة الثقة العالية التي كانت موجودة -وما تزال- بين فصائل الثوار قبل بدء الفصل الدرامي الأخير، وإما لاختلاف الرؤى والأفكار وتعدد الطموحات وعدم واقعية أطروحات كثير من الثوار مع الحالة السورية في مشهدها الأخير والساعي إلى بناء دولة قطرية لا خلافة راشدة، بصورة قد تؤدي لحدوث صراعات دامية بين الفصائل، والذي سيعقبه إما الحسم لمصلحة فصيل ما، وإما حدوث فوضى عارمة تسقط المشروع الثوري برمته، وتسحب التأييد الشعبي الواسع الذي نالته فصائل الثوار اليوم، وبخاصة متى وجدت تدخلات إقليمة قوية ومغدقة ومنتظرة بقوة في هذا الجو الصاخب.
- تقديم الثوار للخلاف حول هوية الدولة على بناء الدولة وتثبيت ركائزها، وبخاصة فيما يتعلق ببناء مؤسسات الجيش والأمن، وتمتين المؤسسات الدولة السيادية والتنفيذية.
- رفض بعض الفصائل العسكرية فكرة الاندماج في جيش واحد، بقيادة واحدة، ومؤسسات أمنية قوية.
- الاستجابة للضغوطات الإقليمية والدولية ودعاوى الوحدة الوطنية الزائفة من بعض الأقليات، والساعية إلى الإبقاء على مؤسسات دولة الأسد العميقة دون تفكيك ومحاكمة، وهو ما قد يسهل عودتها إلى الحكم من خلال جهد دولي وإقليمي قادم في مرحلة زمنية قد لا تكون بعيدة، بعد القيام بإسقاط الثورة وتشويه قادتها وتفتيت الثوار وتهميشهم، وبعد اختيار زعيم جديد، يتسم بالقبول الداخلي، ويكون محل رضًا دولي وتوافق إقليمي.
- دخول الحالة الثورية في حالة نشوة وتوهم يؤدي إلى اعتقاد الثوار بتفردهم في صناعة المشهد، وبالتالي: الزعم بأن من حقهم القفز على مصالح الجهات التي ساهمت بقوة في صناعة ما حدث أو حتى تجاوز بعض الخطوط الحمر، مع أن تلك الأطراف -إقليمية كانت أو دولية- ما تزال تملك الكثير من خيوط اللعبة وأطرافها الفاعلة، وبإمكانها أن تسهم من خلال مشهد إقليمي ودولي واسع في قلب معطيات الواقع رأسًا على عقب، لغير مصلحة الثوار.
- التعجل في مسائل الهوية -استجابة لضغوطات كثير من الرموز العلمية والدعوية في الخارج والداخل السوري، والمتسمة بفرط الغيرة مع سطحية المعرفة بتحديات الواقع وتعقيداته- والإعراض عن التدرج فيها، وترك إحالة جزء كبير منها إلى الجهد الشعبي بدلاً من الرسمي، وبخاصة في قطاعات التعليم والتثقيف والدعوة، وتقديم أوليتها على بناء الدولة وقضايا الاقتصاد والتنمية وحل مشاكل العائدين ومعالجة مظالمهم، والتعاطي مع تطلعاتهم، والتي يتوقع أن تتنامى مستقبلاً بدرجة كبيرة، قد تصل بها إلى مرحلة الإنهاك والتهديد لدولة بادئة منهكة ضعيفة.
- هيمنة خطاب التشاؤم المقعِد عن العمل، والممزق لتلاحم الثورة والشعب على الساحة، وإعراض المثقفين المؤثرين وأصحاب الصوت

العالي عن مظاهر التفاؤل وجوانب الصواب، مع أن التاريخ بحقبه المتوالية يقرر بجلاء: أن اليائسين المتذمرين لا يصنعون شيئًا، غير الهدم والجلبة الصارخة.

- عدم البدار إلى معالجة ملف المجاهدين القادمين من خارج سوريا، والذي قد يُلصق بالثورة في مرحلة قريبة وصمة الإرهاب، وما قد يترتب على ذلك من تضييق وحصار، أو قد يقود إلى اتخاذهم وسيلة ضغط وابتزاز من دولهم والمطالبة بهم، أو حتى إمكانية تحولهم -ولو بعضهم- إلى قنبلة شديدة الانفجار؛ نتيجة رؤاهم المتعلّقة بمسألة الهوية والقيم الإسلامية والتي قد لا تتناسب مع مرحلة بناء دولة سوريا الجديدة بتعقيداتها الشديدة.
- الغرق في أوحال الحزبية الثورية الضيقة، وبحث قيادات الفصائل عن مواقعهم، ومصالح فصائلهم بعيدًا عن الأهداف الجليلة التي قامت الثورة السورية من أجلها.
- استخدام الأقليات العلوية والكردية والنخب العلمانية معاول هدم للبناء الثوري، الذي يطمح الشعب السوري من خلال ثواره إلى تشييده، وقد بدأت تشكيلات الثورة المضادة بالظهور وإعلان المطالب من اليوم.
- تحديات الإعمار وإحجام المجتمع الدولي ودول الإقليم عن المشاركة الفاعلة فيه، من دون شروط قاصمة لظهر الثورة وقيمها الأصيلة وتطلعات الشعب السوري الكريم.

> **الحرص على جمع كلمة الصف الثوري على قيمٍ ثوريةٍ عُليا وأهداف استراتيجيةٍ واضحةً، وتفعيله في خدمة البلد ووحدته وتنميته واستقراره، والذي هو أمسُّ ما يكون حاجةً إلى جهد كل عضوٍ صادقٍ ينتمي إليه، وفي المقابل: فإنَّ ذلكَ من أعظم سبل منع اختراقه وتمزقه**

سادسًا: خطوات وفرص لتحقيق الأهداف:

لعل من أبرز الخطوات وأهم الفرص التي قد تقود إلى تحقيق أهداف الثورة السورية:

- الحفاظ على هوية الثورة السورية، وتحديد قيم حاكمة لها، والعمل على جمهرتها وتحويلها إلى مطلب شعبي عام، لا يقبل التجاوز أو المساس به، أيًا كان القائد وأيًا كان الغائب.
- الإعلان عن مرحلة انتقالية ثورية تفرض فيها الطوارئ، وتجمد فيها الحياة السياسية؛ بغرض بناء دولة الشعب والمؤسسات، والقضاء على الدولة العميقة، وتكوين الجيش وأجهزة الأمن القومية، وصياغة الدستور الجديد، والاتفاق على شكل الدولة، من خلال مجالس ثورية وطنية جامعة، وإجراء استفتاء عام، يعرض قبل نهاية المرحلة الانتقالية على أفراد الشعب.
- الواقعية في ترتيب أوليات المرحلة، والمكاسب المنتظر تحقيقها؛ بحسب ما تمليه طبيعة المشهد وفرصه وتحدياته ومتغيراته المتسارعة، والتدرج في تحقيقها، والبعد عن المثالية والعجلة في هذا الباب؛ فإنها قاتلة.
- مع أهمية ترميز قادة الثورة في أوساط الشعب والعمل على تحويلهم إلى شخصيات رائدة جامعة، فإنه لا بد من الموازنة بين ذلك وبين بناء مؤسسات قوية للدولة، والتي يمكنها وحدها -بعد توفيق الله- أن تضمن بقاء المشروع الثوري وتعمل على ترسيخه حتى وإن رحل القادة العظام أو حتى اخترقوا أو تجاوزوا.
- البدار إلى ضبط الحالة الأمنية، ومنع الرخاوة والتفلت في الوسط الثوري، بحيث تمارس القوة في لين، والحزم باتزان وترفق، والنظام بعدالة، فإنَّ ثقافة شعوب المنطقة بأجمعها لم تألف بعدُ الإدارة بهذا الأسلوب منذ قرون.
- الحرص على جمع كلمة الصف الثوري على قيم ثورية عليا وأهداف استراتيجية واضحة، وتفعيله في خدمة البلد ووحدته وتنميته واستقراره، والذي هو أمس ما يكون حاجة إلى جهد كل عضو صادق ينتمي إليه، وفي المقابل: فإن ذلك من أعظم سبل منع اختراقه وتمزقه، فالناس لا يشتتهم مثل: البطالة والفراغ والشعور الشديد بالتهميش.
- الحذر من إهمال تنمية أدوات قوة الثوار أو إلقائها، إنْ في سياقها العسكري أو في سياقها الجماهيري، أو في سياقها التنسيقي، والتنبه إلى أن خسارة أحد هذه الجوانب مؤذن بانتهاء

الحالة الثورية، ومسهل لردمها والانقضاض عليها في أي لحظة.

- تفعيل الجهد الدعوي والتربوي والتثقيفي الشعبي في أرجاء الساحة كلها بأقصى سرعة وبكل وسيلة متاحة، مع أهمية ضبط الخطاب العام، وجعله جامعًا هادئًا رفيقًا متزنًا داخليًا بعيدًا عن التشنج والاستعداء وروح الانتقام، مع العمل بكل وسيلة متاحة على منع الانشقاق داخل البيت العلمي والدعوي تحت أي ذريعة حزبية أو مذهبية، سواء أكانت صوفية أم أشعرية أم فقهية أم جهادية أم إخوانية أم سلفية، فإن ذلك من أعظم ما يمكن تقديمه للساحة السورية الكريمة وخدمتها به.
- البعد عن المسميات المدرسية والدعوية القديمة، وعن لافتات الأحزاب والجماعات والفصائل الإسلامية العتيقة، والتي لن تزيد الصف في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ سوريا غير مزيد من الوهن والتشرذم والاستهداف، والتحول للعمل -بدلاً من ذلك- من خلال قوالب ثورية شعبية جديدة وجامعة.
- المسارعة إلى سد الفراغات الميدانية المتاحة في كل مجال، ومحاولة تضييقها على أعداء الثورة، سواء أكانت تعليمية أم دعوية أم ثقافية أم إنسانية، أم حقوقية، أم سياسية أم اقتصادية... إلخ، ومن ثم العمل على توسيعها وتقويتها وقتًا بعد آخر، بعيدًا عن الجدليات السياسية والفكرية والمذهبية والمسائل الخلافية؛ فإن النهايات في الغالب لا تكتب إلا لمن كان واعيًا راكزًا فاعلاً قويًا في أرض الميدان.
- بناء المؤسسات الإعلامية الثورية القوية؛ لأن الثورة إن أتيت من شيء فلن يكون أعظم من أن تؤتى من قبل رداءة الإعلام الموالي وعدم مهنيته، أو من قبل قوة الإعلام المضاد وسعة انتشاره وعظيم تأثيره.
- إقامة علاقات متوازنة مع الإقليم، وبخاصة مع تركيا بصورة تحفظ المصالح المشتركة للبلدين، وتفيد في تخفيف الاحتقان الدولي والإقليمي تجاه الثورة وقادتها، وبما لا يلغي الخصوصيات السياسية والثقافية والمذهبية لأي طرف.
- الاعتناء بوحدة القيادة الثورية، والتزام سياسة متفق عليها في اتخاذ القرارات وحل النزاعات بين القادة والفصائل مع التطاوع وتبادل الأدوار بقدر الإمكان.
- الحذر من الغرب والشرق، القريب والبعيد، وإدراك أن غالبهم ليس سوى أداة تدمير، وسيف عداوة، ومفتاح شر، وبوابة تخلف وانحطاط، لا أكثر.
- احترام الأكابر من العلماء والأعيان والوجهاء الأحرار، وتقديرهم ومشورتهم وأخذ وجهات نظرهم بعين الاعتبار؛ فإنهم صوت الشعب العالي، ووسيلة قيادته، وعامل تثبيته وإبقائه مناصرًا مصطفًا خلف ثورته.

نظرات وتعقيبات على كتاب «إيران وحماس»

أ. أسامة شحادة (*)

يتناول كتاب «إيران وحماس» لفاطمة الصمادي العلاقة بين حركة حماس وإيران منذ مرج الزهور حتى عملية طوفان الأقصى، محللاً التطوُّرات التاريخية والسياسية التي ربطت الطرفين، ورغم محاولة الكتاب تقديم طرحٍ محايدٍ، إلا أنه يواجه انتقاداتٍ بالتحيُّز نحو تلميع دَور إيران وتبرير علاقتها بحماس، مع تجاهل قضايا مثل: إنكار الشيعة قدسية الأقصى، وتعاون إيران مع إسرائيل، ودورها في نشر التشيع بغزة، حيث يفتقر الكتاب إلى التجرُّد في قضايا جوهريةٍ وحساسة.

«إيران وحماس» عنوان كتاب جديد للأستاذة فاطمة الصمادي، يتناول موضوعًا مهمًا في مضمونه وهو العلاقة بين حماس وإيران، وحسّاسًا في توقيته في ظل العدوان الإجرامي اليهودي على غزة والضفة ثم لبنان عقب عملية طوفان الأقصى، وهذا الموضوع كثر الخوض فيه بالمقالات والمقابلات واللقاءات وصدرت فيه كتب عدة غالبها ناقم على حماس، ولكن هذا الكتاب جاء بدعوى الحياد والموضوعية وأنه سيقدم مقاربة جديدة!

لكن جاء تناول الكاتبة للموضوع تناولَ من يريد نصرة رأي مسبق، وهو تبرير العلاقة بأي شكل، بل وتلميع وتضخيم الدور الإيراني الشيعي، ومن أجل ذلك قامت بتجاوز بعض الأمور أو التهوين من شأنها أو تجزئة وتفتيت الأمر الحساس لعدة أجزاء في أماكن متباعدة حتى يسهل تمريره أو عدم فحص حجج وتبريرات الشيعة أو الأصوات المنافحة عن العلاقة بإيران على أي حال!

ورغم أن العنوان ينص على إطار زمني محدد «إيران وحماس من مرج الزهور إلى طوفان الأقصى»، إلا أن الكاتبة وسعت الإطار في الكتاب لتناول علاقة إيران بفلسطين من زمن القاجاريين إلى الخميني ليستغرق ذلك حوالي ١١٩ صفحة، أي ثلث الكتاب!

(*) كاتب وباحث في شؤون الفرق والجماعات الإسلامية.

من أهم الملاحظات على الكتاب:

تجاهل / تجاوز المبادئ:

تجاوزت الكاتبة الموقف المبدئي المناهض للشيعة والخميني وإيران لدى جماعة الإخوان المسلمين في غزة، والذي رسخه أحد المؤسسين المركزيين لحماس، وهو الشيخ عمر الأشقر، حيث قام بتحصين قيادات جماعة الإخوان في غزة من الدعاية الشيعية الخمينية لحظة ظهورها في ١٩٧٩م قبل تشكل حماس، حيث كان يدرس الدكتوراه في الأزهر وجمع قيادات غزة في دورات خاصة بنقد فكر الخميني وعقيدته، وألف في ذلك رسالة صغيرة باسم مستعار[١].

ومن أمثلة هذا الموقف المناهض للتشيع وإيران وأذرعها نقد إخوان غزة / حماس لجماعة الجهاد على تشيعها وعلاقتها بإيران قبل مرج الزهور، وهذا معروف للباحثين[٢]، وكذلك تصريح الشيخ أحمد ياسين ضد حزب الله وأنه «حزب شيعي لا يلتزم بأحكام كتاب الله وسنة رسوله»، لجريدة النهار المقدسية سنة ١٩٨٩م[٣]، وقد أوردت الكاتبة ما يؤكد ذلك من مواقف بعض قادة حماس الداخل المتوجسة من الشيعة في أول لقاءاتهم بالشيعة في مرج الزهور (ص١٦٥ مثلاً).

حقيقة قداسة الأقصى عند الشيعة:

مرت الكاتبة مرورًا مريبًا على قضية إنكار الشيعة لقدسية المسجد الأقصى (ص١١٦)! وما يزال علماء الشيعة ينكرون هذه القدسية للأقصى في مؤلفاتهم ويحصلون على التكريم عليها، كتكريم الرئيس أحمدي نجاد لجعفر العاملي مؤلف كتاب «الصحيح من سيرة الرسول الأعظم» بجائزة إيران للكتاب! وقد نص في هذا الكتاب: «أنه حين دخل عمر بيت المقدس لم يكن هناك مسجد أصلاً، فضلاً أن يسمى أقصى»! وأن «المسجد الأقصى الذي حصل الإسراء إليه والذي بارك الله حوله، هو في السماء»! ولم يكتف بهذا، بل ألف كتابًا خاصًا بعنوان «المسجد الأقصى أين؟» خلص فيه إلى نفس الفرية: «لقد تبين لنا عدة حقائق بخصوص المسجد الأقصى والذي يحسم الأمر أنه ليس الذي بفلسطين»! وهي نفس المزاعم اليهودية المعاصرة[٤]!

فما الدافع الحقيقي لإيران إذن في معاداة اليهود ونصرة الأقصى وهم لا يعترفون بقدسيته؟

> **هناك تقديرات لقيمة الأسلحة التي حصل عليها الملالي من اليهود بأكثر من ملياري دولار بكثير! وقد ذكرت بعض المصادر أن بعض هذه الأسلحة التي أرسلتها إسرائيل للملالي كانت أسلحة مُصادَرةً من قوات الثورة الفلسطينية في حرب بيروت سنة ١٩٨٢م**

التعاون مع الأعداء:

قزَّمت الكاتبة جريمة إيران الخميني بالتعاون مع إسرائيل، فذكرت (ص٧٧) أن إيران استوردت خلال الحرب مع العراق ١٩٨٠-١٩٨٨ أسلحة من إسرائيل بقيمة ملياري دولار! وأن إسرائيل أمدتها بصور مواقع عراقية فقصفتها إيران، وبالمقابل قدمت لإسرائيل صورًا عن مفاعل العراق النووي فقصفته إسرائيل!

هذا ما ذكرته المؤلفة، لكن هناك تقديرات لأكبر من ملياري دولار بكثير لقيمة الأسلحة التي حصل عليها الملالي من اليهود! وقد ذكرت بعض المصادر الأخرى أن بعض هذه الأسلحة التي أرسلتها إسرائيل للملالي كانت أسلحة مصادرة من قوات الثورة الفلسطينية في حرب بيروت سنة ١٩٨٢م.

وقد مررت الكاتبة هذه الجريمة بشكل غريب وكأنه حدث عرضي! والعجيب أن علاقة التعاون الإيراني الإسرائيلي لم تتوقَّف بعد ذلك، بل بقيت مستمرة في مجالات متعددة[٥]، ولكن الكاتبة أعرضت عن ذلك ولم تتناوله، ولم يشكل هذا عندها أي علامة استفهام على حقيقة أيديولوجية نظام الملالي أو استراتيجيتهم!

(١) ينظر: رموز الإصلاح السلفي، لأسامة شحادة، ص٢٩٩ ومقال د. علي العتور في رثاء الأشقر «أخي عمر الأشقر.. أستودعك الله» جريدة السبيل ٢٠١٢/٨/٢٣.

(٢) قال رمضان شلح الأمين العام لحركة الجهاد الإسلامي في مقابلة مع موقع «الإسلام اليوم» ٢٠٠٧/١٠/٢٠م: «إنَّ أول من اتهمنا في علاقتنا بإيران والشيعة هم الإخوة في حركة الإخوان المسلمين بقطاع غزة، وأقول: الإخوان، لأن الاتهام كان مبكرًا قبل إنشاء حماس».

(٣) أحمد ياسين الظاهرة المعجزة وأسطورة التحدي، لأحمد بن يوسف، ص (١١٨).

(٤) يراجع كتاب: «الشيعة والمسجد الأقصى»، لطارق أحمد حجازي، للتوسع حول موقف الشيعة من نفي قدسية المسجد الأقصى.

(٥) ينظر مقال: التعاون الإسرائيلي الإيراني، والذي رصد هذا التعاون حتى سنة ٢٠٠٩م!، وقد شمل هذا التعاون مجالات: التسليح والغازات السامة، تجارة النفط، ترميم البنية التحتية، وتطوير الزراعة، وأجهزة حماية لسيارات موكب الرئيس أحمدي نجاد! وغيرها من المجالات: https://www.alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=4380

هل المقاومة استراتيجية عند إيران أم ورقة في يدها؟

تقدم الكاتبة (ص٩٧) العرض الإيراني سنة ٢٠٠٣م عقب احتلال أمريكا للعراق للتخلي عن دعم الفصائل الفلسطينية وحزب الله وكشف برنامجها النووي، مقابل وقف سلوك أمريكا العدواني من إيران وإصدار بيان أن إيران ليست جزءًا من محور الشر، على كونه تجاوزًا من التيار الإصلاحي بقيادة الرئيس خاتمي، ولم يقبل به المرشد والحرس الثوري[1]!

وهذه لعبة معروفة ومكشوفة من تبادل الأدوار بين أجنحة النظام الإيراني ليسهل التنصل من تبعية أي تصريح أو قرار لاحقًا، إذ لو وافقت الولايات المتحدة على العرض لكانت إيران مستعدة لتنفيذ ما قدمته في عرضها، لكن الولايات المتحدة تجاهلت العرض تمامًا، والعجيب أن الكاتبة لا ترى في هذه الفضائح والانتهازية والخيانات المتكررة أي مأخذ على جدية وصدق دعم إيران للقضية الفلسطينية وحركة حماس!

والاتفاق الإسرائيلي اللبناني/ حزب الله الأخير (٢٠٢٤/١١/٢٧) بإيقاف الحرب بينهم تكرار لخياناتهم السابقة، فبعد التصريحات العرمرمية بعدم إيقاف الحرب في جنوب لبنان حتى تقف في غزة، ها هي إيران توقف الحزب في صفقة شاملة ستظهر تفاصيلها لاحقًا.

نصرة الفلسطينيين بذبحهم!

تجاوزت الكاتبة خلاف حماس وإيران عقب سقوط صدام بناء على طلب حركة حماس كما قالت الكاتبة (ص١٧٣)، حيث تعرض الفلسطينيون لمجازر بشعة على يد المليشيات الشيعية تحت بصر وسمع إيران وقد وثقها كِتاب «فلسطينيو العراق بين الشتات والموت»[2]!

وسبق للكاتبة أيضًا تجاوز الموقف المخزي لإيران والخميني من المذابح بحق المخيمات الفلسطينية التي قامت بها حركة أمل سنة ١٩٨٥م، وقد سطر هذه الفضيحة الكاتب المعروف فهمي هويدي في كتابه: «إيران من الداخل» (ص ٤٠٤)، ولم تكتف بتجاوز هذه الفضيحة، بل مرَّرت فرية أن الإيرانيين حموا المخيمات الفلسطينية (ص١٦٦)!

وتكرر ذلك في تناول الثورة السورية، حيث ركزت على تجنب حماس التورط ضد الشعب السوري ولذلك غادرت، ثم تبرؤ حماس من بعض أفرادها الذين تصرفوا بشكل غير رسمي وكونوا فصيلاً قاتل النظام!

لكن الكاتبة تغافلت عن جرائم النظام بحق المخيمات الفلسطينية وكوادر حماس التي تعرضت للتعذيب والقتل برغم أنها نقلت (ص٢١٣) عن موقع إيراني أن الجيش السوري قتل ١٢٠٠ عضو من حماس بعضهم قادة في القسام، ولم تعلق بكلمة!

> **تغافلت الكاتبة عن جرائم النظام السوري بحق المخيمات الفلسطينية وكوادر حماس التي تعرضت للتعذيب والقتل برغم أنها نقلت عن موقع إيراني أن الجيش السوري قتل (١٢٠٠) عضو من حماس بعضهم قادة في القسام، ولم تعلق بكلمة!**

دعم متواصل أم متقطع؟

نقلت الكاتبة عددًا من الانتقادات من حركة حماس للدعم الإيراني لها، وكذلك هي وصفت هذا الدعم بأوصاف سلبية، لكنها جعلت ذلك مجزأً مفتتًا بحيث لا يُظهر الخلل بحجمه الحقيقي، واستخدمت في ذلك ألفاظًا ملطفةً نوعًا ما، فالدعم العسكري في موضع: «قليلٌ وتراجَع»، ومرةً: «تقلَّص الدعم المالي»، ومرة: «توقَّف الدعم لسنوات»، ومرة: «انقطع الاتصال السياسي ولكن بقي الدعم العسكري للداخل»، ومرةً: «كنا ننتظر منكم أكثر من ذلك»، و«موقف خجول في نصرة طوفان الأقصى»، وكذلك كلام أبو مرزوق عن انقطاع الأسلحة لعدة سنوات، كل هذه الأوصاف حين تجزَّأ عبر (٢٠٠) صفحة تضيع معالم الحقيقة، وهل فعلاً إيران تدعم حماس بشكل كبير ومتواصل؟ أم هو دعم متقطِّع ومشروطٌ بالإعلان عنه وشكر إيران عليه علنًا؟ وهل هو دعم غير مشروط -كما يقال- لا يتدخل في تشكيل قيادة حماس وتوجهاتها؟

---

(١) يمكن الاطلاع على تفاصيل العرض في كتاب «حلف المصالح المشتركة» لتريتا بارزي، ص (٣٣٩).

(٢) جمع وإعداد: أحمد اليوسف، وهناك موقع على شبكة الإنترنت بعنوان: فلسطينيو العراق، يرصد أحوالهم المأساوية على يد الشيعة.

وذكرت الكاتبة في مواضع متعددة حرص إيران على تواصل دعم الجناح العسكري بالداخل مع توتر علاقتها بالقيادة السياسية بالخارج، بل رفضت استقبال بعض قادة حماس كخالد مشعل في طهران وبيروت حتى تم استبداله واستبدال غالب قيادة الخارج بشخصيات من الداخل كانت راغبة بدوام العلاقة مع إيران وبشار الأسد بغض النظر عما جرى من جرائم بحق الثورة السورية خصوصًا.

الموقف من حركة التشيع في غزة:

تجاهلت الكاتبة التشيع في غزة وفلسطين من بعض أتباع حركة الجهاد، ثم ظهور حركة الصابرين، وسعت كذلك لترسيخ دعاية إيران أنها لا تسعى لنشر التشيع والتبشير به، وهو تضليل واضح![1] وأغفلت عن عمد جهود محاربة التشيع في غزة والتي قام بها عدد من العلماء والنشطاء من اتجاهات متعددة، منها «جمعية أهل السنة والصحابة» والتي أسسها الدكتور صالح الرقب أحد علماء حماس نفسها سنة ٢٠٠٨م![2].

من الأشياء العجيبة التي أوردتها الكاتبة ولم تفصل فيها (ص١٦٠)، أن حماس في أول زيارة رسمية لها لطهران للمشاركة في مؤتمر دعم الانتفاضة مطلع سنة ١٩٩٢م عُقد على هامش المؤتمر اجتماعٌ للفصائل العشر كان منهم ممثل عن «حزب الله الفلسطيني»! لكن فتحي الشقاقي زعيم حركة الجهاد اعترض على ذلك، فتم حل الأمر عبر مشاركة عباس الموسوي زعيم حزب الله اللبناني بدلاً عن الممثل الفلسطيني! لكن ما هو حزب الله الفلسطيني؟ وما علاقة ذلك بنشر التشيع؟ ولماذا اعترض الشقاقي عليه؟ لا تُجيب الكاتبة عن ذلك.

السلاح الإيراني موجَّه لقتال اليهود فقط!

مررت الكاتبة كثيرًا من الأكاذيب والافتراءات الشيعية والإيرانية، ومن أطرفها: أن الدعم الإيراني بالسلاح لحماس كان موجهًا لمقاتلة اليهود! ولكن ماذا عن سلاح حزب الله والمليشيات الشيعية في العراق وسوريا والحوثيين هل كان سلاحها الإيراني مصوبًا لليهود أيضًا؟ أم أنه فتك بالفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين والسوريين واليمنيين، فضلاً عن التفجيرات قديمًا في مكة ضد الحجاج وفي الكويت ضد أميرها وبين رواد المقاهي الشعبية!؟ وطبعًا قَتلُ الشعب الإيراني بالسلاح الإيراني فضيحةٌ لوحده.

تجاهلت الكاتبة التشيُّع في غزة وفلسطين من بعض أتباع حركة الجهاد، ثم ظهور حركة الصابرين، وسَعَت كذلك لترسيخ دعاية إيران أنها لا تسعى لنشر التشيع والتبشير به، وهو تضليل واضح! وأغفلت عن عمد جهود محاربة التشيُّع في غزة والتي قام بها عددٌ من العلماء والنشطاء من اتجاهاتٍ متعددة، منها «جمعية أهل السنة والصحابة» والتي أسسها الدكتور صالح الرقب أحد علماء حماس نفسها سنة ٢٠٠٨م!

الخاتمة:

الكتاب على غزارة صفحاته وعظم الجهد المبذول في تأليفه إلا أنه متحيِّزٌ لنتيجة محددة مسبقًا، ويفتقر للتجرد في مسائل مهمة وجوهرية، وكان حريًا بمثل هذا الكتاب أن يجيب عنها أو أن يُثبتها ويسلِّط الضوء عليها ويترك الحكمَ للقارئ.

ولذلك فإن الكتاب لا يصح الاعتماد عليه في تقييم صحة أو بطلان علاقة حماس بإيران، ولا يعتمد عليه في تلميع صورة إيران ونظام الملالي بكونهم أنصار القضية الفلسطينية!

(١) لمزيد من التوسع حول نشاط التشيع في حركة الجهاد خصوصًا وغزة عمومًا، ينظر: الموسوعة الشاملة للفرق المعاصرة، التجمعات الشيعية في بلاد الشام، لأسامة شحادة وهيثم الكسواني، ص (٢٠٢).

(٢) أصدر د. صالح الرقب سنة ٢٠٠٣م كتابه «الوشيعة في كشف شنائع وضلالات الشيعة»، وبين سبب تأليفه للكتاب في المقدمة بقوله: «ما لوحظ من زيادة نشاط الدعوة للشيعة الاثني عشرية في الآونة الأخيرة على مستوى قطاع غزة خاصة» (ص٣)، وكتب في (ص٦٣): «ومما يؤسف له أنه تولى طباعة الصحيفة السجادية وتوزيعها في قطاع غزة بعض الجهلة المغرر بهم! وأطلقوا عليها: (الطبعة الفلسطينية)، وكتب أحدهم مقدمة لها؛ غالى في مدحها وتعظيمها!».

الأبعاد الوجودية للإنسان في ميزان التصور الإسلامي

د. كريمة دوز (*)

التصور الغربي المادي أحادي النظرة يختزل الإنسان في بُعدٍ مادي بحت أو روحيٍّ منعزلٍ، فشل في تحقيق المعنى والغاية، وحوَّل الإنسان إلى كائن استهلاكي خاضع للرغبات أو صراعات الغرائز، أما الإسلام، فقدم تصورًا شاملاً يرتبط فيه الإنسان بخالقه، يجمع بين متطلبات الروح والجسد بانسجام، مؤكدًا على إنسانية متكاملة تعيد المعنى والقيمة لحياته.

مقدمة:

لم يكن الحديث عن خلق الإنسان في القرآن الكريم وبيان أصوله وتفاصيل تكوينه من الكماليات الفكرية، أو قُل من التحسينيات على نهج أهل الأصول، بل مدخلاً ضروريًا وبابًا من أبواب الوصول إلى طبيعة هذا الإنسان، وأصلاً تبنى عليه القضايا الإنسانية الأخرى، فإذا اعترى فهم فلسفة الخلق نقص، فإن هذا النقص سيطال لا محالة الثلاثية الوجودية (المبدأ، الحال، المصير)، ولم تضل بعض الفلسفات والمذاهب الفكرية المعاصرة إلا بسبب ضلالها في جوابها عن سؤال البدايات، لذلك يؤكد المؤرخ الأمريكي كافين رايلي أن أفكار الناس عن قصة الخلق أمر مهم للغاية بالنسبة لهم وفي ذلك يقول: «إن أفكار الناس عن الخلق أمر مهم للغاية بالنسبة لهم، فهم يرجعون إليها المرة تلو الأخرى كي يفهموا طبيعة الأشياء وكيف كانت وكيف ينبغي أن تكون»[1].

ولعل قضية خلق الإنسان في الرؤية التوحيدية امتد أثرها في بناء تصور الإنسان عن أبعاده الوجودية في الكون، فخلق الإنسان هو أساس نظرتنا وفهمنا لقضية القيمة والمعنى والغاية والهدف، وهذه القضايا كلها متأصلة ومتجذرة في كل نفس، حيث لا يمكن إلغاؤها أو حتى طمسها، كما هو الشأن في الرؤية المادية الطينية[2].

(*) دكتوراه في العقيدة والفكر الإسلامي ومقارنة الأديان، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس- المغرب.

(١) الغرب والعالم، كافين رايلي، ترجمة: عبد الوهاب المسيري وهدى حجازي، (٢٥٦/١).

(٢) ينظر: «مدارج مسخ الإنسان في الرؤية الحداثية»، مجلة رواء، العدد ٢٧، (يوليوز ١٤٤٦هـ-٢٠٢٤م).

وفي هذا المقال سنحاول أن نقف على أبعاد الإنسان في التصور الإسلامي، لكن قبل الوقوف على كمال الرؤية التوحيدية في نظرها لطبيعة الإنسان سيكون ديدننا في البدء النظر فيما شابَ هذه التصور المادي من خلل حاد بالإنسان عن فطرته، وأتى على إنسانيته.

أحادية البعد الإنساني وقصور الرؤية الغربية:

نزوع الإنسان الغربي إلى العدمية أو قل «التدميرية» أو «السلبية» بتعبير الكاتبة الكندية نانسي هيوستن[١]، لم يكن سوى احتجاج على غياب الإلهي[٢]، وإلغاء ثنائية الطبيعة الإنسانية، بطمس الجانب الروحي في الإنسان والإبقاء على الإنسان الطيني الترابي ذي البعد الواحد الذي يحيا حياة أفقية سطحية لا معنى فيها، ولا مكان فيها لسؤال لماذا؟

ولعل النظر فيما ذهبت إليه الرؤية الغربية في رؤيتها لأبعاد الإنسان الوجودية في الكون يجعلنا نضع موازنة ومقارنة بين التصور القرآني والنظرة المادية للإنسان، فالقرآن الكريم ببياناته القوية النافذة، يمزق غطاء الإلفة وستار العادة الملقى على الإنسان، فيكشف بتمزيقه ذلك حقائق عجيبة لذوي الشعور، ويُلفت أنظارهم إلى ما فيه من دروس بليغة، فاتحًا كنزًا لا يَفنى للعلوم أمام العقول[٣]، للنظر في هذا التركيب الفريد.

أما التصور المادي، فهو يخفي القدرة الإلهية في تصوير هذا الإنسان، وبتجاوزه لثنائية الخالق/ المخلوق، يشوه الطبيعة الإنسانية ويأتي على تركيبته المجبول عليها كما سنرى بين ثنايا هذا المقال.

ولعل تقلب الإنسان الغربي بين المادية والروحانية هو ترجمة للعبارة التي جاءت على لسان عيسى عليه السلام في إنجيل مرقس: «أَعْطُوا ما لِقَيْصَر لِقَيْصَرَ وما لِلّه لِلّه»[٤]، حيث لا اجتماع فيها للمادي والروحي؛ فإما حياة مادية محضة وإما انقطاع لحياة روحية خالصة.

فالحضارة الغربية حضارة أحادية البعد؛ إما نزوع للمادية أو هروب للرهبانية، فلا وجود فيها للمركب والثنائي، وعبارة «الإنسان ذو البعد الواحد» هي من كتابات هربرت ماركوز (Herbert Marcuse)[٥] أحد مفكري مدرسة فرانكفورت[٦]، وهي تعني «الإنسان البسيط غير المركب»، والإنسان ذو البعد الواحد بمفهومه المعاصر هو نتاج المجتمع الحديث، وهو نفسه مجتمع ذو بعد واحد تسيطر عليه العقلانية التكنولوجية، وشعاره بسيط هو التقدم العلمي والصناعي[٧] والمادي المستمر والمتزايد واللانهائي، وتعظيم الإنتاجية المادية[٨] وتحقيق معدلات متزايدة من الوفرة والرفاهية والاستهلاك، وتهيمن على المجتمع الفلسفة الوضعية التي تطبق معايير العلوم الطبيعية على الإنسان، وهكذا تنجح في خلق طبيعة ثانية مشوهة لدى الإنسان، فيغدو سقف تطلعاته محدودًا بعالم المادة[٩].

---

(١) ينظر: أساتذة اليأس (النزعة العدمية في الأدب الأوروبي)، نانسي هيوستن، ترجمة: وليد السويركي.

(٢) ينظر: الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ص (١٣٨).

(٣) الكلمات، بديع الزمان النورسي، ص (١٤٨-١٤٩)، (بتصرف).

(٤) إنجيل مرقس، الإصحاح (١٢)، الفقرة (١٧).

(٥) حاول هربرت ماركوز الحديث من خلال كتابه «الإنسان ذو البعد الواحد» عن المجتمعات الصناعية وهي مجتمعات ذات بعد واحد، قائمة على تمجيد التصنيع وطمس الذات الإنسانية، غير أن طغيان الروح الأحادية في المجتمعات الصناعية وتوطد أركان المادية لا يعني أن الاهتمامات الروحية الميتافيزيقية والنشاطات البوهيمية قد اختفت، بل على العكس من ذلك، فما يزال هناك الكثير من دعاة «لماذا لا نجرب الله؟»، غير أن هذه الأشكال من الاحتجاج حسب رأيه ما عادت تتناقض مع الوضع القائم، وفي كتابه هذا مزيد تفصيل لهذا .

(٦) مدرسة فرانكفورت: مجموعة من الفلاسفة والنقاد الثقافيين وعلماء الاجتماع المرتبطين بمعهد البحث الاجتماعي الذي تأسس في فرانكفورت عام (١٩٢٩م). ينظر: .The Cambridge dictionary of philosophy, Robert Audi, p (324)

(٧) ومن نتاج هذا التقدم الصناعي القائم على الرؤية المادية الاختزالية التي سادت القرن التاسع عشر الحديث عن الإيمان باعتباره مجرد «أفيون»، حيث لم تدرك هذه الرؤية مدى تركيبة الأبعاد الإنسانية وتداخلها فسقطت في هذا الخطاب الاختزالي الذي يحول الإنسان إلى ظاهرة كمية أحادية البعد، يمكن رصدها والتنبؤ بسلوكها ثم التحكم فيها. (ينظر: العلمانية تحت المجهر، عبد الوهاب المسيري وعزيز عظمة، ص (٢٣١)، بتصرف).

(٨) صور شارلي شابلن بسخرية كوميدية ما وصل إليه الإنسان الغربي بعد الثورة الصناعية، حيث قدم من خلال فيلم الأزمنة الحديثة (The modern times) صورة الإنسان الحديث الذي يقضي معظم أوقاته في المعمل، فلا شيء غير الإنتاج والتصنيع، وأول مشهد في الفيلم يصور العمال كقطيع من الخراف، وهو مشهد يختصر ما صار عليه الإنسان الحديث الذي تمت قولبته وترشيده ليناسب ما آلت إليه الحداثة الغربية وأولى معالم الترشيد تتمظهر من خلال محو تطلعاته نحو اللامتناهي.

(٩) العلمانية تحت المجهر، عبد الوهاب المسيري وعزيز عظمة، ص (٩٥-٩٦)، بتصرف.

الحضارة الغربية حضارة أحادية البعد؛ إما نزوع للمادية أو هروب للرهبانية، فلا وجود فيها للمركب والثنائي

فلو ذهبنا مثلاً إلى الاتجاه النفسي، لوجدناه يعرف الإنسان لا بوعيه وعقله وإنما بذاته اللاواعية، ودوافعه الغريزية، ويمكن أن نمثل لهذا الاتجاه بعالم النفس النمساوي سيجموند فرويد الذي قدس اللاشعور فصار هو المتحكم في تصرفات الإنسان الواعية، حيث استطاع بطرحه هذا تقويض المشروع التنويري الذي كان يقدس العقل والعقلانية، فأظهر أن خلف هذا العقل خزانًا هائلاً بقوى غير عقلانية، وما الإنسان الواعي إلا ظاهرة ثانوية هزيلة[١]،حيث اكتسب الصراع الداروينى مع الطبيعة أبعادًا جديدة، إذ بات الإنسان محكومًا بأن يعيش في صراع أبدي مع طبيعته الخاصة، فهو مسير بغرائز دنيئة، والمنبع الحقيقي لجملة الدوافع البشرية ما هو إلا مرجل يغلي بالغرائز الحيوانية[٢]، فالغرائز الداخلية هي العالم الحقيقي للإنسان وهو عالم غابوي حيواني لا سيادة فيه للعقل.

ومن الإنسان الفرويدي ذي البعد الغرائزي، إلى الإنسان ذي البعد الواحد المتمركز حول ذاته (الإنسان النيتشوي) صاحب الإرادة المطلقة الذي يغزو العالم ويدمره ويحوسله[٣] لصالح ذاته المطلقة. ويظهر الإنسان الاقتصادي ذو البعد الواحد الذي يراكم الثروة بلا نهاية ويهتم بالحقائق المادية التجريبية المتناثرة وحسب، إنه إنسان ضيق الأفق، حدود خياله هي حدود عالم الأشياء.

وهو إنسان يذعن للأهداف المجردة اللاإنسانية ويُرشِّد حياته في ضوئها، هذا الإنسان هو الإنسان الذي يجسد مبدأ المنفعة والذي يمتثل لآليات السوق، وهو الإنسان العادي الذي يعمل لصالح الدولة ويُرشِّد حياته في ضوء ما يأتيه من أوامر ويتبع آخر الموضات والصيحات[٤]، وهو الإنسان الجسماني الذي يجسد مبدأ اللذة ويكرس حياته للذاته وحسب ويذعن لما يصدر له من أوامر من قطاع اللذة[٥].

هذه النماذج تلخص لنا الرؤية الغربية الحديثة لأبعاد الإنسان، وهي رؤية كما أسلفنا مادية، والإنسان في إطارها طبيعي مادي، فهو جزء لا يتجزأ من الطبيعة / المادة، يرد إليها ويخضع لقوانينها وحتمياتها ولا يمكنه تجاوزها[٦]، ومن ثم لا تطلعات لهذا الإنسان لما وراء الحياة المادية، فهو «إنسان أفقي» يحيا لهذه الدنيا وفيها، إنه –إن صح التعبير– «إنسان نازل» لطينة الأرض ولأصله الترابي، غير باحث عن «الإنسان الصاعد» المتدرج في مقامات أهل النور، الباحث عن إنسانيته الضائعة وسط دوامة التصورات والفلسفات.

لكن منذ متى على وجه الدقة ظهر هذا الشعور بالقطيعة بين الذات والعالم، هذا الإدراك لحضور الإنسان في العالم باعتباره عبثًا؟ يطرح الروائي الفرنسي يوجين ايزونسكو هذا السؤال في كتاب مذكراته: حاضر ماض، ماض حاضر: «بدءًا من أية لحظة بدأت الآلهة تنسحب من العالم؟ منذ أية لحظة فقدت الصور ألوانها؟ منذ أية لحظة أُفرغ العالم من جوهره، منذ أي لحظة لم تعد العلامات علامات، منذ أي لحظة وقعت القطيعة التراجيدية، منذ أية لحظة تُركنا لمصيرنا، أي منذ أي لحظة لم تعد الآلهة تريدنا كمتفرجين ومشاركين؟ لقد تُركنا لأنفسنا، لعزلتنا، لخوفنا فولدت المشكلة: ما العالم؟ ومن نحن»[٧]؟

(١) آلام العقل الغربي، ريتشارد تارناس، مرجع سابق، ص (٣٩١)، (بتصرف).
(٢) نفس المرجع، نفس الصفحة، بتصرف.
(٣) مصطلح مسيري، وهو اختصار لعبارة (تحويل الإنسان إلى سلعة)، استلهمها عبد الوهاب المسيري من الاستعمال الإسلامي لاختصار «الحوقلة»، وكثيرًا ما يستخدم مصطلح «حوسلة» في سياق حديثه عن الإنسان في النظرة الغربية المادية الحديثة.
(٤) يعد الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي جيل ليبوفتسكي من أهم من تناول ظاهرة الاستهلاك المتنامي للمجتمعات الحديثة بالدراسة، فذهب إلى أن الاستهلاك العالي ومبدأ الفردانية الذي تحياه المجتمعات الغربية هو من مخلفات الحداثة ومنجزاتها، فذهب إلى أن الترف الذي كان ثقافة محصورة في عالم مغلق أضحت منتشرة بين العامة التي أهوسها الاستهلاك، فالناس في عصر الحداثة وما بعدها أبدلت عبادة الله بعبادة الماركات. (للتوسع في الموضوع والوقوف على رؤية جيل ليبوفستكي يمكن الرجوع إلى: (الترف الخالد: من عصر المقدس إلى زمن الماركات) كتبه بشراكة مع البروفيسورة إليبت روت، ترجمة: الشيماء مجدي، وينظر كذلك: عصر الفراغ (الفردانية المعاصرة وتحولات ما بعد الحداثة)، جيل ليبوفتسكي، ترجمة: حافظ إدواخرز).
(٥) الإنسان والحضارة، عبد الوهاب المسيري، ص (١١٣-١١٤)، بتصرف.
(٦) ينظر: نفس المرجع، ص (١١٢).
(٧) أساتذة اليأس (النزعة العدمية في الأدب الأوروبي)، ص (٢١).

فسؤال من نحن؟ لا يمكن أن نجد جوابه في تصور ألغى الثنائية الإنسانية، ولم ينظر بتبصر وبصيرة في تركيبة هذا الكائن الفريد، الذي جبل على أن يحيا حياتين، فإن أتت إحداهما على الأخرى لن نكون أمام الإنسان الرباني أو بالأحرى الإنسان الإنسان، وإنما سنكون أمام صور مشوهة له، وإذا كانت المادية تؤكد دائمًا ما هو المشترك بين الحيوان والإنسان، فالدين يؤكد على ما يفرق بينهما[١]، ولعل الإسلام في نظرته المُتَّزنة للإنسان استطاع أن يبقي على هذه الثنائية، دون أن يغلب طرفًا على طرف، ولعل الفقرة التالية فيها مزيد بيان وتفصيل لهذه الرؤية.

تكامل البعد الإنساني في الإسلام

لا يمكن أن نمضي في بيان خلل التصور المادي الأحادي عن الإنسان دون أن نجعل من كلام الله تعالى وحديث رسول الله ﷺ الأرضية الصلبة التي نبني عليها فهمنا لتركيبة الإنسان في التصور الإسلامي، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩]، فهذه النفخة هي التي تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلاً للاتصال بالله تعالى، وللتلقي عنه، ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس، إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول، والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسرب به وراء الزمان والمكان، ووراء طاقة العضلات والحواس، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة في بعض الأحيان[٢]، وهي النفخة التي تسمو به من دركات البهيمية إلى مدارج الحياة الإنسانية، ليشق الطريق في سبيل الوصول إلى معرفة الحق الأعلى، والغاية التي لأجلها خلق.

وفي حديث الرهط الثلاثة من جماع القول ومن الفهم النبوي المعجز ما يغنينا عن تحبير الصفحات بأقوال المفكرين والفلاسفة، التي ما نسوقها ها هنا إلا تدليلاً وتفسيرًا للتصور الإسلامي المؤسس على القرآن والسنة.

فعن أنس بن مالك ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تَقَالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؛ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٣].

فالحديث فيه إشارة بديعة للموازنة بين حياة الجسد وحياة الروح، ورفض للرهبنة التي ابتدعتها المسيحية، والتي لا يستطيع الإنسان فيها أن يخدم سيدين، فهو إما أن يكره أحدهما ويحب الآخر، أو يتمسك بأحدهما ويستخف بالآخر. إنك لا تستطيع أن تخدم الله وتخدم مامون[٤]، فوفق هذا التصور لا يستطيع إنسان أن يُعنى بروحه وبمتاع الدنيا في الوقت نفسه، فإذا كان الإنسان يطمح إلى المتاع فعليه أن يتنازل عن روحه، وإذا كان يطمح إلى خلاص روحه فعليه أن يتخلى عن متاع الدنيا، وإلا فإنه يتمزق بينهما، فلا يصل إلى هذه أو تلك[٥].

فالإسلام في تصوره المتكامل عن تركيبة الإنسان، يظهر لنا أننا نستطيع أن نحيا الحياتين معًا، وهذا هو الأصل والطبيعي الذي يتماشى مع تكوين هذا الإنسان الثنائي البعد، «فالإنسان بمقدوره أن يحيا كلا الحياتين في ذات الوقت، أي أن يكون مُنوجدًا في العالم المرئي، ومتواجدًا في العالم غير المرئي، إذ إنه يقيم في الأول بجسمه مزدوجًا بروحه، في حين أنه يعرج إلى الثاني بروحه وحدها، وعليه: فإن الإقامة في العالم المرئي لا تمنع من العروج إلى العالم غير المرئي، بل إن العروج غير المرئي يجدد الإقامة المرئية تجديدًا، ويزيدها أمانًا وكمالاً»[٦].

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، ص (٩٥).
(٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٢١٣٩/١٤).
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣).
(٤) يشير إلى شيطان الشهوة والمال في الكتابات الإنجيلية.
(٥) الإسلام بين الشرق والغرب، ص (٢٦٣-٢٦٤)، بتصرف.
(٦) روح الدين، لطه عبد الرحمن، ص (٣٦).

ففلسفة الإنسان في الإسلام قائمة على الثنائيات، عالم الشهادة/عالم الغيب، الخالق/المخلوق، الجسد/الروح، وهي -إن صح التعبير- «ثنائيات تلازمية» لا يمكن فصلها، فبإحداها تكون الأخرى، فإذا ألغي طرف ألغي بموجبه الطرف الآخر، فثنائية الوجود الإنساني (ثنائية المادي والروحي) لا يمكن تفسيرها وضمان بقائها واستمرارها إلا بافتراض ثنائية أخرى هي ثنائية الخالق والمخلوق، وهي ثنائية تأسيسية لا يمكن ردها إلى ما هو خارجها. ومن هنا يرى عزت بيجوفيتش أن الإنسان بصفة أساسية لا يوجد إلا «بفعل الخلق الإلهي»[١].

فهذه النفخة الربانية في جسد الإنسان لا يمكن أن تكون عبثًا، بل هي المميز والفاصل بين الحياة الإنسانية والأخرى البهيمية، فمن المحال أن تكون الغاية من هذه النفخة مجرد بث الحياة، لأن الحيوان يتمتع بالحياة من غير هذه النفخة التي اختص بها الإنسان، فهذه النفخة جاءت الإنسان بأكرم وأقدس شيء أعطيه، تكريمًا له، ألا وهو الروح! فالروح هي سر هذه المعاني الخلقية الإلهية التي يجدها الإنسان في فطرته والتي تظل نورًا فيها يصله بالأصل الأقدس الذي فاضت منه، ألا وهو الروح الإلهي[٢].

> **«الإنسان بمقدوره أن يحيا كلا الحياتين في ذات الوقت، أي أن يكون مُنوجدًا في العالم المرئي، ومتواجدًا في العالم غير المرئي، إذ إنه يقيم في الأول بجسمه مزدوجًا بروحه، في حين أنه يعرج إلى الثاني بروحه وحدها، وعليه: فإن الإقامة في العالم المرئي لا تمنع من العروج إلى العالم غير المرئي، بل إن العروج غير المرئي يجدد الإقامة المرئية تجديدًا، ويزيدها أمانًا وكمالاً»**
>
> طه عبد الرحمن

فالإنسان -إذًا- مركب من جسم مدرك بالبصر ونفس مدركة بالبصيرة[٣]، وبالمنظار القرآني قائم على التناقض، قوتان متضادتان تتجاذبان باتجاهين مختلفين، إحداهما نحو القعر الرسوبي للحياة والأخرى نحو القمة التي سجدت له فيها الملائكة أجمعون، المهم أن الإنسان الواقع دائمًا تحت تأثير هاتين القوتين والمواجه أبدًا لمفترق طريقين، قادر على الاختيار بانتخاب أحد الطريقين[٤]، والإنسان بطبيعته المتعدية لا القاصرة، تكون حياته أشبه بحياتين متلازمتين -أو قُل: متزاوجتين- منها بحياة واحدة، إحداهما عبارة عن عالم من المرئيات ينوجد فيه ببدنه وروحه، والأخرى عبارة عن عالم من المغيبات يتواجد فيه بروحه، ففي هذه الحياة الموسعة يجد الإنسان نفسه موصولاً بالغيبي وصله بالمرئي في كل عمل يأتيه[٥].

وفي الذريعة تعبير بديع عن هذه الثنائية التي تتجاذب الإنسان، يقول الأصفهاني: «الإنسان لما ركب تركيبًا بين بهيمة وملك، فشبه بالبهيمة بما فيه من الشهوات البدنية، من المآكل والمشارب والمناكح، وشبه بالملك بما فيه من القوى الروحانية من الحكمة والعدالة والجود، صار واسطة بين جوهرين: وضيع ورفيع، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، فالنجدان من وجه: العقل والهوى، ومن وجه: الآخرة والدنيا، ومن وجه: الإيمان والكفر، ومن وجه: الهدى والضلال، ومن وجه: موالاة الله تعالى وموالاة الشيطان»[٦].

لذلك كانت إنسانية الإسلام، من خلال رفض الواحدية المادية، وإصرارها على ثنائية الإنسان، وثنائية الطبيعة / المادة، لتصعد منها إلى ثنائية الخالق والمخلوق وكل الثنائيات الأخرى مثل ثنائية الأرض والسماء، الجسد والروح، الحلال والحرام، المقدس والمدنس[٧]، وهكذا يقع الإسلام بكامله

(١) رحابة الإنسانية والإيمان، لعبد الوهاب المسيري، ص (١٣٧-١٣٨)، بتصرف.
(٢) بؤس الدهرانية، لطه عبد الرحمن، ص (١١٥).
(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، ص (٧٢).
(٤) معرفة الإسلام، لعلي شريعتي، ص (٢١٥).
(٥) روح الدين، لطه عبد الرحمن، ص (٤١).
(٦) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص (٨١).
(٧) الثقافة والمنهج، لعبد الوهاب المسيري، ص (٨٦).

تحت صيغة الوحدة ثنائية القطب[١]، ليكون على خلاف الدين المجرد[٢]، دين العالمين.

فاعتراف الإسلام بوجود عالَمين: العالم الطبيعي والعالم الروحي الجواني، يُعلِّمنا أن الإنسان بتكوينه الفريد هو الذي وَصَل بين هذين العالمين، وبدون هذا التوحيد بين العالمين سنجد الدين يميل إلى التخلف (حيث يرفض أي نوع من أنواع الحياة المنتجة)، ونجد العلم يميل إلى الإلحاد[٣].

ولما كان يستحيل على الإنسان أن يحيا حياة بيولوجية، أو حياة رهبانية خالصة، كان قدره على هذه الأرض أن يأخذ موقعًا بين هاتين الحقيقتين المتضادتين. ومن هنا جاءت أهمية الإسلام باعتباره الحل الأمثل للإنسان، لأنه يعترف بالثنائية في طبيعته، وأي حل مختلف يغلب جانبًا من الطبيعة على حساب جانبه الآخر، من شأنه أن يعيق انطلاق القوى الإنسانية أو يؤدي إلى الصراع الداخلي[٤].

وهكذا كان الإسلام هو التصور المتكامل للإنسان خلاف التصورات الأخرى القاصرة، فهو جمع في خطابه بين الإنسان الحي المتكامل كما صوره القرآن وتمثل في حياة الرسول ﷺ، وبين الطبيعة أو العالم الخارجي، فكان بذلك تعبيرًا عن الإنسان الكامل وعن الحياة في جميع وجوهها، وفي هذا الإطار توحد الإيمان مع القانون وتوحد التعليم والتربية مع السلطة، وبذلك أصبح الإسلام نظامًا[٥].

ولفرادة هذا العالم الصغير، ارتأى عبد الوهاب المسيري أن المدخل الطبيعي للإيمان في هذا العصر الذي تسود فيه المادية، محاولة الوصول إلى الله من خلال الإنسان ومن خلال رؤية تركيبية لهذا العالم[٦]، والإنسان بطبيعته الثنائية كان أكبر حجة للإسلام[٧]، والآية الموصلة للإيمان بوجود الخالق سبحانه.

> **«اعتراف الإسلام بوجود عالَمين: العالم الطبيعي والعالم الروحي الجواني، يُعلِّمنا أن الإنسان بتكوينه الفريد هو الذي وَصَل بين هذين العالمين، وبدون هذا التوحيد بين العالمين سنجد الدين يميل إلى التخلف (حيث يرفض أي نوع من أنواع الحياة المنتجة)، ونجد العلم يميل إلى الإلحاد»**
>
> علي عزت بيجوفيتش

خلاصة:

بعد الموازنة بين النظرة الإسلامية الموصولة بمدد الوحي والأخرى الإنسانية الوضعية التي قطعت صلتها بالسماء في النظر لأبعاد الإنسان الوجودية، يتضح أن العور الذي أصاب الفكر الغربي في تأصيله لتركيبة الإنسان يعود في جذوره وأصله إلى طبيعة الخلق الإنساني.

بل إن إشكالية «من نحن؟» -كما سلف- تتحدد معالم حلِّها في الرؤية القرآنية المتكاملة، التي جعلت الإنسان محور حديثها، فكان النظر فيه مفتاحًا للوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، فرسمت له بداياته وحدوده ومآلاته.

فكانت أولى القضايا الفكرية المترتبة على فلسفة الخلق هذه نظرة الإسلام المتّزنة لأبعاد الإنسان الوجودية، مقابل التصورات الأخرى القاصرة، وهي تصورات لم تراع ثنائية البعد الإنساني، فإما أنها ألغت جانبه الروحي فبات الإنسان فيها يحيا حياة أفقيًا لا معنى لها، وإما أنها ألغت الجانب المادي فيه، وكبتت متطلباته الجسدية، فأضحى الإنسان فيها مكبلاً.

ولعل ما وصل إليه الإنسان الغربي الحديث بعدما ألغى الإلهي من تصوره، يجعلنا نقف لنجدد النظر في حال إنسان اليوم، ثم نتبصر في قيمته ومعنى حياته في ظل الحضارة الغربية الحديثة، باحثين عن النموذج البديل، الذي يكون فيه الإنسان إنسانًا.

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، ص (٢٨٥)، بتصرف.

(٢) الدين المجرد حسب السياق الذي ورد في كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب»، يقصد به الدين كتجربة فردية خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله، وهي علاقة تعبر عن نفسها فقط في عقائد وشعائر يؤديها الفرد، وهذا هو الدين في أنموذجه الغربي، أما الإسلام فلا يمكن تصنيف كدين مجرد؛ لأنه يحتوي الحياة كلها، فهو جاء ليقَوِّم الحياة المادية للإنسان ويروي الرمق الأنطلوجي عنده.

(٣) الإعلان الإسلامي، لعلي عزت بيجوفيتش، ص (٨٦).

(٤) الإسلام بين الشرق والغرب، ص (٣٠٢)، بتصرف.

(٥) الإعلان الإسلامي، ص (١١٠).

(٦) الثقافة والمنهج، ص (٨٨).

(٧) الإسلام بين الشرق والغرب، ص (٣٠٢).

المسلمون بين مشروعين

أ. فايز الصلاح (*)

المسلمون بين مشروعين يهددان الأمة: المشروع الإيراني الرافضي، والمشروع الصهيوني الغربي، ويؤكد هذا المقال على خطورة المشروع الصفوي؛ كونه سرطانًا داخليًا يخترق الأمة دينيًا واجتماعيًا وسياسيًا، ويبرز المقال الدور التاريخي للرافضة في تشويه العقيدة الإسلامية واستهداف أهل السنة، ويختم بالدعوة إلى مواجهة كلا المشروعين حسب الإمكانيات، مع التركيز على توحيد الجهود بين المسلمين لمواجهة التحديات المشتركة.

ما يزال الصراع بين الحق والباطل منذ أن خلق الله أبانا آدم عليه السلام، وهذا من حِكم الله في ابتلاء خلقه، ولما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض بين لهما أنه لا بد من عداوة بين البشر، كما قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، ولما أرسل الأنبياء عليهم السلام كان من حكمته ومشيئته أن جعل لهم أعداء من شياطين الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وهذه العداوة أصلها في الدين والاعتقاد، والقتالُ بين أهل الحق وأهل الباطل مستمرٌ على كل الجبهات ومن كل الجهات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقد ابتلي المسلمون في هذا الزمان -ولا سيما في المنطقة العربية، وخصوصًا بلاد الشام- بمشروعين عدُوَّين خطيرين:

- **الأول:** المشروع الصفوي الإيراني، المتحالف مع المشروع الباطني العلماني في سوريا.
- **والثاني:** المشروع الصهيوني المدعوم من الدول الغربية.

(*) دكتوراة في العقيدة الإسلامية، باحث متخصص في الدراسات الشرعية، عضو مجلس الإفتاء في المجلس الإسلامي السوري.

وكلا المشروعين صال على المسلمين، فاحتلوا البلاد وفتنوا العباد، وقتلوا وشرَّدوا ونهبوا الأموال، بمباركةٍ من المجتمع الدولي، الذي قدم دعمًا واضحًا بيّنًا للمشروع الصهيوني، وسكوتًا واضحًا بينًا، بل في بعض الأحيان دعمًا ظاهرًا بينًا للمشروع الصفوي الإيراني، ولولاه لما قامت الثورة الإيرانية ولما استطاع المشروع أن يتمدَّد مترًا واحدًا في البلاد العربية.

والناسُ تجاه هذين المشروعين أقسام:

* **قسمٌ يعظّم خطورة أحد المشروعين، ويستهين بالآخر حتى لا يكاد يراه خطرًا.**

وهم نوعان:

» **الأول:** الذي لا يرى إلا خطورة مشروع واحد على الأمة؛ وهو المشروع الصهيوني فحسب، ثم يتعامى عن المشروع الصفوي، بل قد يتحالف معه. ومن هؤلاء من ينسب نفسه إلى ما يُسمّى محور المقاومة!! وكذا بعض المنسوبين إلى العلم والفكر.

» **والثاني:** الذي لا يرى إلا المشروع الصفوي خطرًا على الأمة، أما الصهيوني فيمكن التفاهم معه، بل التحالف معه. وهؤلاء قومٌ لا خلاقَ ولا أخلاقَ لهم.

* **وقسمٌ يرى خطر المشروعين، لكن يختلفون في الأخطر منهما.**

فمنهم من يرى أنَّ الأخطر هو المشروع الصهيوني، وبعضهم يقول: يمكن أن نتغاضى ولو مرحليًا عن المشروع الصفوي، لأنَّ الصهيوني هو الأخطر في تأثيره ومآلاته.

ومنهم من يرى أنَّ الأخطر هو المشروع الصفوي، مع عدم التغاضي عن المشروع الآخر.

الالتباس وسببه:

وقد تكلم الناسُ كثيرًا بخطورة المشروعين الصهيوني والصفوي، ولكن لما كان المشروعُ الصفوي ملتبسًا -وللأسف- على كثير من الخاصة فضلاً عن العامة، ويعتبره مشروعًا مقاومًا مجاهدًا ومناصرًا لقضايا الأمة؛ أحببت أن أركّز في هذا المقال على شيءٍ من خطورة هذا المشروع، حتى نعرف الواقع ونقوم بالواجب حياله، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وسببُ هذا الالتباس هو التظاهر بالشعارات الإسلامية، فأصل مذهبهم قائمٌ على الكذب والتقية والمراوغة.

قال ابن تيمية: «والرافضةُ تجعل هذا من أصول دينها وتسمِّيه التقية، وتحكي هذا عن أئمة أهل البيت الذين برأهم الله عن ذلك... وقد نزَّه الله المؤمنين من أهل البيت وغيرهم عن ذلك، بل كانوا من أعظم الناس صدقًا وتحقيقًا للإيمان، وكان دينُهم التقوى لا التقية»[1].

فمن هذا الجانب يتقدَّم المشروع الصفوي الإيراني على الصهيوني في هذا الباب، فهو سرطانٌ داخليٌ ينهش وينخر في جسد الأمة من داخلها، والتحرُّز منه ليس بالسهل وجماهير كثيرة من المثقفين والإعلاميين الذين لم يدركوا أغواره وخطورته، لا سيما الذين لا ينتمون جغرافيًا إلى مناطق واقعة تحت النفوذ الإيراني المباشر وأذرعته، أو يفتقدون الثقافة الشرعية المتعمقة حول تاريخ الطوائف وعقائد الرافضة.

مظاهر خطورة المشروع الرافضي:

وخطورة هذا المشروع تتجلى من خلال الزمان والمكان والأثر على الإنسان، والتفصيل كما يلي:

أولاً/ العمق الزماني:

المشروع الرافضي له بدايةٌ عميقةٌ في الزمان؛ فبذرته الأولى منذ القرن الأول، فقد بدأ فكر التشيع خفيفًا بتقديم عليٍّ على عثمان ﷺ، ثم تطور بتقديمه على أبي بكر وعمر ﷺ كما هو الشأن عند الزيدية، ثم تطوَّر إلى السب فالتكفير لجمهور الصحابة كما هو الشأن عند الرافضة. وغلا بعضُهم في عليٍّ فجعلوه إلهًا كما هو الشأن عند السبئية أجداد الباطنية ومنهم النصيرية.

وكانت البداية المنحرفة من خلال رجل يهودي اسمه عبد الله بن سبأ، ادّعى الإسلام وزعم محبة آل البيت، فغالى فيهم وجعل عليًا ﷺ هو الوصي للنبي ﷺ ثم إلهًا معبودًا.

(١) منهاج السنة النبوية (٤٦/٢).

ولكن العمق الزماني عندنا يرتد إلى زمان عمر بن الخطاب ﷺ، عندما اغتيل على يد المجوسي أبي لؤلؤة، قاتله الله.

وهذا الزمان يمرُّ بمحطاتٍ كبيرةٍ مزعجةٍ للأمة، فيمرُّ بالدولة البويهية، ثم القرمطية، ثم الفاطمية، ثم الصفوية، حتى استقرت الأمور الآن في الدولة الإيرانية ومن يتبعها من العصابات الحاكمة والمؤثرة في لبنان وسوريا والعراق واليمن.

> **مذهبُ الرافضة في أصل عقيدته قائمٌ على السكون والكمون، فلا جمعة ولا جماعة ولا جهاد ولا سياسة ولا دولة، حتى يظهر مهديهم المنتظر، فينتظرونه حتى يقيموا معه شعائر الدين ويقاتلوا تحت رايته جميع العالم وخاصة أهل السنة، ولم يخرجهم من هذا الكمون إلا فكرة ولاية الفقيه**

ثانيًا/ الامتداد المكاني:

فهم على مر التاريخ ليس لهم جهود في فتح الممالك والأمم، بل تقتصر جهودهم في قضم الدول من الجسد الإسلامي.

ومذهبُ الرافضة في أصل عقيدته قائمٌ على السكون والكمون، فلا جمعة ولا جماعة ولا جهاد ولا سياسة ولا دولة، حتى يظهر المهدي المنتظر الذي يزعمون أنّه دخل السرداب حيًا وهو في عمر خمس سنين، فينتظرونه حتى يقيموا معه شعائر الدين ويقاتلوا تحت رايته جميع العالم وخاصة أهل السنة.

وعلى مدى التاريخ كان التشيع بابًا لكل زنديق يريد الطعن على الإسلام والبطش بالمسلمين، فكانت الدولة القرمطية والتي كان ابتداؤها في سنة (٢٨٦هـ)، وأقامت دولتها في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية، واستمرت إلى سنة (٣٠١هـ).

وفي عام (٣٥٢هـ) قامت دولتهم الباطنية الرافضية (الفاطمية) في مصر والمغرب العربي والشام والحجاز، والتي بقيت أكثر من مئتي سنة حتى قضى عليها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي.

وفي عام (٩٠٧هـ) ظهر الصفويون في إيران على يد إسماعيل الصفوي، وإيران حينها دولة سنية لم يكن فيها سوى أربع مدن شيعية فقط (ومنها مدينة قم). فقام الشاه إسماعيل بفرض المذهب بالقوة، وقتل كثيرًا من الناس في سبيل ذلك، وهي أول دولة قامت على المذهب الاثني عشري، وقد احتلت بغداد وأفغانستان وغيرها من الدول حتى قضي عليها في سنة ١١٤٨هـ.

أما في العصر الحالي فقد قامت الثورة الخمينية عام ١٩٧٩م، ورفعت شعار القدس، لكن بدلاً من أن تتجه إلى فلسطين لتحريرها صالوا على البلاد العربية من خلال عصاباتهم وأحزابهم، فأصبحت أربع عواصم عربية تحت احتلالهم وتخريبهم[1]، وهم يطمحون لاحتلال دول الخليج كلها، ولا سيما مكة والمدينة.

والسبب أنَّ هذه المدن عندهم محتلةٌ من قبل أهل السنة، وتحريرها مقدمٌ على تحرير بلاد احتلها اليهود!

ثالثًا/ تدمير الإنسان:

وأما أثر هذا المشروع على الإنسان، فقد صالوا على كلّ شيء ضروري فيه، فصالوا على دينه وعقله ونفسه وماله وعرضه.

أما الدين والعقل: ففتنوا الناس بالشبهات والشهوات، ونشروا التشيع من خلال مراكزهم الثقافية الموجودة في السفارات، وكذلك من خلال تبني الأضرحة والمقامات، وما كان من التغيير الديموغرافي الذي حصل بالقوة في سوريا وغيرها.

وأما العقل فكان تأثيرهم عليه بالشبهات أيضًا، وبإغراق البلاد العربية بتجارة المخدرات، والغاية عندهم تبرر الوسيلة.

وأما النفس والمال والعرض، فقد صالوا على كل ذلك قتلاً وذبحًا وتفجيرًا، واغتصابًا للنساء، ونهبًا للأموال، بأبشع أنواع الإجرام، بما لم يفعل مثله العدو الصهيوني المجرم، والذي لا يستهان كذلك بإجرامه.

والرافضةُ في أصل مذهبهم وأساسه يستحلون دماء أهل السنة وأموالهم، بل مذهبهم مفصلٌ من أجل أهل السنة، فعداوتهم ليست إلا لأهل السنة،

(١) كتبت هذه المقالة قبل تحرير دمشق، وقد أذن الله بتحريرها من رجسهم بفضل الله تعالى ومنه وكرمه.

يرضعُها الصغير، ويشبُّ عليها، ويهرم ويموت عليها، وأما الآخرون فعداوتهم لهم هامشية ثانوية.

فلذلك قسموا الناس إلى فسطاطين: «حسينيين ويزيديين»، فهم أتباع الحسين، ونحن أهلَ السنة «اليزيديون»، وهم كاذبون في كل ذلك، فليسوا هم أتباع الحسين ﷺ حقيقة، فالحسين لا يرضى الكفر والزندقة والشرك والضلال والإجرام والقتل، ولا يقف مع المجرمين الظالمين المستبدين، كما وقفوا مع النظام المجرم في سوريا.

ونحن لسنا يزيديين، بل نحن أهل السنة والجماعة، نتبع سنة النبي ﷺ وما اجتمع عليه الأولون.

> **الرافضةُ في أصل مذهبهم وأساسه، يستحلون دماء أهل السنة وأموالهم، فعداوتهم ليست إلا لأهل السنة، يرضعُها الصغير، ويشبُّ عليها، ويهرم ويموت عليها، وأما الآخرون فعداوتهم لهم هامشية ثانوية**

ويكذبون على أئمتهم فيروون الروايات الكثيرة التي تدعو لقتل أهل السنة وأخذ أموالهم، فيروون عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «خذ مال الناصب حيثما وجدته وادفع إلينا الخمس»[١].

وقال الهالك الخميني: «والأقوى إلحاق الناصب بأهل الحرب في إباحة ما اغتُنم منهم وتعلُّق الخمس به، بل الظاهر جواز أخذ ماله أين وُجد وبأي نحو كان ووجوب إخراج خمسه»[٢]. وعن داود بن فرقد، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما تقول في قتل الناصب، قال: حلال الدم، لكني أتقي عليك، فإن قدرت أن تقلب عليه حائطًا أو تغرقه في ماء لكيلا يُشهد به عليك فافعل، قلت: فما ترى في ماله، قال: توِّه ما قدرت عليه»[٣]. أي خبئ واسرق ما قدرت عليه من غير أن يشعر!

ورووا أنه قيل لإمامهم الرضا: «يا ابن رسول الله ما تقول في حديث روي عن الصادق أنه قال: إذا خرج القائم قتل ذراريّ قتلة الحسين بفعل آبائها»، قال: «هو كذلك»، قلت: وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] قال: «ذراري قتلة الحسين يرضون بفعال آبائهم ويفتخرون بها»[٤].

جرائم تاريخية:

لقد أصبحت قضية الحسين شيكًا مفتوحًا يجري سدادُه من دماء أهل السنة، وهذه هي النظرية العقائدية المجوسية الفارسية التي تتخذ التشيع طريقًا لقتل العرب وتخريب ديارهم، وكلما تمكنت طائفة منهم أعملوا سيوفهم في أهل السنة، ومن ذلك:

- في سنة ٣١١هـ قصد أبو طاهر القرمطي البصرة فوصلها ليلاً في ألف وسبعمائة رجل، فوضع السيف في أهل البصرة، وهرب الناس حتى طرحوا أنفسهم في الماء فغرق أكثرهم، وأقام أبو طاهر سبعة عشر يومًا يحمل من البصرة ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ثم انصرف.
- وفي عام ٣١٧هـ هجم على الحجاج يوم التروية وقتل الآلاف منهم، ودفن الناس أحياء في بئر زمزم، وسرق الحجر الأسود، وبقي عند القرامطة أكثر من عشرين سنة.
- قتل الدولة العبيدية الفاطمية للعلماء والأعيان، حتى قال أبو الحسَن القابِسيُّ: «إن الذين قتلهم عبيد الله وبنوه أربعة آلاف، في دار النحر في العذاب، من عالم وعابد ليردهم عن الترضي عن الصحابة، فاختاروا الموت»[٥].
- لما أصبح الطوسي الرافضي وزيرًا للخليفة العباسي تعاون مع المغول في احتلال بغداد مما أدى إلى مذابح عظيمة، وقد مدح علماء الرافضة صنيع هذا المجرم الطوسي حتى قال الخميني المجرم الهالك: «وإذا كانت ظروف التقية تلزم أحدًا منا بالدخول في ركب السلاطين، فهنا يجب الامتناع عن ذلك حتى لو أدى الامتناعُ إلى قتله، إلا أن يكون في دخوله الشكلي نصرٌ حقيقيٌّ

(١) بحار الأنوار (١٩١/٣٩).
(٢) تحرير الوسيلة (٣٥٢/١).
(٣) جواهر الكلام، للجواهري (٤٣٦/١).
(٤) عيون أخبار الرضا (٢٧٣/١)، بحار الأنوار (٣١٣/٥٢).
(٥) سير أعلام النبلاء (١٤٥/١٥).

للإسلام والمسلمين مثل دخول علي بن يقطين ونصير الدين الطوسي»[1].

* ولما ودخل الشاه إسماعيل الصفوي العراق واستولى على بغداد بدأ يسوم أهل السُّنة سوء العذاب، وقتل منهم خلقًا كثيرًا محاولاً أن يغيِّرهم للتشيع، وهدم مسجد أبي حنيفة النعمان في مدينة الأعظمية، ونبش قبر أبي حنيفة، وهدم المدارس العلمية للحنفية وكثيرًا من المساجد. وقتل كل من ينتسب لذرية خالد بن الوليد ﷺ في بغداد لمجرد أنهم من نسبه.

أصبحت قضية الحسين شيكًا مفتوحًا يجري سدادُه من دماء أهل السنة، وهذه هي النظرية العقائدية المجوسية الفارسية التي تتخذ التشيع طريقًا لقتل العرب وتخريب ديارهم، وكلما تمكنت طائفة منهم أعملوا سيوفهم في أهل السنة

جرائم معاصرة:

* كذلك لا ننسى في هذا العصر جرائم الرافضة في لبنان في قتل أهل السنة من إخواننا الفلسطينيين وغيرهم على يد حركة أمل، وخاصة في حرب المخيمات التي قادتها حركة أمل الرافضية، وكان شعارهم: «اقتل سنيًا تدخل الجنة»!

* وأما في العراق وما أدراك ما العراق؟ الذي تعاون الرافضة مع الأمريكان في احتلاله، فقتلوا ومثَّلوا واغتصبوا واغتالوا الخيار من الناس، وما زلت أذكر الخبر اليومي أيام الاحتلال الأمريكي: العثور على جثث مجهولة الهوية من الستين إلى السبعين معبأة في أكياس سود مرمية في القمامة، وذلك في كل يوم، وكل هؤلاء من أهل السنة.

* ومثل ذلك ما فعلوه بإخواننا الفلسطينيين في بغداد فقتلوا منهم حوالي ٥٠ ألفًا وشردوا الباقي، وأخذوا بيوتهم واحتلوها، ثم يأتي -للأسف- من يغتر بهؤلاء الآن أنهم مقاومة إسلامية وأنهم ينتصرون للقضية الفلسطينية.

* ولما احتلَّ التحالف الدولي العراق أمر مراجعُ الشيعة أتباعهم بعدم قتال القوات الغازية، ولكن لما جاء دور قتال أهل السنة حرضت جميع مراجعهم على القتال، فشكَّلوا العصابات والجماعات باسم جيش الحشد الشعبي، مستخدمين حجة «الدواعش» غطاءًا وستارًا لقتل أهل السنة في أكبر مسرحيةٍ قاموا بها في العصر الحديث.

* ومن ذلك الانسحاب الكيفي للجيش العراقي من مناطق السنة، وعلى رأسها الموصل، فلما سيطر عليها تنظيم الدولة جردوا أهلها من سلاحهم وقوتهم، بحجة أنهم الدولة، ثم انسحبوا منها تاركين الناس بلا قوة ولا رادع، فعاد الرافضة على مناطق السنة بمعاونة طيران التحالف، فاحتلوا وقتلوا وهجروا في أعظم مسرحية واقعية وجريمة خبيثة عرفها التاريخ.

* وأما بلدي الحبيب سوريا، فلم تكد تجف الدماء فيها بعد، والجرحُ عميقٌ، وإذا كان المؤرخ ابن الأثير رحمه الله بقي أربع سنوات لا يستطيع أن يكتب حرفًا واحدًا عن تخريب بغداد من قبل المغول من هول ما رأى، فكيف هو فاعل لو رأى ما حصل في سوريا؟!

ولم يكتفوا بذلك حتى أتوا بالدب الروسي يعاونهم في إجرامهم.

ثم يأتي من يطالب مَن وقع عليه الإجرام أن يتناسى كل هذه الجرائم ولو قليلاً؛ لأنَّ الذي أجرم بحقهم هو الآن يقاتل الصهاينة، وأن هذا هو مقتضى النظر في المآلات وتحقيق المصالح والمقاصد الشرعية، زعموا!

رابعًا/ تعاون الرافضة مع أعداء الإسلام:

الرافضة يتعاونون مع كل عدوّ للإسلام والمسلمين، حتى لو كان الشيطان الرجيم، وتاريخهم في ذلك معروف وواضح في القديم والحديث.

قال ابن تيمية: «ولم يعرف في طوائف الإسلام أكثر كذبًا وفتنًا ومعاونةً للكفار على أهل الإسلام من هذه الطائفة الضالة الغاوية، فإنهم شر من الخوارج المارقين. وأولئك قال فيهم النبي ﷺ: (يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان). وهؤلاء يعاونون اليهود والنصارى والمشركين على أهل بيت النبي ﷺ وأمته المؤمنين، كما أعانوا المشركين من

(١) الحكومة الإسلامية، ص (١٤٢).

الترك والتتار على ما فعلوه ببغداد وغيرها بأهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ولد العباس وغيرهم من أهل البيت والمؤمنين من القتل والسبي وخراب الديار»[1].

وقصة الدولة الصفوية في تعاونها مع الدول الأوروبية ضد الدولة العثمانية السنية معروفةٌ ومشهورةٌ.

وفي هذا العصر تحالفت إيران مع أمريكا وتعاونت معها في إسقاط العراق وأفغانستان، وذلك باعتراف الأبطحي نائب الرئيس الإيراني، لما قال: لولا إيران لما سقطت أفغانستان والعراق.

ولما اجتاح الجيش الصهيوني جنوب لبنان عام ١٩٨٢م استقبلهم سكان الجنوب من الشيعة -حاضنة حزب الشيطان- استقبلوهم بالأهازيج والزغاريد والورود والأرز، فرحين لأنهم سوف يخلصونهم من الفلسطينيين[2]؛ فلذلك كتب المجرم شارون في مذكراته: أن الشيعة لا يعتبرون عدوًا لنا!

> **«ولم يعرف في طوائف الإسلام أكثر كذبًا وفتنًا ومعاونةً للكفار على أهل الإسلام من هذه الطائفة الضالة الغاوية، وهؤلاء يعاونون اليهود والنصارى والمشركين على أهل بيت النبي ﷺ وأمته المؤمنين»**
>
> **ابن تيمية رحمه الله**

ولما ثار الشعب السوري على النظام المجرم سارعت إيران بعصاباتها لنصرته عندما شارف على السقوط، ومع ذلك لم ينفعه هذا الدعم حتى استغاثت إيران بروسيا للدخول في الحرب، فأرسلت المجرم الهالك السليماني فأقنع الرئيس الروسي للدخول في الحرب، وهذا باعتراف المجرم حسن نصر اللات في لقاء فضائي يفتخر فيه بأنّ هذا من إنجازات المجرم السليماني، وأصبحت صور بوتين تنتشر في كل مكان من مناطق حزب الشيطان.

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٠٩).

(٢) ينظر مقال: "حين استقبل الشيعة الصهاينة بالورود والأحضان"، على لسان الرئيس اللبناني الأسبق أمين الجميل، وعلى لسان أمين عباس الحاج في حوار مع صحيفة أيديعوت أحرونوت الإسرائيلية عام ٢٠١٤م، موقع الهدهد.

خامسًا/ المشروع الصفوي ليس أقل خطرًا من المشروع الصهيوني:

بعد كل هذا يتبين أن المشروع الصفوي ليس أقل خطرًا من المشروع الصهيوني، فكما أن الصهاينة لا يتمكنون من إنجاح مشروعهم إلا بقتل المسلمين وتدميرهم وتدنيس مقدساتهم، فكذلك الرافضة الصفويون لا يقوم مشروعهم إلا على سفك دماء أهل السنة وتدمير بلدانهم وحواضرهم، فالواجب على المسلمين جميعًا جهاد هذين المشروعين بحسب القدرة والطاقة بالمال والنفس والكلمة، كما قال رسول الله ﷺ: (جاهدُوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)[١].

قال ابن تيمية عن الخوارج «فهؤلاء مع كثرة صيامهم وصلاتهم وقراءتهم: أمر النبي ﷺ بقتالهم؛ لكونهم خرجوا عن جماعة المسلمين، واستحلّوا دماء المسلمين وأموالهم، ولا يكفرون أبا بكر وعمر، وإنما يطعنون في عثمان وعلي. والرافضة شر من هؤلاء؛ فإنهم يعاونون اليهود والنصارى»[٢].

ولما هرب جَبَلَةُ بن حَمُّودٍ الصدفيُّ مِن الرافضةِ في الرِّباطِ ونزل القيروانَ، فكُلِّمَ في ذلك؟ فقال: «كنا نحرسُ عدوًّا بيننا وبينهُ البحرُ، والآنَ حَلَّ هذا العدوُّ بساحتِنا؛ وهو أشدُّ علينا مِن ذلك»، ... وكان يُنكِرُ على مَن خرجَ مِن القيروانِ إلى سُوسَةَ أو نحوها مِن الثغورِ، ويقول: «جِهادُ هَؤلاءِ أفضلُ مِن جهادِ أهلِ الشركِ»[٣].

وإليك ما قاله العابد أبو بكر النابلسي كما ينقل ذلك ابنُ كثيرٍ في «البداية والنهاية» عند ترجمة المعز الفاطمي: «وقد أحضر إلى بين يديه الزاهدُ العابدُ الورعُ الناسكُ التقي أبو بكر النابلسي، فقال له المعزُّ: بلغني عنك أنك قلت: لو أن معي عشرةَ أسهم رميتُ الرومَ بتسعةٍ، ورميتُ المصريين بسهم. فقال: ما قلتُ هذا، فظن أنهُ رجع عن قوله. فقال: كيف قلت؟ قال: قلتُ: ينبغي أن نرميكم بتسعةٍ ثم نرميهم بالعاشر. وقال: ولِمَ؟ قال: لأنكم غيرتم دينَ الأمةِ، وقتلتم الصالحين، وأطفأتم نور الإلهية، وادعيتم ما ليس لكم. فأمر بإشهاره في أول يوم، ثم ضرب في اليوم الثاني بالسياط ضربًا شديدًا مبرحًا، ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث، فجيء بيهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن، قال اليهودي: فأخذتني رقة عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات. رحمه الله، فكان يقال له: الشهيد، وإليه ينسب بنو الشهيد من أهل نابلس إلى اليوم»[٤].

ومن المعلوم أنّ عليًا رضي الله عنه لم يقاتل الخوارج لمجرد بدعتهم رغم شناعتها، وإنما قاتلهم لأنهم سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين وكفروهم، وأصبحوا طائفة ممتنعة فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، وهو ما تفعله اليوم عموم العصابات الشيعية المسلحة من التمرد في بلاد المسلمين، فالنظر هنا إلى قبيح أفعالهم وشناعة جناياتهم لا لمجرد انحرافاتهم العقدية، وإن كانت هي المولدة لأحقادهم وأضغانهم، لكنها ليست الأصل في دفعهم وقتالهم كما فعل علي مع الخوارج.

فمن قاتلنا وصال علينا قاتلناه ودفعناه، ومن سكت عنا ولم يهاجمنا سكتنا عنه ولم نهاجمه.

واليوم.. لا مانع من الاختصاص في دفع صيال أحد العدوين، فإخواننا في فلسطين يركزون على دفع المشروع الصهيوني، دون ترك اعتقاد عداوة الرافضة، مع وجوب الحذر من ألاعيبهم وعدم الانخداع بهم، وأهل الشام في سوريا ولبنان واليمن والعراق يركزون على دفع المشروع الصفوي، مع تعاون وتكامل الجميع؛ كل في جبهته.

وفي الختام:

لا شكَّ في خطورة هذين المشروعين، ولا سيّما المشروع الصفوي الإيراني؛ فإنه أبعدُ عمقًا في التاريخ والزمان، وأوسعُ انتشارًا في المكان والبلدان، وأشدُّ تأثيرًا على الإنسان؛ في دينه وعقله ونفسه وماله وعرضه.

فيجب جهاد الجميع بحسب القدرة والإمكان، بالحجة والبيان وبالسيف والسنان.

والله غالب على أمره، وما النصر إلا من عند الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٦٨) وأبو داود (٢٥٠٤).
(٢) جامع المسائل (٤٤٠/٧).
(٣) ترتيب المدارك، للقاضي عياض (٣٧٥/٤-٣٧٦).
(٤) البداية والنهاية (٣٢٢/١١).

الرؤية المبكرة للشيخ محمد سرور في فضح مشروع إيران

د. عطية عدلان (*)

يعرض هذا المقال رؤية الشيخ محمد سرور زين العابدين وتحذيراته المبكرة من التوسع الإيراني ومشروعه الصفوي، حيث أشار الشيخ في كتبه إلى الأطماع الإيرانية في المنطقة، والتحالفات الخفية مع الغرب، واستغلال التشيع السياسي لتحقيق أهداف توسعية، كما وضّح زيف الثورة الخمينية وأكذوبتها الإسلامية، منتقدًا عقيدة التقية والنفاق السياسي، كما يدعو المقال لإعادة قراءة تراث الشيخ ومواقفه لفهم خطر المشروع الإيراني الحالي.

كم نحن بحاجةٍ إلى قراءةٍ جديدةٍ لكتب الشيخ محمد سرور زين العابدين رحمه الله تعالى! فلقد كانت كُتُبه -ولاسيما الكتب التي ألفها عن المشروع الإيراني- بمثابة صيحة النذير العريان؛ إذْ كان الرجل ناصحًا لأمته أمينًا في نصحه، فلو أنّك أردت أن تهتدي إلى مفتاحٍ لشخصيته لما وجدت أفضل من «تمحيض النصيحة»، وكفى بالنصيحة خيرًا وبرًّا، فقد اختُزل فيها الدين كلُّه: (الدين النصيحة)[1]؛ لكونها كفيلةً بحفظ جنابه وصيانة معالمه، ولو أنَّ قادة البلاد العربية أرعوا له اهتمامهم وسمعوا منه النصيحة الخالصة لربما استفادوا من تحذيره؛ فكانوا اليوم في حرزٍ من التهديد الإيراني الجاثم والابتزاز الأمريكيّ الدائم.

النُّذُر الأُولى:

إننا إذْ نرى اليوم إيران تُزاحم بمشروعها الصفويّ المجوسيّ المشاريع الصهيونية والصليبية في المنطقة العربية؛ نُدرك قيمة النصح المبكِّر للشيخ وهو ينادي في قوم لا يدري أَأَيْقاظٌ هُم أم نِيام[2]، ينادي فيهم أن احذروا وقيسوا اللاحقَ على السابق واعتبروا بالذَّاهِب على الآيِب، فها هو يتعرَّض على مدى صفحات من كتابه «وجاء دور

(*) أكاديمي، رئيس مركز محكمات في إسطنبول.

(١) أخرجه مسلم (٥٥).

(٢) للشيخ كتاب بعنوان «أأيقاظ قومي أم نيام؟!» حول خطر الثورة الإيرانية المتدثرة بدثار الإسلام.

المجوس»[١] للمؤامرة على البحرين، ثم للمؤامرة على شطّ العرب والاستحواذ على الأهواز، ثم يتعرَّض للسطو الإيراني على الجزر العربية «طنب الكبرى» و«طنب الصغرى» و«جزيرة أبو موسى»، ثم يكشف عن قبائل عربية عراقية تشيَّعت على مدى القرن المنصرم، ومنها: الخزاعل وتميم وكعب وزبيدة والدفافعة والبدور والشليحات، ثم يعرِّج على الكويت متحدثًا عن (٢٢) مسجدًا للشيعة في الكويت[٢]، وعلى الرغم من موقف بعض الأنظمة العربية من الشيخ فقد عابَ على الذين يدفعهم الحنق لقبول فكرة استيلاء إيران على الخليج العربيّ.

وليت الطموح المجوسيّ توقَّف عند المنطقة المتاخمة لإيران؛ إذَنْ لتوقَّف الشيخ في تحذيره وإنذاره عندَها، لقد تمدَّد نذير الشيخ بقدر تمدُّد الطموح الإيرانيّ، فها هو يكشف عن الجذور الأولى للوجود الإيرانيّ في لبنان قبل بزوغ ذلك الكيان المسمى كذبًا (حزب الله)، فيذهب إلى «حركة أمل» الشيعية، تلك البطن الآثمة التي حملت «حزب الله» فولدت لنا فتنةً ليس من السهل السيطرة على نارها المتأجِّجة، فيقول: «موسى الصدر رجل (السافاك) الإيراني الذي أرسله الشاه عام ١٩٥٩م لتوحيد الشيعة وقيادتهم في مواجهة: الناصرية والقومية العربية والسنة، وليجعل منهم طابورًا خامسًا تقوده الكسروية الحديثة -سواء كانت شاهنشاهية أو إمامية مهدوية- وهذا الوافد الغريب تربَّع على قمة المجد والسؤدد عام ١٩٧٦م[٣]، ... لكنّ صعوده نحو القمة كان سريعًا ... ولقد غرَّر وخَدَع جهاتٍ عديدةً ساعدته في صعوده، ثم أدركت أنّ (الإمام!) يقول شيئًا في العلن ويفعل في السرّ خلافه... وبعد احتلال القوات السورية للبنان عام ١٩٧٦م أصدر الإمام تعليماته السرية لشيعته بتقديم كافّة أنواع المساعدات للقوات السورية... كان هذا الإمام -بقامته الفارعة ولباسه الطائفيّ المميز الذي يوحي لمن يراه بأنّه قادم إلى أرضنا من قرون خلت- بمثابة ظلٍ لوزير الخارجية السورية... وقد قطع خط الرجعة مع منظمة التحرير الفلسطينية، وقَلَبَ لها ظهر المِجَنّ، وتَنَكّر لكل ما قدَّمه له ياسر عرفات وإخوانه من خدماتٍ ومساعدات... وقابل الفلسطينيون وأنصارُهم مظاهرةَ شيعة أمل -التي قامت ضدَّهم وطالبت برحيلهم- بمظاهراتٍ عمّت لبنان ندَّدوا فيها بالصدر وبقوات الغزو الباطني السوري[٤].

> **تمدَّد نذير الشيخ محمد سرور بقدر تمدُّد الطموح الإيرانيّ، فها هو يكشف عن الجذور الأولى للوجود الإيرانيّ في لبنان قبل بزوغ ذلك الكيان المسمى كذبًا (حزب الله)، فيذهب إلى «حركة أمل»، تلك البطن الآثمة التي حملت «حزب الله» فولدت لنا فتنةً لم يكن من السهل السيطرة على نارها المتأجِّجة**

الفاجعة الكبرى:

أمّا الفاجعة الكبرى التي حلّت بالأمة على حين غفلةٍ من أهل الحلّ والعقد فيها فهي ذلك التعاون الخبيث الممقوت بين الغزو الأمريكي للعراق وبين المشروع الشيعي الصفوي، ذلك التعاون الذي مهد لتسليم العراق للشيعة ومشروعهم الذي لا ينبتّ عن إيران التي تسلمت من أمريكا (الشيطان الأكبر!) المنطقة برمّتها؛ من أجل إنهاء الحلم السنّي الذي تنتظره الأمة الإسلامية وتبشّر به منذ أن وقعت تحت الاحتلال والهيمنة الغربية، يقول الشيخ في كتابه «أأيقاظٌ قومي أم نيام»: «لا شك أنّ الاستبداد سبب من أسباب سقوط بغداد، ولكنّ السبب الأهم هو خيانة أحفاد العلقميّ وتحالفهم مع الأمريكان... فاجتماعات المعارضة كان يحضرها مسؤولون من الأمريكان والبريطانيين والإيرانيين، وكان يشارك فيها من الجانب العراقي الشيعي: حزب الدعوة، والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية، ومؤسسة الخوئي، ومراجع الشيعة كبحر العلوم وغيره... بل إنّ مسؤول المجلس الأعلى

(١) الطبعة الأولى من الكتاب صدرت عام ١٩٨١م، لكن الشيخ ذكر لطلابه أنه بدأ تأليف الكتاب عام ١٩٦٤م، مع أن الثورة الإيرانية قامت في ١٩٧٩م.

(٢) ينظر: وجاء دور المجوس، للشيخ محمد سرور بن نايف زين العابدين، ص (٢٢٧-٢٤٥).

(٣) كتب الشيخ بقلمه مقالة في مجلة المجتمع الكويتية بعنوان: «لا أهلاً ولا مرحبًا بك يا إمام المتآمرين» وذلك على خلفية زيارة موسى الصدر للكويت عام ١٩٧٦م، والتي استقبله فيها شخصيات كويتية رفيعة، وذلك في العدد ٣١٩ لعام ١٩٧٦م ص (١٠)، كما أخبر بعض طلابه بذلك.

(٤) الشيعة في لبنان «حركة أمل أنموذجًا»، للشيخ محمد سرور بن نايف زين العابدين، ص (١٧١-١٧٤) بتصرُّف بسيط، وللشيخ كتاب آخر هو الجزء الثاني من سلسلة «رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي» وعنوانه: «دور الشعوبيين الباطنيين في محنة لبنان» يتكلم فيه بوضوح عن دور شيعة لبنان ممثلة بحركة أمل في ذلك الوقت، وأن هدفها لا يختلف عن هدف موارنة لبنان وهو: إخراج الفلسطينيين من جنوب لبنان ومن بيروت.

للثورة الإسلامية محمد باقر الصدر قال في تصريح مذاع: «لقد أفتى لي مرشد الثورة الإسلامية الإيرانية علي خامنئي بالعمل مع المعارضة والتعاون مع الأمريكان من أجل سقوط نظام صدام حسين في العراق»، وواصل الشيخ كشفه للحقائق: «قادة إيران من جهتهم قالوا على لسان رئيس الجمهورية في ذلك الوقت (خاتمي)، وعلى لسان رئيس الجمهورية الأسبق (رفسنجاني) قالوا: لولا دعمنا ومساعدتنا ما سقطت حكومة طالبان في أفغانستان ولا حكومة البعث في العراق»[١].

الأذرع المعطوبة والجسد الموبوء:

لا تتعجَّب إذا وجدت التناقض بين القول والفعل، وبين التنظير والمواقف، وبين ما تحمله الكتب وما تبديه الأحداث، ولا تتعجَّب إذا وجدت هذا التناقض الفجّ تحت العباءة الشيعية الفضفاضة؛ لأنّ الكذب والانتحال هو المنطلق، ولأنّ التقية هي رأس المعتقد، لقد انطلقت جميع حركات التشيُّع -على اختلاف مراتبها في التشيع والرفض- من منهجية امتطاء العاطفة وركوب ظهر المشاعر الوجدانية السائلة؛ بغرض الوصول إلى أهدافٍ مدخولةٍ تعود كلّها إلى هدفٍ واحدٍ جامعٍ هو استعادةُ جاهلية المجوس في ثوب الإسلام، وانتهجت جميعُها نهجًا واحدًا هو الكذب في أحطِّ دركاته، وهو ما يسمونه التقية؛ وإذن فلا مناص من توحُّد المشروع، ولا عِبرة بعد ذلك بما يُشاع ويُذاع من براءة الإمامية من النُّصيرية وأشباهها، وما نراه اليوم من توحيدٍ للجهود الباطنية في العراق وسوريا ولبنان واليمن تحت المشروع الإيرانيّ طبيعيٌّ للغاية.

ففكرة التحالف بين الجسد الموبوء والأذرع المعطوبة فكرةٌ طبيعيةٌ إلى أبعد مدى؛ فما أسرع سَرَيان المرض في الجسد الواحد، ومن هنا انطلق الشيخ في كشف الزيف الذي كانت تسُوقه الأبواق الشيعية المترعة كذبًا، عن العلاقة المنبتّة بين الإمامية (المعتدلة!) وبين زنادقة التشيع كالنصيريين، ففي كتابه «أأيقاظ قومي أم نيام» تحدَّث عن واقعةٍ خطيرةٍ مرّت على الأنام مُرور الكرام، وهي أنّ الأسد وموسى الصدر زعيم حركة أمل الشيعية نظَّما حوارًا انتهى باعتبار النصيرية من الإمامية الاثني عشرية![٢]، وفي كتابه «الشيعة في لبنان .. حركة أمل نموذجًا» أشار إلى أنّ التحالف النصيري الشيعي توثق دينيًّا عبر وثيقة وقع عليها شيوخ النصيرية مع شيخين من الشيعة، وشبه التحالف الشيعي النصيري بالتحالف الأمريكي الإسرائيلي[٣].

ولا يكتفي الشيخ باستقراء الظواهر الموثَّقة لاستخلاص النتائج الصادقة؛ حتى يدعم ما انتهى إليه من النتائج بتدليلٍ من نوعٍ آخر، يدغم في الاستقراء تحليلاً وربطًا واستنتاجًا، فيقول مثلاً في كتابه الأهم «وجاء دور المجوس»: «هل من المصادفات أن يرجع العبيديون والقرامطة والبويهيون إلى أصول فارسية؟ هل من المصادفات أن تتشابه عقائدُهم؟ وأن تكون هي نفسها عقائد مزدك وماني وزرادشت؟ وهل من المصادفات أن يظهروا في أزمنة متقاربة؟ ... وهل من المصادفات أيضًا أن يتقاسموا العالم الإسلاميّ ... وهل من المصادفات أن يلج هؤلاء جميعًا من باب التشيع؟ وهل من المصادفات أن يكون السنة العدوَّ اللدودَ لهؤلاء الضالين، وأن يتعاونوا مع كل عدوٍ للإسلام والمسلمين؟»[٤].

وفي نفس الكتاب في موضع آخر بلغ بالاستدلال غايتَه حيث قام بعملية استقراءٍ واسعةٍ استنبط من خلالها ثمانية أصول تتضح من خلالها مواقف الشيعة وعلاقاتهم بالأذرع الباطنية، أولها: أنّ إيران هي مركز الشيعة وجميع الفرق الباطنية المستظلة بعباءة التشيع، ثانيها: الولاء من الشيعة والباطنية كافةً إنّما هو للقيادة السياسية في إيران والدينية في قم، ولا يهم من تكون هذه القيادة، ثالثها: أنّ معظم الفرق الباطنية المتفرعة عن الشيعة لها جذور فارسية، رابعها: الخلافات بين المركز السياسي والمركز الديني لا تؤثر في المشروع الإيراني وأطماعه في المنطقة السنية، خامسها: أنّ الشيعة وجميع فرقها الباطنية تتَّسِم بكذب التصريحات وتقلُّبها من النقيض للنقيض؛ بسبب عقيدة التقية، سادسها: ينظرون جميعًا إلى العرب نظرة حقدٍ وانتقام؛ بسب الفتوح الإسلامية التي هدمت حضارتهم المجوسية، لذلك فهم لا يتورَّعون من موالاة أعداء الأمة ضدَّ السنة كالتتار سابقًا والأمريكان والصهاينة حاليًا، سابعها: أنّ الباطنية

(١) ينظر: أأيقاظ قومي أم نيام؟، ص (٤٧-٤٨).
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص (٤٥).
(٣) ينظر: الشيعة في لبنان «حركة أمل أنموذجًا»، ص (٩-١٠).
(٤) وجاء دور المجوس، ص (٨٢-٨٣).

لها جذورٌ اشتراكية قديمة يعتمدون عليها في استمالة العامة لينفذوا إلى نشر الفوضى، ثامنها: ليس في أصولهم ما يردعهم عن ارتكاب الفظائع[1].

انطلقت جميع حركات التشيُّع من منهجية امتطاء العاطفة؛ بغرض الوصول إلى هدفٍ واحدٍ جامعٍ هو استعادةُ جاهلية المجوس في ثوبٍ الإسلام، وانتهجت جميعُها الكذب في ما يسمونه التقية؛ وإذن فلا عِبرة بعد ذلك بما يُشاع ويُذاع من براءة الإمامية من النُّصيرية وأشباهها، وما رأيناه من توحيدٍ للجهود الباطنية في العراق وسوريا ولبنان واليمن تحت المشروع الإيرانيّ طبيعيٌّ للغاية

أكذوبة الثورة الإسلامية:

أمّا أنّها كانت ثورة فنعم، وأمّا أنّها كانت إسلامية فكلّا وألف كلّا، لقد كانت الثورة الخمينية ثورة ناجحة بكلّ المقاييس، وهذا بالنظر إلى تحقيق أهدافها في ذاتها، بغضّ النظر عن بعد هذه الأهداف عن حقيقة الإسلام، كانت ثورة استطاعت أن تستثمر الحالة الشعبية في إحداث زخم شعبيّ كبير يعطي للحراك التغييري الكبير شرعية واسعة، ونجحت في الأخذ بكلّ الآليات والأدوات والوسائل المتاحة لإحداث التغيير الثوريّ، لكنّها لم تكن إسلامية إلا في المظهر الذي بدا للناس وأدّى دوره في حمل الجماهير إلى الميادين وشحذ حناجرها وخناجرها، لم تكن إسلامية ولم يكن لها بالإسلام علاقة من قريب أو بعيد، وما ترتب عليها من تغييرات في نظم الحياة على المذهب الشيعيّ لا يدلّ على أنّها إسلامية، وإن دلّ على أنّها صبغت على نحو ما بالشيعية المزوجة بقدر غير قليل من الصفويةً المنحرفة، لم تكن إسلامية لأنّ منطلقاتها وأهدافها التي توارت خلف الشعارات جميعها كانت ضدّ مصلحة الإسلام، وجاءت في غير مصلحة أهل السنة وهم السواد الأعظم من أهل الإسلام، فهي ليست إسلامية ولو تعلق أربابها بأهداب الإسلام.

لم يجد الشيخ صعوبة في أن يثبت للناس زيف هذه الثورة الخمينية وزيف أهدافها، يبدأ الشيخ بهذه المقابلة بين الشعارات الزائفة والواقع المقرف، المقابلة التي أُدغِمَ فيه البرهان بقدر غير يسير من الاحتراف، فيتحدث عن التباين الشديد بين الشعارات والواقع بشأن أمريكا، فبينما ترتفع شعارات: «الموت لأمريكا» و«أمريكا رأس الشيطان»، إذْ بأمريكا تسارع إلى الاعتراف بالحكومة الجديدة بعد الثورة الخمينية، وإذْ بالجمهورية (الإسلامية!) الجديدة تقر السفارة الأمريكية على حالها، وتقر تدفق البترول إلى أمريكا على حاله، وتبقي الخبراء الأمريكان في مواقعهم ليبلغ عدد الخبراء الأمريكان الذين لم يغادروا سبعة آلاف[2].

وطفق الشيخ بعدها يؤكد الحقيقة -التي دلل عليها من قبل- ومضى في ذلك على ثلاثة محاور، معتمدًا على مصادر معتمدة ومتنوعة، المحور الأول: المذكرات، والثاني: الوثائق، والثالث: الصحف التي كانت تصدر آنذاك، ولم يكتف بذلك وإنّما أثبت تعاضد هذه المحاور وتأكيد بعضها لبعض، فقد تعرض لمذكرات الشاه -نقلاً عن مجلة (ناو Now) البريطانية- معتبرًا إيَّاها وثيقة شاهدة على تعاون أمريكا وبريطانيا والغرب مع الخميني، فنقل عن الشاه في مذكراته حديثه عن الدور الذي قام به الجنرال (هويزر) نائب قائد القوات الأمريكية في أوروبا، حيث أتى إلى إيران ودخل والتقى ببعض الشخصيات دون إخبار الشاه ولا أحد من جنرالاته، وحاول إقناع رئيس الأركان الجنرال (قره باغي) أن يلتقي بِـ (مهدي بازركان) وهو الشخص الذي ولاه الخميني بعد ذلك رئاسة أول وزارة بعد نجاح الثورة، وبقي هذا الجنرال في إيران بضعة أيام بعد رحيل الشاه، وقد قال السيناتور محمد علي مسعودي للشاه إنّ (جورج لامبراسكين) السكرتير الأول في السفارة الأمريكية في طهران قال له: «سيقوم نظام جديد في طهران قريبًا»[3]، ومن الصعب تكذيب المذكرات واعتبارها ردة فعل من الشاه المهزوم؛ لأنّه ذكر أسماء وجهات لا يمكن أن تفوت الادعاء.

(١) ينظر: وجاء دور المجوس، ص (١٦٢-١٦٩).
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص (١٧٠).
(٣) ينظر: المرجع السابق، ص (١٧٦-١٧٩).

وفي الاتجاه ذاته ذكر ما يعضد ما جاء في مذكرات الشاه، حيث تحدث عن شهادات الجبهة الوطنية (سنجابي) وعن مجاهدي (خلق) الذين كانوا شركاء للخميني وأنصاره في المعارضة للشاه، ولكنّهم اختلفوا معه بعد اقتناعهم أنّ ثورة الخميني مصنوعة أمريكيًا وغربيًّا، وقد أجرت الصحفية هدى الحسيني حوارًا مع أعضاء كثيرين منهم، وخلاصة أو محصلة هذا الحوار أنّ أمريكا كانت راغبة في تغيير الشاه لأسباب عديدة، منها اختلافه كثيرًا مع الحزب الديمقراطي بزعامة كارتر آنذاك، ومنها ضرورة إيجاد اتجاه جديد في الحكم يكون قادرًا على مواجهة المد اليساري الذي اندفع من الاتحاد السوفيتي مجتاحًا تلك المنطقة بما فيها إيران، فلم تجد أمريكا أفضل من هذا البديل على كره منها للجميع، وقد تم التمهيد لذلك بإقناع الجيش أن يقف على الحياد[١]، نقل ذلك عن صحيفة الحوادث عدد (١١٧١) بتاريخ: ١٣/٤/١٩٧٩م.

ولم يكتف بهذين المصدرين المتعاضدين حتى نقل عن صحيفة الوطن الكويتية في عددها الصادر ١٨/٣/١٩٧٩م أنّ تقريرًا سريًّا تلقته المجلة عن سفير لدولة غربية في بيروت يؤكد أنّ الذي منع الجيش من الإطاحة بالخميني وسحقه ليلة ١١ من شباط ١٩٧٩م هو أمريكا، فقد اتصلت الإدارة الأمريكية بسفيرها في طهران، وطلبت منه سرعة التوجه إلى الجنرالات وإقناعهم بعدم التدخل، وقد فعلوا، وأصدروا بيانهم بالوقوف على الحياد[٢]، فهذه ثلاثة مصادر يصعب تواطؤها على اختلاق شيء كهذا.

وبعد ذكر المصادر المتعاضدة لم يكتف بهذا حتى قام بتحليل الوثائق الثلاث التي عرضها: وثيقة الشاه ووثيقة أصدقاء الخميني وصحيفة الوطن، فنبَّه إلى الآتي: ثبت أنّ وجود الجنرال هويزر في إيران ونشاطه فيها طوال مدة الثورة وبعدها ذكر في مذكرات الشاه كما ذكر في اعترافات شركاء الخميني وورد كذلك في الصحف العالمية، كما أجمعت الوثائق الثلاث السابقة على مسألة وقوف هويزر وراء تحييد الجيش، ومسألة إعلان أنّ الشاه سيرحل خلال أيام ذكرها الشاه في مذكراته وتناولتها كذلك الصحف العالمية؛ فليس من قبيل المصادفة أن تجمع كل هذه المصادر على ظواهر قاطعة في دلالتها على وقوف أمريكا وراء انقلاب الخميني على الحكم[٣]، وهذه طريقة في التدليل غاية في الدقة والتحرّي.

لم تكن الثورة الخمينية ثورة إسلامية إلا في المظهر الذي بدا للناس، ولم يكن لها بالإسلام علاقة من قريب أو بعيد، لأنّ منطلقاتها وأهدافها التي توارت خلف الشعارات جميعها كانت ضدّ مصلحة الإسلام، وجاءت في غير مصلحة أهل السنة وهم السواد الأعظم من أهل الإسلام، فهي ليست إسلامية ولو تعلق أربابها بأهداب الإسلام

الانحراف الكبير والأكذوبة الكبرى:

لا يصحُّ اليوم أن يظلّ المسلمون في غفلةٍ عن التطورات التي وقعت في المذهب الشيعيّ، سواء منها ما وقع على يد البويهيين وما وقع على أيدي الصفويين، هذه التطوُّرات حملت انحرافاتٍ هائلة لو أنها وقعت في السابق لما قال العلماء ما قالوه من عدم تكفير الشيعة الإمامية الاثني عشرية، ولقد جاء حجم الانحرافات بالشكل الذي يجعل الحُكم العام بأنّهم من أهل القبلة يواجه إشكالاتٍ ضخمة، ويجعل للقول بعدم شرعية اتخاذ هذا المذهب طريقًا للتعبد لله في الإسلام وجاهة وقبولاً، وقد اهتم الشيخ بهذا التطور اهتمامًا بالغًا، فها هو في يتحدث عن إحداث البويهيين بدعة اللطمية على الحسين في العاشر من المحرم سنة ٣٥٢ هـ ببغداد[٤]، وفي مكان آخر بعد أن تحدث عن التطورات التي أدخلها الصفوية على المذهب الشيعي كلعن الصحابة والحسينيات وغير ذلك قال: «الشيعي مبتوت الصلة بتاريخنا العربيّ بعد النبوة؛ لأنه تعلَّم من مراجعه لعن أصحاب رسول الله ﷺ، وتعلَّم لعن التابعين وتابعي التابعين وقادة الفتوحات الإسلامية، وتعلَّم من مراجعه

(١) ينظر: وجاء دور المجوس، ص (١٧٩-١٨٢).
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص (١٨٣-١٨٤).
(٣) ينظر: المرجع السابق، ص (١٨٧) وما بعدها.
(٤) ينظر: المرجع السابق، ص (٧٩).

أيضًا الإشادة بالطوسي وابن العلقميّ ومحمد بن كمونه وعلي بن يقطين وإسماعيل شاه الصفويّ والخميني وخامنئي»[١]، فكيف يكون هؤلاء من أهل القبلة وهم على هذه الحال؟!

أمّا أخطر انحراف لهم فقد تحدث الشيخ عنه على أنّه أخطر مبدأ عقدي تخالف فيه الرافضةُ أهلَ السنة: وهو اعتقادهم أنّ القرآن زيد عليه ونقص منه، وأن لديهم مصحف فاطمة، وأحال على الكافي للكليني الذي نقل عن جعفر الصادق خبر مصحف فاطمة، وعلى «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب» لميرزا حسين الطبرسي الذي جمع فيه مئات النصوص عن علماء الشيعة في كل الطبقات، ثم طفق يدلل على أنّ شيعة اليوم لا يفترقون في ذلك عن شيعة الأمس، ونقل عن أحد المعاصرين ميرزا حسن الحائري من كتاب له بعنوان «الدين بين السائل والمجيب» قال فيه كلامًا سيئًا[٢]، ولم ينس الشيخ أن يحاصرهم حتى لا يفروا من الحقيقة المؤلمة من باب التقية؛ فها هو يقول: «وأمّا قول بعض علماء الشيعة اليوم بأنّ القرآن خال من الزيادة والنقصان فهو تقية، ودليلنا على ذلك أنهم مجمعون على خيانة الصحابة وبخاصة أبو بكر وعمر وعثمان ﷺ ... والسؤال الذي يفرض نفسه هنا: كيف نعتقد بصحة القرآن والذين قاموا بجمعه خونة؟ كما يزعمون!»[٣].

وإذا كانت الانحرافات العقدية التي وقعت في مذهب الإمامية فجعلته أشبه ما يكون بفرقة من الفرق الباطنية التي كانت الشيعة الأوائل تكفرها[٤]، وإذا كانت هذه الانحرافات الخطيرة تجعل من مذهب التشيع أكذوبة عقدية؛ فإنّ الخميني ودولته أكبر أكذوبة في واقع الأمة الإسلامية، وقد تحدث الشيخ عن صناعة الصحف العالمية لرمزية الخميني، حيث تناولت الحديث على أنّ الخميني هو قائد الثورة وأنه شخصٌ يتميَّز بالزهد والتقوى والورع، وأنه يريد تطبيق الحكم الإسلامي، واعتبروه امتدادًا لحركة الإخوان المسلمين في مصر والجماعة الإسلامية في باكستان، وقرنوا اسمه بالمودودي والبنا وسيد قطب، ووصفوا ثورته بالاعتدال بينما وصفوا الحركات الأخرى بالعنف والتطرُّف والإرهاب[٥].

والانطلاق من الموقف العقدي إلى جانب الموقف السياسي هو أهم ما يميز موقف الشيخ رحمه الله، بينما أُتي كثيرون من إغفال هذا الجانب.

أخيرًا:

نحن أمام نموذج من الوعي فريد، يدعونا هذا النموذج إلى اليَقَظَةَ الفِكرية، وإلى الاستنفار إلى حماية جناب الشريعة، وليس من منطلق إرضاء الأنظمة المجرمة التي تهوى القدح في إيران وأذرعها لكونها تهدد عُروشها، والتي خذلت الإسلام في فلسطين وطبَّعت مع العدو الصهيونيّ ففتحت بذلك الباب على مصراعيه لإيران وأذرعها للمتاجرة بالقضية ولغسل الجرائم التي ارتكبوها في حقّ المسلمين في العراق والشام واليمن، وإنّما من منطلق النصح للأمة الإسلامية، كما فعل الشيخ محمد سرور زين العابدين رحمه الله رحمة واسعة.

الخميني ودولته أكبر أكذوبة في واقع الأمة الإسلامية، ورمزيته مرت عبر صناعة الصحف العالمية، حيث تناولت الخميني على أنه شخصٌ يتميَّز بالزهد والتقوى والورع، وأنه يريد تطبيق الحكم الإسلامي، واعتبروه امتدادًا لحركة الإخوان المسلمين في مصر والجماعة الإسلامية في باكستان، ووصفوا ثورته بالاعتدال بينما وصفوا الحركات الأخرى بالعنف والتطرُّف والإرهاب

(١) ينظر: الشيعة في لبنان «حركة أمل أنموذجًا»، ص (٦٧).
(٢) وجاء دور المجوس، ص (١١٣-١١٥).
(٣) المرجع السابق، ص (١١٥).
(٤) للشيخ كتاب بعنوان: «مساجد الضرار.. كيف نحصن الصف الإسلامي من المنافقين؟» حذر فيه من اختراق المنافقين للعمل الإسلامي، وقال في مقدمته: «أما الباطنية وهي أخطر أنواع النفاق، فقد تحدثت عنها في مقالات وكتب أخرى، ولم أجد هاهنا جديدًا أضيفه»، ومعلوم ما حصل من اختراقات في عدة جماعات إسلامية من قِبل الرافضة.
(٥) وجاء دور المجوس، ص (١٠٧-١٠٨).

قراءة في كتاب: «عمارة الأرض في الإسلام» لجميل أكبر

أ. إسلام عفيفي (*)

ساد المسلمون العالم، وعمروه بمختلف أنواع العمارة، وأقاموا حضارة عظيمة ما يزال العالم يعي آثارها إلى اليوم؛ ثم دار الزمان للحضارة الغربية، التي قيدت الإنسان في (دولة الحداثة) وما بعدها، وسلبته كثيرًا من حقوقه، وهذا المقال يعرض سعي المؤلف إلى عرض رؤية منهجية لتحليل البيئة العمرانية في العصور الإسلامية وتأثيراتها من منظور تاريخي وشرعي.

التعريف بالكتاب:

يقع الكتاب في (٥١٩) صفحة من القطع الكبير، في كلّ صفحة عمودان، وقد أكثر فيه من الصور ليُظهر العلاقة بين الإنسان والبيئة التقليدية من خلال القيم الإسلامية، وليوضّح التباين بين البيئة التقليدية والحداثة.

صدر الكتاب عن مؤسسة الناشر الذهبي للنشر والتوزيع.

التعريف بالمؤلف:

د. جميل عبد القادر أكبر، ولد في الطائف (١٩٥٤م)، حصل على البكالوريوس من جامعة الملك سعود بالرياض (١٩٧٧) وعلى درجتي الماجستير والدكتوراه (١٩٨٤م) من معهد ماساتشوستس للتقنية MIT ودرّس بها، ويعمل الآن أستاذًا بجامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية في إسطنبول.

حاز على جائزة الملك فهد لأبحاث العمارة في العالم الإسلامي والتي أعطيت لمرة واحدة (١٩٨٧)، وكذلك الجائزة الأولى لمنظمة العواصم والمدن الإسلامية لعام (٢٠٠٧)، من كتبه غير كتابه هذا: (قصّ الحق)، و(أزمة البيئة المبنية: حالة المدينة الإسلامية) باللغة الإنجليزية[١].

(*) باحث في التراث والمخطوطات، ومهتم بعلوم القرآن والتفسير.

(١) تعريف موسع له على موقعه: (https://jamelakbar.gitlab.io)

هدف الكتاب:

يقدم المؤلف إطارًا فكريًا يدمج فيه بين منهج الشريعة الإسلامية وفهم العمران الحديث؛ يسعى فيه إلى عرض رؤية منهجية لتحليل البيئة العمرانية في العصور الإسلامية وتأثيراتها من منظور تاريخي وشرعي، وهو في ذلك يُقدم نقدًا عميقًا للحداثة، مسلطًا الضوء على إفساد المركزية العلاقةَ بين الإنسان والبيئة، ويُعيد الكاتب تقديم عمارة المجتمعات المسلمة بوصفها نظامًا مستدامًا مبنيًا على القيم الشرعية التي تُحقق العدالة الاجتماعية وتوازن الحقوق، ويُشدد على استعادة الهوية العمرانية الإسلامية التي تنبثق من سيادة الأمة الإسلامية وشريعتها، وحاجتها؛ فالشريعة الإسلامية هي حجر الزاوية في إدارة العمران وتجنب الأزمات البيئية والاجتماعية.

> **يُعيد الكاتب تقديم عمارة المجتمعات المسلمة بوصفها نظامًا مستدامًا مبنيًا على القيم الشرعية التي تُحقق العدالة الاجتماعية وتوازن الحقوق، ويُشدد على استعادة الهوية العمرانية الإسلامية التي تنبثق من سيادة الأمة الإسلامية وشريعتها، وحاجتها؛ فالشريعة الإسلامية هي حجر الزاوية في إدارة العمران وتجنب الأزمات البيئية والاجتماعية**

دوافع الكتابة:

- يعالج الكتاب أزمة البيئة العمرانية الإسلامية عبر نقد الفكر الحداثي واستعراض منهجية الشريعة في التعامل مع العمران.
- ينتقد الكتاب الفلسفات الغربية والحداثة التي يرى أنها أدت إلى سيطرة الأنظمة، وفقدان المجتمعات المسلمة حقوقها وروحها وصدورها عن شريعتها.
- يعرض الكتاب الأثر السلبي للحداثة في تقويض النظام العمراني الإسلامي الذي كان يعتمد على الشريعة.
- يُبرز أن المجتمع الإسلامي التقليدي كان أكثر استدامة لأن أفراده كانوا مشاركين بشكل مباشر في تنظيم بيئتهم.

العلاقة بين الشريعة والعمران:

- الشريعة تُرسي قواعد عمرانية تجمع بين حقوق الأفراد وواجباتهم والمصلحة العامة.
- يعرض الكتاب أمثلة من التاريخ الإسلامي لتوضيح كيفية تنظيم الموارد المشتركة (مثل الماء والأراضي) بما يخدم المجتمع.
- يبرز دور الشريعة في تحقيق التوازن بين الحقوق الفردية والمصلحة العامة، مع تقديم أمثلة تاريخية.
- استعادة هذا النظام تتطلب العودة إلى تطبيق الشريعة بطريقة تجمع بين القيم الأخلاقية وقابلية التطبيق، مثل التلوث والهدر العمراني.
- بإمكان الشريعة الإسلامية تقديم حلول مستدامة للمشكلات العمرانية الحديثة.

أمثلة عملية وتاريخية:

- يقدم المؤلف أمثلة على تطبيقات ناجحة للشريعة الإسلامية في إدارة الموارد العمرانية، مثل حقوق مسيل الماء وتنظيم استخدام الفناء.
- يعرض كيف أن تدخل السلطات الحديثة أدى إلى إضعاف هذه الحقوق وبالتالي تراجع الكفاءة العمرانية.

عرض الكتاب

يحتوي الكتاب[1] على تسعة فصول.

انطلق المصنف في حديثه عن مضمون كتابه من واقع الناس اليوم من وَهَن وتفكك وضعف إلى مواطن عزة الأمة وسيادتها.

حيث يرى أن مفاهيم (الدولة الحديثة) تحجب بمفاهيمها ومكوناتها الصلبة الأمةَ الإسلامية من إنفاذ سيادتها في حقوقها التي وسَّعت الشريعة الإسلامية لهم فيها بتنميط تشكل عمران المسلمين وقولبته في قالب قد لا يناسبهم أو لا يلبي احتياجاتهم على الوجه الذي يريدون.

(١) ممن راجعه وعرضه: علاء عبد الحميد: (https://www.youtube.com/watch?v=oxCCIjt5D2w)، وقد قام المؤلف بالرد عليه: (https://www.youtube.com/watch?v=ZJhKXvZFRfA)، وراجعه عبده السمين على موقع (https://www.goodreads.com/book/show/7662451)، كذلك لصادق السلامي عرض للكتاب. وذكر د. أحمد وجيه أن «هذا الكتاب يفتح في العقل أبوابًا ومدارك لمن تدبّر وفتح الله عليه».

ويرى أن الحداثة هي سبب الانهيار البيئي، ثم يذهب بالقارئ إلى تاريخ الحداثة وسبب نشوئها، ومساهمات الفلاسفة؛ أمثال: (كانط، وفولتير وروسو)، ثم يخلص إلى أن التنوير كان هو الرغبة في التقدم من خلال حكم الشعوب أنفسها، إلى أن بدأت أمرض الحداثة في التفشي بظهور المؤسسات السلطوية التي تسير المجتمعات من خلال انتشار الفقر وما إلى ذلك من إفرازات الرأسمالية.

ثم ظهر منتقدو الحداثة مثل فوكو الذي يعتقد أن الحداثة نظام مدجج بالسيطرة؛ فهو نظام يخضع الناس لإرادته لأن كل فرد قد يخضع لمراقبته، وصور الحداثة على أنها مؤسسات تسيير المجتمعات من خلال السلطة؛ فالأنوار التي أدت إلى الحريات أفرزت الأغلال في مجتمع الحداثة من خلال المدرسة والعمل والثكنات.

ثم يحاول المصنف أن يدخل القارئ إلى عمق غرض كتابه بأنه: «طرح فكري عن عمارة الأرض في الإسلام؛ ليس مرجعًا تاريخيًا في العمارة أو كتابًا فقهيًا عن الشريعة في العمران، ودراسة تحليلية للقوانين الوضعية»؛ فهو اتخذ من الشريعة منظارًا للعمران.

وذكر أن المتشرعين المعاصرين لم يُوفوا الموضوع حقه، مبينًا أن دراساتهم لا تتفق مع آراء جمهور العلماء (كمسألة إحياء الموات) التي يذهب فيها جمهور الفقهاء إلى جواز إحياء الأرض دون إذن الإمام، لكن ذهب المعاصرون إلى إذن الإمام بناء على قول فريق من أهل العلم، مشيرًا إلى إجازة مجمع الفقه نزع الملكية الفردية للمصلحة العامة، في مخالفة لرأي جمهور العلماء، والمؤلف -الذي سيناقش الإحياء ونزع الملكية بالتفصيل في فصول الكتاب القادمة- يرى أنّ المعاصرين وجدوا أنفسهم في «مأزق تأطير الفقه في الواقع الحداثي» فسايروا المتطلبات الراهنة بآراء لا تتفق مع قول الجمهور «بِلَيِّ أعناق النصوص، وإلا اتهم الإسلام بالتخلف».

وظهور الإشكالات المعاصرة كان باستخدام القوانين الوضعية؛ (القانون المصري مثلاً: اعتبر الأراضي غير المملوكة مثل الأراضي الموات جزءًا من أملاك الدولة، ووضع قيودًا لإحيائها، وهذا أدى إلى ارتفاع سعر الأراضي، ومما ساعد أيضًا على ارتفاع الأسعار زيادة الكثافة السكانية الناتجة عن السياسة المركزية للدولة التي ركزت أكثر الخدمات في المدن الرئيسية مثل الدوائر الحكومية والمعاهد والمصانع وهذه استقطبت السكان من الأرياف إلى تلك المدن وازداد الطلب على الأراضي، وكثرت التعديات، وبالتالي كثرت القوانين للسيطرة على إحياء الأرض، وهكذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. وهذا الارتفاع في أسعار الأراضي المصحوب بزيادة الكثافة السكانية أدى إلى زيادة الكثافة البنائية كعلو المباني، مما أحدث خللاً في التركيب العمراني للمدينة urban structure، نتج عنه مثلاً أن شبكات الصرف الصحي لم تعد تحتمل فضلات السكان!)

ومن الأسباب التي ساعدت على إلغاء نظام إحياء الأرض في الدول الإسلامية: الحملة القائلة بأن البيئة العمرانية الناتجة من الإحياء ستكون عشوائية لا محالة، لأن البيئة التقليدية[1] traditional environment في العالم الإسلامي كانت غير منظمة، حيث إن شوارعها غير صالحة لوسائل النقل الحديثة، وبها الكثير من الطرق الملتوية والضيقة ذات الساباطات والطرق غير النافذة، ومبانيها متلاصقة ومتماسكة دونما فراغات بينها!

وبهذا تلقت المدينة التقليدية تشوهًا من المفكرين والمخططين والمؤرخين.

«وبالجملة فقد كان الخراب عمَّ، والدمار طمَّ، وكثير من التلال داخل وسط الأماكن سوى ما في الخارج من التلال الشاهقة في الهواء، الممتدة إلى أمد بعيد؛ فإذا هبت الريح فهي القيامة! ولا ترى إلا غبارًا منبثًا على البيوت، متلفًا للصحة وللعيون...».

وتحدث عن أن القليل من المدن في العصور الأولى هي التي خُططت مثل بغداد والكوفة، لكن ليس كالمفهوم الحديث وفصَّل ذلك في الفصل الخامس.

ومع تركيز المعماريين عند دراسة تاريخ العمارة على المباني المركزية والتاريخية كقصر الحمراء بغرناطة، ومدرسة السلطان صالح نجم الدين بالقاهرة؛ وهي التي أُسست أصالة لتدل على

(١) البيئة التقليدية هي مجموع المباني والأماكن بينها التي شيدها المسلمون باتباع مبادئ الشريعة الإسلامية والأعراف المحلية واستخدام مواد البناء المتوفرة في تلك الفترة دون تدخل السلطة إلا في حالات الخلاف بين الملاك. وقد وضع المصنف في آخر الكتاب كشافًا بالمصطلحات، لكنه تعجل تعريفها لحاجته ليتضح المفهوم في سياق كلامه.

عظمة الحاكم فهي بطبيعة بنائها بنيت لتكون مباني فوق اعتيادية، أما الغالبية العظمى من البيئة العمرانية فتتكون من مباني عادية، والتي بدراستها تُستنبط أُسس العمارة والتخطيط الإسلامي؛ فمن الاستنباطات الخاطئة أن البيئة تنتظر من يصممها من المهندسين، أما البيئة التقليدية فلم تكن تعتمد على تخصص العمارة أو التخطيط.

منشأ خطط المدينة الغربية هو نتاج مفاهيمها ويعمل في إطار منظومتها الفكرية الرأسمالية، وعليه تنفيذ ذلك دون الاكتراث بتأثير ذلك على عموم المجتمع، بل سينفذ ما طلب منه من عمل حتى لو أنفقت أموال ليست في صالح مجتمعه ولا ما يعود عليهم بأفضل نفع، وهذا ما أثّر على المهندس العربي في بيئتنا.

أما البيئة العمرانية التقليدية فهي نتاج نهائي لعملية تفاعل بين ثوابت (كالشريعة والمناخ) وبين متغيرات كالإمكانات الاقتصادية والصناعية؛ فهنا يجب التركيز على النظم والمبادئ التي اتبعتها تلك الشعوب لإنتاج المباني: (مثل الشفعة، والوراثة، ولا ضرر ولا ضرار..).

ونحن في ذلك لا يمكننا فهم البيئة العمرانية دون الاستعانة بعامل الزمن وبدراسة تكون تلك الشعوب من ثقافات وأعراف أورثتهم ذلك النهج العمراني، وتغير هذه البيئة تغيرًا تدريجيًا حتميًا عبر الزمان.

ثم يبرز المصنف حال المدن المكتملة البناء بأنها: «دائمة الكآبة وبلا حياة في جميع أنحاء العالم» مع محاولة المصممين إدخال الحياة لها.

ثم يوضح أن الشريعة هي من صنعت المدينة الحية التي يشارك جميع السكان في اتخاذ قراراها مع مرور الزمن، وفي تخطيط المدينة.

ثم يلفت إلى قدر النفقات على المدينة المخطط لها، في مقابل حاجات الناس الحقيقية بمنظور الشرع.

> **الشريعة هي من صنعت المدينة الحية التي يشارك جميع السكان في اتخاذ قراراها مع مرور الزمن، وفي تخطيط المدينة**

الفصل الأول: (المسؤولية)

حركية البيئة تتأثر بمذاهب المجتمعات ideologies وما للفرد من حقوق وما عليه من واجبات، يركز المصنف على أن دراسة العوامل الاجتماعية والسياسية ونحوها لن يثري كثيرًا في فهم البيئة دون التركيز على حركيتها.

المسؤولية بوصفها إطارًا نظريًا

استنتج المصنف إطارًا نظريًا لنماذج المسؤولية لتوضيح العلاقة بين حالة العين والمسؤولية، وهو مكون من شقين:

- شق الحق: الحق هو التمتع بحق الملكية: وهو القدرة على نقل الملكية، وحق السيطرة: وهو القدرة على التصرف دون الاستخدام أو الملك (كناظر الوقف) وحق الاستخدام للعين.
- الشق الثاني من الإطار النظري: هو الفريق؛ لأن أي قرار في البيئة كبيع أو بناء لا بد أن يتخذه فرد أو مجموعة.

وأوضح المصنف ما سماه (النماذج الإذعانية) للعين.

وأن الهدف من استخدام هذه النماذج هو الوصول إلى حالة العين التي تتأثر بالعلاقات المشتركة فيه التي تنبثق من حركة البيئة، فهو في دراسته لذلك ينحي العوامل الأخرى كالمناخية والاقتصادية ونحوها، ودون التعمق في قيم الفرق في العلاقات من معتقدات وعادات.

ثم إن هذه النماذج ترتكز على غرائز الإنسان (نحو: محاولته التملك والسيطرة، وتحسين البيئة حسب إدراكه)؛ فهي أقرب للثبات والتوقع لوجودها في كل زمان ومكان، خلاف الحال في العوامل المتغيرة كالاقتصاد ونحوه.

ومن هذا المنطلق يمكن فهم المسؤولية باعتبارها عاملاً أساسيًا في فهم وتوقع حالات الأعيان، ومع اختلاف هذه الغرائز بين المجتمعات فكل نموذج إذعاني متميز في علاقة الفِرَق المشتركة فيه.

الفصل الثاني: توحيد المسؤولية:

يخلص إلى غرضه من هذا الفصل وهو عرض المبادئ التي ساعدت على انتشار الأعيان في الإذعاني المتحد في البيئة التقليدية.

ثم شرع في الحديث عن (الملكية)؛ فبدأ بالحديث عنها من منظور فقهي؛ وهو أن جمهور الفقهاء يرون أن الملكية تأتي من ثلاثة طرق:

١. الاستيلاء أو الإثبات؛ (إحياء الأرض..).

٢. النقل بعد ثبوت الملكية؛ (البيع..).

٣. الإبقاء؛ (الوراثة).

ثم خلص إلى أن الثاني والثالث يأتي بعد الأول.

ثم ركز حديثه عن (الملكية)، وأن آراء الفقهاء تؤدي إلى النموذج الإذعاني المتحد؛ ثم تحدث عن قاعدتين أساسيتين لإثبات الملكية: الحاجة، والسيطرة، وملكية العلو، وهل يملك ما تحتها، ثم استنتج القول: بأن الأراضي غير المملوكة (كالصحاري، والموات) ليست ملكًا لأحد، ولا الدولة.

ثم تحدث عن (إحياء الموات) بأن «الاستيلاء على الأراضي كان شائعًا في القرون الأولى للإسلام، حيث أنشئت المدن في المناطق المفتوحة أو التي أسلم أهلها..»، ثم ذكر تعريفها والحكم عليها، والخلاف فيه بين الفقهاء.

ثم دلف إلى أهمية موضوع الإحياء بالنسبة للكتاب، هو السيطرة على الأرض الموات واستخدامها أدت إلى ملكية الأرض للذي استخدمها وسيطر عليها؛ فكانت النموذج الإذعاني المتحد؛ ثم استشهد بأحاديث النبي ﷺ وأفعاله؛ كقوله: «العباد عباد الله، والبلاد بلاد الله، ومن أحيا أرضًا ميتة فهي له» وغيره.

ثم تعرض لبعض مبادئ الإحياء وخلص منها إلى أن الأعراف هي التي تحدد معنى الإحياء.

الفصل الثالث: ضياع المسؤولية

بدأ الفصل بتغير البيئة المعاصرة عن البيئة التقليدية بتغييرين أساسيين:

- الأول: شخصية المالك أو المسيطر رغم وجود صفتها في الماضي إلا أنها تحولت إلى جهة خارجية (كالبلدية بدلاً من المحتسب مع التجار في صفة (المسيطر)، والدولة في الإسكان الحكومي).
- الثاني: تغير مجموعة من العقارات والأعيان من نموذج إذعاني في البيئة التقليدية إلى نموذج إذعاني آخر في الواقع: (كالطرق النافذة وغير النافذة والساحات تبعًا لاجتماع فريق المالك والمسيطر والمستخدم في السكان فكان في الإذعاني المتحد، وانتقلت في الواقع إلى الإذعاني المشتت بعد أن امتلكتها الدولة وسيطرت عليها البلدية، وتحول السكان إلى المستخدم فقط).

وهما -وفقًا لنظر المؤلف- أحد الأسباب الرئيسية في بلوى المسلمين الآن؛ «فقد أحدثا تغييرًا في العلاقات بين الأفراد والمؤسسات والدولة، واختلفت موازين القوى في المجتمع؛ فأصبح ذو الحق ضعيفًا، والمنافق قويًّا، وضاعت الحقوق، وظهرت المحسوبيات، وأوكل الأمر لغير أهله، وتكدست الثروات لدى طبقات على حساب طبقات أخرى».

ويوضح المؤلف أهمية تتبع ودراسة هذين التأثيرين السابقين وتدخل السلطات تاريخيًا (قيام السلطة بتسيير أمور البيئة من خلال أنظمة كإصدار قانون بمنع التعلية في البنيان أو بهدم المباني لتوسيع شارع، أو تحديد منطقة تجارية بعينها دون غيرها) لتدارك الأخطاء التي أدت إلى انحطاط الأمة.

ثم تحدث عن أثر تنحية الشريعة في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي.

ثم تحدث عن قضية مركزية في هذا الصدد وهي أن أغلب الحكام والدول في خريطة العالم الإسلامي كانت تقيم دعاوى[1] أن الدولة التي سبقتها ابتعدت عن الشريعة وأنها ستعود إليها مهما اختلفت الدول (مصر: حكمها: الأمويون، العباسيون، الطولونيون، والعباسيون مرة أخرى، ثم الإخشيديون، ثم الفاطميون، ثم الأيوبيون، ثم المماليك، ثم العثمانيون)، ودرو العلماء ضمان تطبيق الشريعة الإسلامية في البيئة العمرانية؛ أي: تطبيق ما في الكتب على الواقع.

وكان القاضي قويًا في منصبه، حتى كان أقوى من الحاكم في بعض العصور.

ثم تحدث عن (الدولة العثمانية) وتأثر معظم الدول بها لأنها كانت تحت حكمها، وأثر (مجلة الأحكام العدلية) في ذلك، وما لها من سطوة، وما كانت عليه من المذهب الحنفي الذي يميل لتدخل

(١) بغض الطرف عن مدى تطبيقهم لها، لكن الحديث عن أصل الدعوى المقبولة مجتمعيًا وسياسيًا.

السلطة، وانقسام المجتمع العثماني إلى طبقتين: العساكر، والرعية، وتحدث عن تملك الأراضي فيها (الأراضي الأميرية)؛ فكانت أكثر أراضي الإمبراطورية من الإذعاني الحيازي وإرهاق العاملين، ثم أحلت الدولة العثمانية نظام (التلزيم): لحاجتها للمال، هم من يستوفون حصة الحكومة من إنتاج المزارعين، وتوكل الحكومة لأعلى سعر فزاد ذلك من إرهاق المزارع، فكان يبيع جزءًا منه خلسة فيقوم الخبراء بتقدير مرتفع جدًا ثم يضطر المزارع لبيع ما لديه لتغطية الضريبة، وقد يلجأ إلى بيع أرضه للنفقة على أهله.

> **اختلفت موازين القوى في المجتمع؛ فأصبح ذو الحق ضعيفًا، والمنافق قويًّا، وضاعت الحقوق، وظهرت المحسوبيات، وأوكل الأمر لغير أهله، وتكدست الثروات لدى طبقات على حساب طبقات أخرى**

الفصل الرابع: تواجد الأعيان

قَدَّم هذا الفصل ليكون مقدمة لما بقي من الكتاب، وتتمة للأول في تأثير النماذج الإذعانية على البيئة بالتركيز على الأعيان مجتمعة في البيئة لأن العين لا توجد منفردة، ثم تداخل النماذج الإذعانية لتداخل الأعيان في البيئة، ويأتي تغير الفريق: من ابتعاد الفريق وقربه من العين (سواد العراق: الطريق المشترك بين عدة منازل ملكه الساكنون، وإصدار الدولة قانونًا بامتلاكه)، ومن تغير حجم الفريق (وراثة منزل لعدة أفراد)، فهو يقدم هنا النموذج المستقل بوصفه حالة لا تستدعي تدخل السلطة لسعيهم لتطوير عمران وإيجاد الحلول.

الفصل الخامس: المدن

تحدث فيه عن حركية البيئة، وطرق اتخاذ القرار في نمو وتكون المدن في البيئة التقليدية؛ منطلقًا من (الإحياء) الذي ذكره قبل (الفسطاط مثلاً..)، والمنطلقات التي على أساسها أسس المدن، واختلاف ظروف المدن الإسلامية (بغداد عن غيرها).

وقارن بين مدن الماضي والحاضر.

- المدن الإسلامية التقليدية بُنيت على أسس الشريعة التي عززت التفاعل الاجتماعي والتنمية المستدامة.
- المدن الحديثة تفقد هويتها بسبب تركيز الموارد في يد السلطات وعدم تفعيل الأطر الشرعية.

الفصل السادس: الحرية والضرر

تحدث المؤلف في هذا الفصل عن حركية تهذيب الحدود الخارجية للأماكن والأعيان والسيطرة عليها، وما كان عليه المجتمع التقليدي، وسعة الشريعة في ذلك وما منحته من حقوق، ومدخلية أصول الفقه في فهم ذلك، وفهم قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» وهو حديث مروي عن النبي ﷺ، وما استنبطه الفقهاء من قواعد من هذا الحديث، وأن الضرر هذا في البيئة التقليدية أمر يمكن معرفته وتجاوزه والتعامل معه، خلاف ما عليه الواقع من قرارات في التخطيط وأثرها في الضرر، والفرق بين التعسف والتعدي في تضييق الحق، ثم تحدث عن القياس والاستحسان، ومن قَبِل الاستحسان ومن أنكره من العلماء، ومدى اعتبار مآلات الأفعال، ومفهوم التحايل على الضرر.

الفصل السابع: الأماكن

يتحدث فيه المؤلف عن أماكن البيئة التقليدية وشرح تكونها وتفاعل الناس الذي أنتجها في النموذج الإذعاني المتحد الذي جعل المسؤول هو من يحدد سعة الطريق وضيقه واستخدامه له، تحدث فيه عن الفناء واستخدامهم له وكيف كان مكونًا من مكونات البيئة التقليدية، وآراء الفقهاء فيه وفي حق الملك والسيطرة، ثم تحدث عن الطريق ولينة الطريق، وزحف المباني المجاورة إليها.

وتحدث عن حيازة الطريق وآراء الفقهاء فيه، وملكيته والسيطرة عليه، وعلى علوه، أما الطريق غير النافذ فهذا ليس للناس، بل لمن يسيطر عليه ويستخدمه، وهو في ذلك يعرض لصور ونماذج شتى من مدن بيئة تقليدية.

ثم وضح الوظيفة الحقيقية للمحتسب في مراقبة الأسواق والمكاييل، لا في السيطرة على الطريق باستثناء السوق.

» الأماكن البيئية التقليدية في المدن الإسلامية:

- هذه الأماكن تعكس فلسفة شاملة تُدمج بين العمارة والبيئة والاجتماع.
- تُظهر الصور المحلات التجارية المفتوحة والورش الصغيرة داخل البيوت، مما يدعم التوازن بين العمل والسكن.
- تُبرز الشريعة في هذا السياق أهمية توفير بيئة تحترم التنوع الوظيفي دون الإضرار بالمساكن.

» الأنظمة العمرانية المستمدة من الشريعة:

- تنظيم الأسواق، المساحات العامة، وأماكن العبادة وفقًا لمبادئ العدالة البيئية والاجتماعية.
- تعكس الصور تجانسًا بين ارتفاعات المباني واستخداماتها، مما يعزز الاستدامة.

» التغيرات الحديثة:

- يعرض المؤلف تأثير التمدن الحديث وتراجع القيم البيئية التقليدية، مما أدى إلى تدهور التوازن العمراني.

الفصل الثامن: حجم الفريق وحجم العين

يشرح المؤلف كيف لجأ المسلمون إلى الشريعة لحل النزاعات المتعلقة بالأعيان، مثل تغيير وظيفة منزل أو تعلية بناء.

يعرض المؤلف أهمية هذا الفصل في فهم تركيب المدن الإسلامية وحركية البيئة عبر الزمن.

يذكر أنه من أهم الفصول التي توضح كيف وضعت الشريعة المبادئ التي تؤدي إلى حرية الفرق، وألانت البيئة وجعلتها قابلة للصياغة لكي تبقى العقارات في الإذعاني المتحد عبر تاريخ الأمة، ثم يوضح أهمية الاهتمام بعلاقة حجم الفريق بحجم العين؛ ثم شرح بعض وسائل التمليك: (الصدقة: تمليك العين مجانًا، والهبة، القبول والقبض، هبة المشاع، الخيار، الشفعة..) ويوضح آراء الفقهاء فيها، ثم عرض لقضية (التغيرات الخطية: الخطوط الفاصلة بين الخطط عن مواضعها إلى مواضع أخرى)، وتدوينها؛ فهي توضح علاقة الملاك بعضهم ببعض، وصنيعهم لقراراتهم التي سُلبت منهم في الواقع، وكان الطريق يأخذ هذه الأشكال اللينة ليلائم حاجات الناس وتفاعلاتهم وهذه من أهم ميزات البيئة المستقرة.

الفصل التاسع: مضاعفات تحول المسؤولية

يقدم فيه المؤلف خلاصة كلامه في الكتاب؛ مبينًا أنه سلسلة من الانتقادات، وإيضاح التناقض بين البيئة التقليدية والمعاصرة؛ فسأل سؤالاً: (البيئة وسيلة أم غاية؟)، ثم نقد المفاهيم الحداثية من غائية البيئة.

أما المؤمنون فهم يعلمون أن البيئة وسيلة لبلوغ الآخرة، وسبيل في تحقيق الغاية من وجود الإنسان في الأرض وهي عبادة الله عز وجل؛ وذلك لا يحققه الإسراف في المال، وضياع ثروات الأرض وفقدان المجتمع موارده.

وقد ورثنا عن النبي ﷺ أحاديث تتعارض مع مفاهيم الإسراف في العمارة.

ثم عرض المؤلف واقع المسلمين وما هو حالهم في ذلك، وقوانين الدول العربية وتحول النماذج الإذعانية من المتحد إلى الحيازي ثم الترخيصي، وكيف أدى الواقع والرسوم وسيطرة البلديات وتدخلاتها وتدخلات السلطات في اختفاء البناء (الارتدادات)، والتراخيص إلى تحول فقدان معالم البيئة التقليدية وأساسها من أعراف ونحوها.

> **المؤمنون يعلمون أن البيئة وسيلة لبلوغ الآخرة، وسبيل في تحقيق الغاية من وجود الإنسان في الأرض وهي عبادة الله عز وجل؛ وذلك لا يحققه الإسراف في المال، وضياع ثروات الأرض وفقدان المجتمع موارده**

قراءة في كتاب: «إيران الصفوية.. كيف صار الإيرانيون شيعة صفويين؟»

د. أمين نعمان الصلاحي (*)

الأمة التي لا تقرأ تاريخها ستظل تكرر أخطاء الماضي، وتدفع ضريبة ذلك من حياتها واستقرارها وأمنها الوجودي. الكتاب الذي بين أيدينا صادم مؤلم، يحكي قصة (الصفوية) في إيران، ويستعرض صفحاتٍ من تاريخها الدموي، ويميط اللثام عن وحشيةٍ وهمجيةٍ قلَّ أن يوجد لها نظير في التاريخ، وهو جدير أن يقرأ لأنّ فيه من العبر قدر ما فيه من الفواجع، وفيه من الحقائق الصادمة قدر ما فيه من الوقائع المؤلمة.

كان قيام الدولة الصفوية في إيران حدثًا مهمًا في تاريخ إيران والمنطقة والعالم؛ فإضافةً إلى دَورها الحاسم في تغيير هوية الشعب الإيراني الدينية والثقافية، واختطاف إيران إلى مسار تاريخي معاكس ومصادم للأمة الإسلامية، شكّل قيامها طوق نجاةٍ لأوروبا التي أوشك العثمانيون أن يسيطروا عليها كلها؛ فكانت إيران الصفوية هي التي حالت بين أوروبا وبين ورطة الهلاك العثمانية كما جاء على لسان سفير أوروبي[1].

ولا زالت الصفوية اليوم -فِكرًا وممارسةً- حاضرةً بقوة، ولا زالت خنجرًا داميًا في خاصرة العالم الإسلامي.

التعريف بالكتاب والمؤلف:

عنوان الكتاب: إيران الصفوية.. كيف صار الإيرانيون شيعة صفويين؟

المؤلف: أمير حسن خُنجي، باحث إيراني، حاصل على الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة طهران، غادر إيران عام ١٩٨٣م، يعمل على مشروع كتابة التاريخ الإيراني والإسلامي في عصوره المختلفة.

معلومات النشر: الناشر: مكتبة النافذة، القاهرة، مصر، ط١، ٢٠١٠م. ترجمة: د. أحمد حسين بكر. عدد صفحات الكتاب (٤٤٣) صفحة.

(*) أستاذ مادة العقيدة والأديان والفرق في المعهد العالي للمعلمين بمحافظة تعز - اليمن.

(١) ينظر: إيران الصفوية.. كيف صار الإيرانيون شيعة صفويين، لأمير حسن خُنجي، مقدمة المترجم، ص (٦).

نظرة عامة على الكتاب وأهمية موضوعه:

عاشت إيران تسعة قرون تقريبًا تتفيأ ظلال الإسلام ومذهب أهل السنّة والجماعة، وظهر منها علماء أفذاذ أسهموا في مسيرة الحضارة الإسلامية وخدموا علوم الشريعة في كافّة فروعها، لكنّ مسيرة العطاء والإسهام الحضاري انقطعت؛ نتيجة للانتكاسة المريعة التي حدثت بعد قيام الدولة الصفوية في إيران سنة (٩٠٥هـ/ ١٥٠٠م)[١].

وكتاب: «إيران الصفوية.. كيف صار الإيرانيون شيعة صفويين؟» لمؤلفه أمير حسن خُنجي، يسلط الضوء على الصفويين (القزلباش) وكيف تمكّنوا من تغيير هوية الشعب الإيراني، وفرض أفكارهم ومعتقداتهم المتطرّفة عليه بالحديد والنار، وبأساليب هي غاية في الوحشيّة والهمجيّة، وتكمن أهمية الكتاب في صدوره عن باحث ينتمي قوميًا لإيران ومذهبيًا للتشيع، وبالتالي لا يمكن اتهامه بالتحيّز القومي والمذهبي ضد إيران ومذهبها الديني السائد فيها اليوم.

يقدّم الكتاب عرضًا تفصيليًا موثقًا للجرائم الصفوية بحقّ الإيرانيين الذين كانوا في أغلبيتهم يومذاك مسلمين سنّة، ويتتبّع مسيرة الخراب والتدمير والإبادة والجرائم الوحشية التي اقترفها الصفويون في المدن الإيرانية واحدة تلو الأخرى، حيث لم ينجُ من التوحّش الصفوي غير مدينتين هما: قمّ وكاشان؛ لأنّ سكانهما كانوا شيعة اثني عشرية، وهما المدينتان الوحيدتان اللتان احتفلتا بالصفويين وجلس الأعيان فيهما -وفيهم فقهاء من الاثني عشرية- في مجلس إسماعيل الصفوي يشاركونه كؤوس الخمر فرحًا وابتهاجًا بقتل الإيرانيين واغتصاب أعراضهم وحرق وتدمير مدنهم!

إنّ من يعتقد أنّ الإيرانيين تشيّعوا لأنّهم فرس سيكون عليه مراجعة قناعته هذه بعد قراءته للكتاب؛ لأنّ الحقيقة التي يجلّيها الكتاب هي أنّ الإيرانيين كانوا أكبر ضحيّة للتشيع، وذاقوا من ويلاته وجرائمه ما لم يذقه غيرهم، حدث ذلك حين أقبل غلاة الشيعة التتار (القزلباش) من صحاري وقفار الأناضول تحت الراية الصفوية (يثأرون لدم الحسين من شعب إيران)! وكان الإيرانيون يومها في أغلبيتهم مسلمين سنّة، وقد نكل بهم الصفويون تنكيلاً قلَّ أن يكون له نظير في التاريخ هذا إن وجد له نظير أصلاً! وتحت وطأة ذلك التوحّش والإجرام تم فرض التشيع الاثني عشري على إيران، ولولا ذلك لكان سكان إيران اليوم في أغلبيتهم مسلمين سنّة شأن بقية المسلمين في العالم.

لقد كان القزلباش الصفويون كارثة تفوق التصوّر نزلت بساحة الإيرانيين، وقد أوجز مؤلف الكتاب حجم تلك الكارثة بقوله: (تلقى جسد إيران تلك الضربة التي لم يستطع أن يقيم ظهره من أثرها حتى اليوم).

> **إنّ من يعتقد أنّ الإيرانيين تشيّعوا لأنّهم فرس سيكون عليه مراجعة قناعته هذه بعد قراءته للكتاب؛ لأنّ الحقيقة التي يجلّيها الكتاب هي أنّ الإيرانيين كانوا أكبر ضحيّة للتشيع، وذاقوا من ويلاته وجرائمه ما لم يذُقه غيرهم**

أبواب الكتاب وفصوله:

جاء الكتاب في أربعة أبواب على النحو الآتي:

- الباب الأول: الأسرة الصفوية وظاهرة القزلباش.
- الباب الثاني: إقامة حكم القزلباش.
- الباب الثالث: تحريضات القزلباش الصفويين في البلاد العثمانية ونتائجها الكارثية.
- الباب الرابع: النتائج الثقافية والاجتماعية لظهور القزلباش في إيران.

وفيما يلي قراءة لأهمّ ما جاء في كلٍّ منها:

الباب الأول/ الأسرة الصفوية وظاهرة القزلباش:

في هذا الباب تتبّع الباحث جذور نشأة الصفويين، والتطوّر الذي طرأ عليهم من جماعة صوفية تنتمي إلى أهل السنّة وتتبع مذهب الإمام الشافعي، إلى جماعة تعتنق الأفكار الشيعية المتطرّفة، وتنتهج سبيل الدم والتوحّش لنشر أفكارها وإقامة دولتها.

وقد تضمّن الباب فصلين:

الفصل الأول: الأسرة الصفوية.

والفصل الثاني: منشأ القزلباش وعقائدهم.

(١) ينظر: إيران في ظل العصور السنية والشيعية، للدكتور عبد النعيم حسنين، ص (٦٩ - ٧٤).

ويمكن تلخيص أهم ما جاء في الفصلين في النقاط التالية:

١/ التصوف في العهد المغولي:

تحت هذا العنوان أوضح المؤلّف مدى سطوة وانتشار التصوّف في القرن السابع الهجري وهو القرن الذي عاش فيه صفيّ الدين الأردبيلي، صاحب الطريقة الصوفية التي عرفت بالصفوية نسبة إلى اسمه (صفيّ)، واستعرض المؤلف الارتباط الوثيق بين انتشار التصوّف خلال الفترة التي حكم فيها السلاجقة الأتراك ومن جاء بعدهم، وبين ظهور الصفويين على مسرح الأحداث.

٢/ صفيّ الدين الأردبيلي:

ولد صفيّ الدين سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م) في قرية (كلخوران) التابعة لأردبيل، وورث المذهب الشافعي عن أبيه وأجداده، وسلك في طريق التصوف حتى تمكّن سنة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) من إقامة زاويته الصوفية في أردبيل، وجمع المريدين حوله، وقد حظيت زاويته برعاية واهتمام الحكام المغول، فأغدقوا عليه العطايا والهبات، حتى وفاته سنة (٧٣٥هـ/١٣٣٤م).

٣/ أبناء صفيّ الدين:

بعد وفاة صفيّ الدين تولى ابنه صدر الدين -بوصيّة منه- رئاسة الزاوية، وشرع صدر الدين في بناء قبّة عظيمة على قبر أبيه جاعلاً من قبره مزارًا كبيرًا، واستمر أمراء المغول في إغداق العطايا والهبات على الزاوية، لا سيّما الأمير المغولي الشهير تيمورلنك (٨٣٢هـ/١٤٢٨م).

وبعد وفاة صدر الدين تولّى ابنه (عليّ) رئاسة الزاوية، وكان الأمير تيمورلنك يعتقد فيه الكرامات؛ فدعم الزاوية بسخاء، وبلغ من دعمه لها أن أوقف أردبيل وما حولها من مزارع وضياع للإنفاق على شؤون الزاوية.

أخطر هبة في التاريخ:

في سنة (٨٠٢هـ/١٣٩٩م) قاد تيمورلنك حملة عسكرية على الأناضول (تركيا) وعاد منها بآلاف الأسرى من الشباب التتري، وقدّمهم هبةً للزاوية الصفوية، وكان هؤلاء الشباب التتري هم نواة الجيش الصفوي، والذين عرفوا باسم (القزلباش) وسيأتي معنا سبب هذه التسمية.

توفي عليّ بن صدر الدين سنة (٨٣١هـ/١٤٢٧م) تاركًا زعامة الزاوية من بعده لولده إبراهيم، في ظل استمرار الدعم السخي للزاوية من الأمراء المغول.

نشوب الصراع على الزاوية وبداية التحوّل الخطير:

في سنة (٨٥١هـ/١٤٤٧م) توفي إبراهيم فاندلعت الحرب على رئاسة الزاوية بين ولده الجنيد وعم الجنيد جعفر، وكان العمّ يدّعي وراثة أخيه، والابن يدعي وراثة أبيه، وكلّ منهما يطمع في الحصول على إيرادات الزاوية ومكاسبها، وانحاز (جهانشاه) الذي كان يسمّي نفسه ملك إيران حينها إلى جانب جعفر، وانهزم الجنيد بن إبراهيم وفرّ إلى الأناضول برفقة الموالين له وهم أولئك التتار الأناضولية الذين أهداهم تيمورلنك للزاوية، وتلك كانت بداية التحوّل الخطير الذي كان له ما بعده.

شكّل غلاة التصوف في منطقة الأناضول وبلاد فارس جسرًا لنقل كثير من المتصوفة أهل السنة إلى المعتقدات الشيعية الباطنية، والتي بدورها تشربت كثيرًا من العقائد المنحرفة من اليهود والنصارى

الجنيد بن إبراهيم الصفوي من التصوّف إلى الغلو الشيعي المفرط:

حين وصل الجنيد بن إبراهيم إلى الأناضول تعرّف على طريقة صوفية شيعية هي الطريقة البكتاشية نسبة الى مؤسسها (حاجي بكتاش ولي)، وهي طريقة استقت عقائدها من أديان وفلسفات شتّى، ومن ذلك أنّها جمعت بين وحدة الوجود عند ابن عربي، وعبادة المسيح عند النصارى، وتأليه عليّ عند غلاة الشيعة، وعبادة الأسلاف عند التتر[1].

وقد تولى رئاسة الفرقة بعد (حاجي بكتاش ولي) عدد من أتباعه كان أخطرهم (بدر الدين) الذي أسقط عن أتباعه فرائض الصلاة والصيام والزكاة والحج، وأباح لهم المحرمات: الخمر والزنا وعمل قوم لوط، وكان الأمر الوحيد الواجب في طريقته هو محبّة (الإمام عليّ) والطاعة المطلقة لشيخ الطريقة، والجهاد لنشر دينه هذا.

(١) للتوسع ينظر: تاريخ التصوف في الدولة العثمانية.. الطريقة البكتاشية نموذجًا، لممدوح غالب أحمد بري، ص (٣٥-٣٦، ٤٤، ٨٣-٩٥).

وكانت لبدر الدين طموحاته السياسية، فدبّر مؤامرة للانقلاب على السلطة العثمانية، وقاد تمرّدًا مسلّحًا أقام خلاله مذابح للمسلمين (أهل السنّة)، وقد تمكن الجيش العثماني من القضاء على تمرّده بعد خسائر فادحة، وأعدمته الدولة العثمانية شنقًا سنة (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م).

وهذه الأحداث وقعت في الأناضول قبل قدوم الجنيد إليها بسبع وعشرين سنة.

وعندما سمع أتباع الطريقة البكتاشية بقدوم الجنيد ذهبوا إليه للتعرّف عليه وعلى أفكاره، وعرف الجنيد أنّ البكتاشية لا زعيم لهم بعد مقتل شيخهم بدر الدين، فطمعت نفسه في زعامتهم، فشرع في جذبهم واستمالتهم إليه، واستشعرت السلطات العثمانية خطورة هذا الأمر، وتحت ضغوطها رحل الجنيد مع أتباعه، وظلّ يرحل من مكان إلى آخر حتى استقرّ به المقام في الإسكندرون، وكانت منطقة الإسكندرون وجارتها أنطاكية مركزًا تاريخيًا للشيعة الذين تسمّوا بـ (أهل الحق)! وهم الذين يعتقدون بألوهية علي بن أبي طالب، وكان سكان هاتين المدينتين الذين انتقلوا من المسيحية الرومية العابدة للمسيح إلى الإسلام قد فعلوا بالإمام عليّ بعد إسلامهم ما فعلوه بالمسيح، وكانوا يصفون عليًا في ذلك الوقت بالصفات الإلهية التي كانوا يصفون بها المسيح من قبل، واعتقد هؤلاء أنّ في السماء إله هو الله، وفي الأرض إله آخر هو عليّ.

وفي الإسكندرون انسلخ الجنيد عن دين الإسلام انسلاخًا كاملاً، فأسقط عن أتباعه الفرائض الدينية، وأباح لهم المحرمات، وبعبارة موجزة: تحوّل إلى نسخة ثانية من بدر الدين، ثم ادعى أنّه من نسل علي بن أبي طالب ونسب نفسه إلى موسى بن جعفر، وعلى درب بدر الدين بدأ بشنّ الحروب والغزوات على القرى والبلدات الآمنة حتى لقي مصرعه في إحدى المعارك سنة (٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م).

حيدر بن الجنيد وبكتاشية الأناضول:

حين قُتل الجنيد كان له طفل اسمه حيدر له من العمر عامان، وقد نصبه البكتاشية شيخًا لهم وهو في هذا السن مستندين إلى نظرية الشيعة الاثني عشرية في أنّ الإمام يولد مكتسبًا للإمامة، ومتى مات الإمام السابق فإنّ ابنه يصبح إمامًا وإن كان طفلاً.

وبدعم من أحد الملوك المتحالفين مع البكتاشية ويدعى (أوزون حسن) تم انتزاع رئاسة زاوية صفيّ الدين في أردبيل من (جعفر الصفوي) وتسليمها لحيدر وكان عمره حينذاك تسع سنوات.

أشرف كبار الشيوخ في البكتاشية على تربية حيدر فلقّنوه العقائد الشيعية والباطنية المتطرّفة، إضافة إلى التدريبات العسكرية والقتالية، وكان في أكثر أوقاته منصرفًا إلى صناعة الحراب والسيوف والدروع، وتدريب مريديه على القتال، وتكديس أنواع السلاح، مستفيدًا من الموارد المالية الكبيرة للزاوية.

ودعا حيدر صراحة إلى تأليه علي بن أبي طالب، وأسقط عن أتباعه الواجبات الشرعية من صلاة وصيام وزكاة وحج، وأباح لهم المحرمات.

وفي سنة (٨٨٤هـ/١٤٧٩م) أمر حيدر أتباعه ومريديه بلبس زيّ خاصّ موحّد، وهو أن يضعوا على رؤوسهم قلنسوة من اللباد الأحمر باثنتي عشرة طيّة، ترمز إلى الأئمة الاثني عشر، ومنذ ذلك الوقت تلقب أتباعه وغالبيتهم من تتار الأناضول بلقب (قزلباش) والذي يعني أحمر الرأس.

وبدأ حيدر بشنّ حروبه على أذربيجان؛ كون أهل أذربيجان في ذلك الوقت مسلمين (أهل السنّة) «وأعلن لخلفائه في فتوى سرّيّة أنّ أهل السنّة في حكم الكفّار، وأنّ الفقهاء السنّيين أعداء الله، ويخرج من الدين كلّ من يتبعهم أو يقلدهم، ويلحق بالكفار ويجب قتله».

وتحت عنوان «جهاد الكفار»: أطلق (القزلباش) نحو مدن أهل السنّة، بدءًا من مدينة أردبيل التي عاثوا فيها فسادًا ثم المدن الأخرى مثل شروان وداغستان وأذربيجان.

وفي سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) قاد بنفسه ستة آلاف قزلباشي وهاجم بهم القرى والمدن السنّية في نواحي (بردع) و(محمود آباد) و(شماخي) وأقام مذابح لسكانها، وقتل الفقهاء والمدرّسين وأئمة المساجد، وأضرم النيران في المساجد والمدارس الدينية.

كان الشيخ حيدر ابن عمة السلطان يعقوب بن أوزون حسن، والتي كانت تشفع لولدها عند السلطان كلما ضجَّ الناس من اعتداءاته وجرائمه، ولم يكن السلطان يعقوب راضيًا عن سلوك القزلباش، وقد استدعى شيخهم حيدر وأخذ عليه التعهدات بالتوقف عن أعمال القتل والتخريب والنهب، ولكن دون جدوى، وبسبب تمادي القزلباش في أعمالهم الإجرامية لم يجد السلطان يعقوب بدًا من حربهم، فوقعت معركة بينه وبينهم سنة (٨٩٣هـ/١٤٨٨م) تمكن فيها السلطان يعقوب من هزيمة القزلباش وقتل زعيمهم حيدر؛ ولأن (حيدر) كان قد أسرف في جرائمه بحق أهل أذربيجان، وكان أهل أذربيجان غاضبين من السلطان يعقوب ويحملونه المسؤولية؛ فقد أمر -لإخماد غضبهم وسخطهم عليه- أن يطاف برأس حيدر في شوارع أذربيجان وأن يلقى به بعد ذلك للكلاب.

وأمر السلطان أيضًا بتعطيل الزاوية الصفوية في أردبيل ومصادرة أموالها، فانكمش القزلباش وعادوا إلى قبائلهم في صحاري الأناضول.

كانت منطقة الإسكندرون وجارتها أنطاكية مركزًا تاريخيًا للشيعة الغلاة الذين تسمّوا بـ (أهل الحق)! وبعد أن تركوا المسيحية.. فعلوا بعليّ ﷺ ما فعلوه بالمسيح عليه السلام، فوصفوا عليًا بالصفات الإلهية التي كانوا يصفون بها المسيح من قبل، واعتقد هؤلاء أنّ في السماء إلهًا هو الله، وفي الأرض إلهٌ آخر هو عليّ ﷺ

عودة القزلباش من جديد:

في سنة (٨٩٦هـ/١٤٩٠م) توفي الملك يعقوب، فدخلت البلاد الإيرانية بعد وفاته في صراع محتدم، وحروب طاحنة بين المتنازعين على الملك من أولاده وغيرهم.

وفي خضم الصراع قرّر أحد الأطراف المتصارعين ويدعى (رستم بيك) الاستعانة بالقزلباش فأعاد فتح زاوية أردبيل وأعاد أولاد حيدر إليها.

وما إن سمع القزلباش المشتّتين بين قبائلهم في الأناضول بخبر إعادة فتح زاوية أردبيل وعودة أبناء حيدر إليها حتى توافدوا إليها من جديد، وكان لحيدر ثلاثة أبناء هم: علي وإبراهيم وإسماعيل، وقد قاد عليٌّ القزلباش في مواجهات مع خصوم رستم بيك، وتمكّن من تحقيق بعض الانتصارات، لكنّ القزلباش خرجوا عن السيطرة، فبسطوا «يد الاعتداء في أرواح الناس وأموالهم في

أردبيل والقرى المجاورة، وجعلوا الجهاد ضد السنّيين عنوان عملهم، واغتالوا العلماء بأذربيجان بأساليب مختلفة، وأضرموا النيران في الكثير من المساجد والمدارس»؛ الأمر الذي اضطر (رستم بيك) إلى إغلاق الزاوية والأمر بالتحفّظ على أولاد حيدر الثلاثة: علي وإبراهيم وإسماعيل، لكنّ مقاتلي القزلباش تمكّنوا من تخليصهم والهروب بهم، ومن الأمور الغامضة في تاريخ الصفويين اختفاء عليّ الذي يُقال إنّه قتل أثناء محاولة الهروب من ملاحقة جنود رستم بيك، وأيضًا اختفاء إبراهيم من مسرح الأحداث، وبقاء إسماعيل فقط.

الباب الثاني/ إقامة حكم القزلباش:

وتضمن فصلين: الأول: الشاه إسماعيل الصفوي. والفصل الثاني: سيطرة القزلباش على إيران، ويمكن تلخيص ما جاء في الباب في النقاط التالية:

[١] الشاه إسماعيل الصفوي:

يُعدّ إسماعيل بن حيدر بن الجنيد بن إبراهيم بن علي بن صدر الدين بن صفي الدين الأردبيلي، المولود في أردبيل سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٧م) أخطر الشخصيات الصفوية، وأكثرها إجرامًا وفسادًا في الأرض، وهو صاحب الدور الخطير والكبير في تغيير هوية إيران، وصبغها بالصبغة الشيعية.

نشأ إسماعيل على العقائد الشيعية المتطرّفة إلى جانب التنشئة العسكرية على يد المربين البكتاشية من تتار الأناضول. وعرف بميله منذ طفولته إلى سفك الدماء وإزهاق أرواح الحيوانات عبثًا، وعلى نهج أبيه وجدّه أسقط عن أتباعه الفرائض الشرعية، وأباح لهم المحرمات، وكان فاسدًا منحلّ الأخلاق مدمنًا على شرب الخمر، مشتهرًا بعمل قوم لوط، حتى إنّ أتباعه يذكرون في سيرته أنّه كان يمارس شذوذه مع العدد الكبير من الغلمان.

لقد كان الدين في مفهوم إسماعيل الصفوي ومريديه القزلباشية يتلخّص في إسقاط الفرائض الشرعية وإباحة المحرمات، وتأليه علي، والبكاء واللطم على الحسين، وسبّ صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وطلب ثأر الحسين من المسلمين (أهل السنّة)! وأطلق إسماعيل الصفوي وأتباعه على دينهم هذا اسم: (المذهب الحق)! وعلى دين الإسلام اسم: (المذهب المنسوخ)!

[٢] حروب إسماعيل الصفوي وجرائمه بحقّ المسلمين في إيران:

في أوّل تحرّك عسكري لإسماعيل الصفوي اجتمع له سبعة آلاف مقاتل قزلباشي، غزا بهم مدينة شروان، واحتفل بالنصر بإقامة منارة من جماجم القتلى، ولأنّ الغنائم كانت كبيرة خشي إسماعيل من عودة القزلباش إلى ديارهم في الأناضول، فأمرهم بإلقاء كلّ ما غنموه في النهر متعلّلاً بأنّ الشروانيين سنّيين ومالهم نجس.

ثم سيطر على مدينة باكو (سكانها مسلمون سنّة وتقع على الناحية الغربية من بحر الخزر)، وبعدها تحرّك نحو مدينة تبريز، وقام شخص يدعى (زكريا حجّي) كان ذا سمعة حسنة وله احترام عند أهل تبريز بإقناع قادة وفقهاء المدينة بتسليم المدينة لإسماعيل الصفوي زاعمًا لهم أنّ إسماعيل حفيد رجل صوفي عظيم هو صفي الدين، وأنّه صوفي يحبّ الخير للجميع ولا يضمر شرًا لأحد؛ فسلّم أهل تبريز مدينتهم طواعية للصفويين سنة (٩٠٧هـ/١٥٠١م)، وكان سكان تبريز حينها يزيد عددهم عن مائتي ألف، وكلّهم مسلمون ومذهبهم الفقهي هو المذهب الشافعي.

ولأنّ مدينة تبريز كانت مدينة كبيرة وعامرة، فقد جعل الاستيلاءُ عليها إسماعيلَ الصفوي يشعر بفخامة الإنجاز؛ فلقّب نفسه بلقب شاه إيران، وأصبح من يومها يعرف بالشاه إسماعيل.

وكان العرف أنّه إذا سلّم أهل مدينة مدينتهم طوعًا دون قتال فإنّهم يكونون في أمان من التعرّض لأيّ اعتداء يمسّهم في أرواحهم أو أموالهم أو دينهم، غير أنّ إسماعيل الصفوي لم يعر ذلك اهتمامًا، وقرّر أن يجبر أهل تبريز على الانسلاخ من الإسلام (المذهب المنسوخ) والدخول في دينه (المذهب الحقّ)!

كان اليوم التالي لدخول الصفويين لمدينة تبريز هو يوم الجمعة، «ودخل الشاه إسماعيل المسجد الجامع بتبريز في ذلك اليوم، وأمر بأن يقف قزلباشي بسيف مسلول بين كل رجلين من الجالسين في المسجد، وأن يضربوا على الفور عنق من يظل صامتًا إذا ما صعد هو المنبر، وطلب من الناس أن يتبرؤوا من المذهب المنسوخ، ويلعنوا أبا بكر وعمر وعثمان، وصعد إسماعيل المنبر ووقف عليه، وخاطب جمع الحاضرين في المسجد بدون

أية مقدمات قائلاً: «تبرؤوا من السنّيين والعنوا أبا بكر وعمر وعثمان»، وصاح القزلباش الذين كانوا قد وقفوا بين الناس بالسيوف المسلّة بلعنهم، وقالوا: «فليكثر اللعن ولا يقلّ» ولكن الحضور أطلقوا ألسنتهم بالاعتراض، وعلت أصوات الناس بالضجيج، فكرّر الشاه اللعن، وقال بصوت عال: «سيقتل كلّ من لا يقول».

«وكان يهزّ سيفه بانتظام ويخاطب الناس آمرًا وبلغة نصف تركية ونصف فارسية قائلاً: «العنوا أبا بكر وعمر وعثمان، وتبرّؤوا من أعداء الله والنبي»!

ولما لم يستجب المصلّون لأوامره: أمر القزلباش الواقفين بين الصفوف بضرب أعناق الجميع، وكانت مجزرة مروّعة حوّلت الجامع إلى بركة من الدماء والأشلاء، ولم يستطع أحد النجاة بروحه سالمة من يد القزلباش إلا من أعلن البراءة واللعن فرارًا من القتل.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت مدينة تبريز ساحة للقتل الجماعي والحرق والنهب والاعتداء على الأعراض. وتم إلقاء القبض على كلّ الفقهاء والمدرّسين والأئمة والقضاة لإجبارهم على سبّ ولعن أبي بكر وعمر وعثمان وأم المؤمنين عائشة، ومن لم يستجب كان مصيره القتل، فقتل الكثيرون، وأضرمت النيران في منازلهم، وألقي القبض على نسائهم وأولادهم وتعرضوا للاعتداءات الوحشية.

«لقد كانت جماعات القزلباش التتر المسّلحة بالخناجر والفؤوس تسير في شوارع مدينة تبريز وحاراتها وتهتف بشعاراتها وتطلب من الناس أن يخرجوا من البيوت ويتبرؤوا من أبي بكر ورفاقه، وكان الذين لا يخرجون من بيوتهم ولا يتجاوبون مع هتافات القزلباش يتعرّضون لغضبهم ويهلكون على أيديهم، وكان الاعتداء الجنسي على الفتيات والفتيان بتبريز وشقّ بطون النساء الحوامل وإضرام النار في أجساد القتلى أمرًا معتادًا في الأيام التالية، وكان هذا يحدث في كلّ حيّ وناحية أمام أعين الجميع في كل الساعات بالليل والنهار، وقتلت زوجات الرجال الذين لقوا مصرعهم بفؤوس القزلباش وسيوفهم أيضًا، وشقت بطون كثير من النساء الحوامل وأخرجت الأجنّة وألقيت على الأرض».

ووصل الدور إلى باقي مدن أذربيجان بعد تبريز، واستمرّت أعمال الهدم والتحريق للمساجد والمدارس وقتل الفقهاء والمدرّسين والمؤذنين وأئمة المساجد لمدة عام كامل بلا كلل أو تعب، ونال مدينة أردبيل التي كانت مدينة صفيّ الدين وكان سكانها جميعًا من أهل السنّة نصيبها من الإجرام، «فكان القزلباش وعصابات المتبرّئين يسيرون في شوارع المدينة وحاراتها وفي يدهم الخناجر والسيوف والفؤوس، وكانت البيوت التي لا يخرج أهلها لمشاركة القزلباش في هتافاتهم تحرق بالنار، ويحترق أهل تلك البيوت في النيران أيضًا».

وفي مقارنة بين التتار والصفويين يقول المؤلف: «ولا يمكن مقارنة ما فعله القزلباش بسكّان مدن أذربيجان خلال عام واحد بجرائم جنكيزخان، فقد كان جنكيز يخرب ويدمّر وكان يقتل، ولكنّه لم يكن له شأن بدين الناس وثقافتهم ونواميسهم، حتى إن الاعتداء الجنسي على النساء والفتيات كانت عقوبته الإعدام عند المغول في «ياسا» جنكيز، ولهذا لم يعتدِ المغول على نواميس النساء والفتيات على الرغم من أنّهم كانوا يقتلون الرجال، ولم يكن المغول يشقّون بطون النساء الحوامل، ولم يخرجوا الجنين من بطن أمّه ليقتلوه، ولكن هؤلاء القزلباش -على الرغم من أنّهم من نسل هؤلاء المغول- لم يرحموا أيّ شيء طبقًا للأمر الذي أصدره إليهم الشاه إسماعيل».

ومن الأساليب الإجرامية التي سلكها الصفويون:

- امتحان السكّان بشرب الخمر، ومن لا يشرب يُقتل، لأنّ تلك علامة في نظرهم على بقائه على (المذهب المنسوخ)؛ أي على دين الإسلام.

- إجبار الفتيات على امتهان مهنة الدعارة والغلمان على امتهان عمل قوم لوط، وكانوا يضعونهم في أماكن مخصوصة، وكان الزبائن من القزلباش وعصابات البراءة. ومَن يرفض امتهان الدعارة من الفتيات والغلمان كانوا يثبتون جسده بمسامير في جدار أو جذع شجرة ويقومون بسلخ جلده وهو على قيد الحياة على مرأى من الآخرين.

- ولهم غير ذلك طرق وحشية لا يتّسع المقام لذكرها.

وبعد مدن أذربيجان استولى الصفويون على المدن والحواضر الإيرانية: أصفهان، وفارس، وكرمان، وشيراز، وهمدان، وكازورن، وفيروز

آباد، وخوار، وسمنان، وفيرزكوه، وطبس، ومشهد، ومرو، وغيرها، ومارسوا أبشع الجرائم في حقّ سكانها الذين كانوا في أغلبيتهم من أهل السنّة وشافعية المذهب.

كان الدين في مفهوم إسماعيل الصفوي ومريديه القزلباشية يتلخّص في إسقاط الفرائض وإباحة المحرمات، وتأليه علي، والبكاء واللطم على الحسين، وسبّ الصحابة ﷺ، وطلب ثأر الحسين من المسلمين (أهل السنّة)! وأطلق إسماعيل الصفوي وأتباعه على دينهم هذا اسم: (المذهب الحق)! وعلى دين الإسلام اسم: (المذهب المنسوخ)!

الباب الثالث/ تحريضات القزلباش الصفويين في البلاد العثمانية ونتائجها المفجعة:

وفي هذا الباب تناول المؤلف الصراع بين الدولة العثمانية والصفويين، وجاء الباب في فصلين: الفصل الأول: حرب تشالديران وضياع جزء من إيران. والفصل الثاني: اتساع نفوذ العثمانيين في الشرق الأوسط. وذكر المؤلف تفاصيل كثيرة يضيق المقام عن ذكرها، ولكن يمكن القول إجمالاً: إن السياسة العدائية التي انتهجها الصفويون ضد المسلمين داخل إيران وخارجها قد أدت إلى إضعاف إيران داخليًا، وخلقت العداوة لإيران مع محيطها الإقليمي لا سيما الدولة العثمانية التي حاولت تجنب الصراع مع الصفويين دون جدوى. وكانت إيران هي الخاسر الأكبر جراء تلك السياسة الصفوية التي كان شعارها «الحرب حتى القضاء على أهل السنة في العالم».

الباب الرابع/ النتائج الثقافية والاجتماعية لظهور القزلباش في إيران:

وتضمّن ثلاثة فصول: الفصل الأول: منظمات القزلباش الصفويين ومؤسساتهم. والفصل الثاني: المؤسسات الدينية الصفوية. والفصل الثالث: عزلة إيران التاريخية.

وقد حوت هذه الفصول مسائل وقضايا وتفصيلات كثيرة، وسنكتفي منها بذكر شيء يسير مما جاء في الفصل الأول حول منظمات القزلباش الصفويين ومؤسّساتهم، ومن تلك المنظمات: (عصابات البراءة)، وقد مرّ معنا ذكرهم وأفعالهم الإجرامية الشنيعة. و(منظمة أكلة لحوم البشر)، وكانت وظيفتهم تمزيق البشر الأحياء والأموات وأكلهم؛ حيث "كانوا يمزّقون أبناء بعض الكبراء ويأكلون لحومهم أمام آبائهم وأمهاتهم بأمر الشاه إسماعيل".

وكان كثيرًا ما يُمسك أحد كبراء إيران عن طريق جماعات البراءة ويطلب منه التبرؤ من (المذهب المنسوخ) فإن لم يستجب يسلّم إلى أكلة لحوم البشر، "وكان أكل لحوم البشر يتم وفقًا لترتيب يبدأ بتمزيقهم أذن الإنسان بأسنانهم، وكانوا يمضغونها ثم يقتلعون أنفه بأسنانهم ويمضغونها، ثم يمزّقون في المرحلة التالية لحم ذراعيه، وبعدها لحم فخذيه بأسنانهم ويأكلونها، وكان هذا العذاب يستمر حتى يلقى الرجل حتفه. وكان الأشخاص الذين لم تكن لهم القدرة على المقاومة تحت هذا العذاب يقبلون التوبة والبراءة في اللحظة الأولى من اقتلاع آذانهم بالأسنان".

وكانت أصعب الأيام على الإيرانيين العشر الأولى من محرم التي يحيي فيها الصفويون ذكرى استشهاد الحسين، فقد كانت تلك المناسبة فرصة للصفويين للتنكيل بالأسر الإيرانية التي كانوا يشكّون في بقائها على دينها، فكانوا يهجمون على تلك الأسر و"يشقون بطن كلّ امرأة تصل إليها أيديهم من الأُسر السنّية، وكانوا يمزّقون الرجال إربًا إربًا، وكانوا يضربون الأطفال بالأرض فتنشق أجسامهم. إنّ المصائب التي كان شعب إيران يراها في العشر الأوائل من شهر محرم -خاصة يوم عاشوراء- أكثر من المصائب التي كانوا يرونها على يد القزلباش والمتبرئين طوال العام".

وختامًا:

فالكتاب حافل بالقضايا التاريخية والفكرية والاجتماعية والسياسية، ونظرًا لحجمه الكبير، فقد حاولنا أن نقدم قراءةً له تُجيب عن السؤال الذي عنون به المؤلف الكتاب: "كيف صار الإيرانيون شيعة صفويين؟" ولعلّ هذه القراءة تكون حافزًا للعودة إلى الكتاب ومطالعته بتمعّن، وهو قمين بذلك.

عمليات التحرير التي جعلت سوريا تحتضن الجميع

محمود طعمة

من كان يؤيد الأسد فإن الأسد قد فرّ، ومن كان يسعى للحرية فإن الحرية قد تحققت. الآن تشرق شمس الحرية على سوريا تلك الأرض التي رويت بدماء الشهداء والجرحى.

في الغربة الروتينية المتعبة مستلقيًا على سريري، ملتحفًا غطائي... اليوم هو الأحد (٨-١٢-٢٠٢٤م) الساعة الخامسة صباحًا، يوقظني طنين الرسائل المتكدسة، أفتح عيوني بجهود قليلة وآخذُ هاتفي، أقرأ رسالة حرفيًا «شو نايم! سقط... صاروا بنص الشام، وحرروا معتقلي صيدنايا»!

فجأة نهضت قائمًا إلى صديق، وقلت له: قم سقط النظام المجرم، فأشار نعم، واحتضنني ولم نستطع بعدها النوم، عن أي نوم نتحدث فنحن أبناء الغوطة المُهجرون المكلومون المظلومون ننتظرُ سقوطهُ منذ عام ٢٠١١م. للوهلة الأولى ظننتُ أنني أحلم، لم أصدق ما تراه عيناي، ولكنَّ وعد الله حق، لقد سقط النظام وبدأت سوريا الوطن أو سوريا الحديثة بالنهوض، لقد فرَّ الأسد كالأرنب، وهنا أظلِم الأرنب في تشبيهِ به. هنا سرقتني الذكريات من الغوطة التي هجرنا منها قسرًا، تذكرت قلب أمي الدافئ وصوت أبي الشجن وجمع عائلتي المبعثر وتذكرت كل شيء بلحظة خاطفة لا تتسع الدنيا لذكرها.

دور الحرية في تعزيز النشاط الشبابي: تجربة واقعية من الثورة السورية

عبد الله النايف

خلال السنوات الماضية، كانت المناطق السورية المحررة تعيش ضمن بقعة جغرافية صغيرة لا تتجاوز ١٠٪ من مساحة البلاد. ورغم ضيق المساحة والموارد المحدودة، برز نشاط شبابي ملحوظ تمثّل في ظهور الفرق التطوعية، والاتحادات الطلابية، والعديد من المؤسسات التي شكّلت منارات للتغيير والإبداع.

هذه التجارب استطاعت -رغم التحديات- أن تُصدِّر كفاءات علمية وعملية، حيث نجح الشباب في تقديم نموذج يُحتذى به في العمل الجماعي والإنتاجية الفعالة، كان هذا النجاح نتيجة بيئة تُعزز من حرية الفكر والتعبير، مما أتاح لهم إطلاق إمكاناتهم لتطوير ذواتهم ومجتمعاتهم. على النقيض من ذلك، نلاحظ في المناطق المحررة حديثًا، والتي تتمتع بمساحات واسعة وتنوع مجتمعي كبير، وجود فراغ كبير في ساحات العمل الشبابي، يعود هذا الفراغ بشكل رئيسي إلى غياب المناخ الذي يُتيح حرية الفكر والتعبير، الذي عمل عليه النظام المجرم، والذي يُعتبر المحرك الأساسي للعمل الشبابي المنظم والإبداعي.

الحرية ليست مجرد قيمة نظرية، بل هي حاجة جوهرية كانت تمثل العنصر الأهم في اندلاع الثورة السورية. الحرية السياسية والفكرية والاجتماعية التي عايشها الشباب في بعض المناطق المحررة قدّمت دليلاً عمليًا على أهميتها في تمكين الأفراد وتعزيز قدراتهم.

سبحان من أشرقت الأرض بنوره

تسنيم علي خليل

سبحان من بذكره تطمئن وتحيا القلوب، سبحان من يسجد له من في السماوات والأرض، سبحان من إذا شاء أمرًا قال له: كن فيكون.

ومن بعد ظلام حالك يشق النور الظلام ليطلع على سوريتي الحبيبة فجرًا أضاء العتمة الدامسة العصيبة. لم يضئ سوريتي فحسب؛ بل أضاء وأشعل الأمل في كل البلدان، في مشارق الأرض ومغاربها، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الحمد لله والمنة له وحده ... أنْ أحيانا لنعيش فرحة النصر على العدو الظالم الفاجر.. الحمد لله على نعمة الصبر والقوة التي منحها الله للشعب السوري والمعتقلين وأهاليهم.

صحيح أن الظالم الهارب قتل مئات الآلاف، وهجّر الملايين، ونكّل بالشعب المسكين، إلا أن الله له حكمةٌ في هذا الأمر، وله الحكمة في مدته ووقت الفرج والانتصار.. ففي هذه المحنة أثبت الشعب السوري أن من يكون مع الله يكون الله معه، وأنه ليس بعد الصبر إلا النصر، وليس بعد العتمة إلا النور.

ومن هذه البطولات تتعلم الأمم والشعوب الصبر والقوة والأمل، والله تعالى لا يعجزه شيء.

توبةٌ صادقةٌ خيرٌ مِن تلوُّنٍ مفضوحٍ

أحمد خالد أحمد

تخلَّف قومٌ عن غزوة تبوك، كما تخلَّفت أقوامٌ عن نُصرة ثورة الشام، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وبدأ بالمسجد كعادته، ودخل ركبٌ مِن الذين تخلفوا يعتذرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقبل منهم ظواهرهم ويستغفر لهم، إلا أنَّ ثلاثةً صدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ واعترفوا بذنبهم، فتركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقضي الله فيهم، فأنزل الله بحقهم آياتٍ تُتلى إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، ألا يجب على مَن كثَّر سواد الظالمين لسنواتٍ، وأعلن ولاءه لهم، أن يخلو بينه وبين نفسه، ليندم على ما فات! كيف يستسيغ أن يُصدِّر نفسه! ويُعلن بسرعة البرق خلع ثوبه القديم -المتلئ برائحة مُداهنة القتلة الفجرة- ولبس ثوب الثورة التي تتبرَّأ منه، ألا يحترم ماء وجهه؟ ألا يسأل نفسه: كيف سيلقى ربَّه؟ الفُرصة أمامنا، فلنتَّقِ الله في مواقفنا وأعمالنا.

فَمَا لَكُم!

د.خير الله طالب

غادر المسلمون ديارهم وأهليهم في مكة، إلا ضعفاء ومتثاقلين. وتظاهر بعض مشركي مكة بالإسلام، فعرف الصحابة نفاقهم بقرائن أفعالهم، إلا أنَّ الأمر اشتبه على بعض المسلمين، فجاء القرآن موضحًا حاسمًا معاتبًا: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾[1].

هذا المنافق مركوس مرتكس في الكفر، مراوغ بلسانه، مردود إلى الشرك فعائد إليه أسوأ ما كان؛ جرّاء خداعه المؤمنين وافترائه على رب العالمين، فلا رجاء فيه، ولا يجوز الاشتباه في أمره. وهذا لا يعني فتح الحرب مع جميع المنافقين؛ فليسوا درجة واحدة.

فمنهم ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، دخلوا مع معاهديكم بترك القتال، فصار لهم عهد مثلهم. وفئة ثانية ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾، لم تسمح نفوسهم بقتالكم احترامًا لكم، ولا بقتال قومهم الكافرين، فكفاكم الله شأنهم، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

أما ثالث الفئات فإنما تركوا قتالكم خوفًا لا احترامًا، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.فأمر بقتالهم لكونهم معتدين ظالمين تاركين للمسالمة، فكيف إذا ناصبونا العداء وقاتلونا وقتلونا في بلدان عديدة!

عدل تام لا سبيل له على المسالمين من المنافقين، وحزم كامل يردع منهم المعتدين، التأم به أمر المؤمنين في المنافقين، فالتزموه وجسّدوه يوم حرب المرتدين.

في يومنا هذا ابتلي المسلمون باشتباه رأي بعضهم في قوم فاجرين، يمضون في خططهم الخمسينية، ويفرغون حقدهم المجوسي، متلحفين بعقيدة يسمونها شيعية، يتلخص حالهم في معالم ثلاثة:

أولها: اعتزازهم بغير هوية الأمة، واختيارهم اعتقادًا مختلفًا في الرب المعبود، والنبي المرسل، والقرآن المنزل، والدين المصطفى، والصحابة الكرام، حتى طفحت مروياتهم بالكفر والشرك في كتبهم.

ثانيها: حقدهم الأعمى على أمة محمد ﷺ، وإعلان حربهم عليها، وقتلهم أهل الإسلام بالتعاون مع أهل الأوثان، وسعيهم في الأرض فسادًا بصناعة الفتن، حتى صار خوارج اليوم أحيانًا جزءًا من شرورهم، وانفتحت شهيتهم لتدمير عواصم المسلمين ومدنهم واحتلالها، واستعراض قوتهم واعترافهم أنه ما كان للصليبيين أن يقدروا على احتلال بعض البلدان وتدميرها إلا بمساعدتهم لهم.

ثالثها: نفاقهم ومكرهم وشدة مراوغتهم، ونكوصهم المتكرر عن التزامات الوفاق واتفاقات الوحدة الذي تكررت به شهادة علماء المسلمين، وإخفاء تحالفاتهم العدوانية، وتمسحهم بالقضية الفلسطينية، رغم كيدهم للحرمين وتهديدهم بلادها.

قد مضت على الفتنة بالرافضة المجرمين عقود، فما هدأ التطبيل لهم إلا بمقتل وتهجير الملايين في العراق وسوريا واليمن، ثم تفور الفتنة اليوم جذعة، يحلو فيها لبعضهم لمز أهل السنة بخذلان الطوفان، وتجيير المناصرة لذلك الطغيان، وتفسير تصريحات مرشد القوم بعيدًا عن المجازر والدماء وأنين المهجّرين. ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

قد كان المسلمون فئتين في أمر هؤلاء عقودًا اتسمت بالحرب الباردة من طرف واحد، وبينما القوم ماضون في تصدير ثورتهم حتى جاءتهم فرصة الثورات فانتهبوا الحصة الأكبر. أعقبتها الثورة المضادّة التي خنقت غزة، ودفعت بها أكثر اضطرارًا نحو أولئك المخادعين، بينما هم يدارون مصالحهم، ولا يكسرون (قواعد الصراع)، مهدرين دماء قادة الجهاد المغدور بهم في ديارهم.

ثم يأتيك التشنيع على الحذِر بتهمة التطبيع والتصهين، ورمي الشعوب بجريمة حكامها في ذلك، في مغالطة جائرة جالبة للأسى، غافلة عن ضرورة الاعتبار دون انتظار مثل مصير من اكتوى بتلك النار المجوسية، التي نعوذ بالله أن تتمدد نارها فيصيح الناس: ويل للعرب.

فما بالك لو بقينا فيهم فئتين، وقد انفتحت أبواب الحرب منذ الطوفان، واشتد تدافع الأمم! لتجدنّ أول النجاة حينها وحدة الموقف تجاه المجرمين، ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

(١) الآيات في المقال كلها في سورة النساء: [٨٨-٩١].

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com